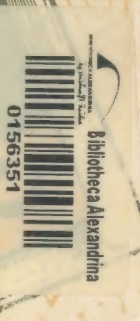
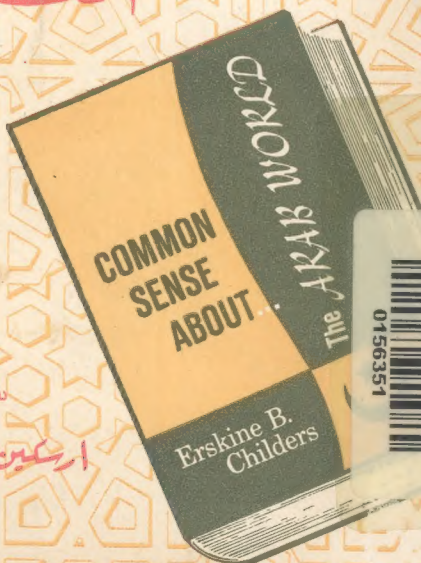


إختبرنا لك ٩٧



# حول العالم العربي



مقدم  
أركان تشيلدرز



أخترنا لك - ٩٧

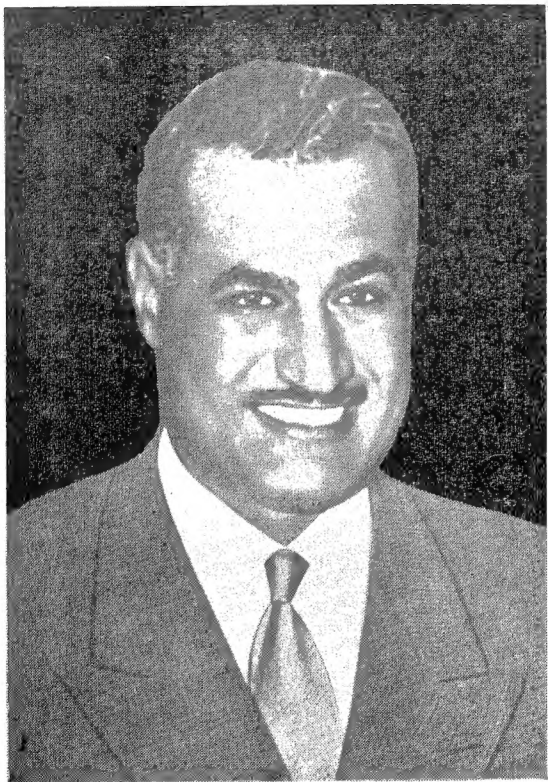
# حول العالم العربي

بقلم  
إرسكين تشيلدرز  
Erskine Childers.

ترجمة

محمد عبد الله الشافعي





الرئيس جمال عبد الناصر



## مقدمة

لن يستفيد الكثير ، في عرض موجز كهذا ، إذا نحن أسهبنا في سرد التاريخ القديم للعالم العربي برمته — من المحيط الاطلسي إلى الخليج العربي — وإذا كان معظم اهتمامنا منصباً في هذا الكتاب على منطقة الشرق الاوسط إلا أننا لا نهدف بذلك إلى التقليل من شأن المغرب ، ذلك البلد العربي البالغ الأهمية ، الذي كان يعرف من قبل باسم شمال إفريقيا الفرنسي .

لقد تركز اهتمام دول العالم على الشرق الاوسط العربي ، وبلغت الحاجة إلى فهم هذه المنطقة ذروتها ، كما انبعثت منها أيضاً أعظم الاخطار التي تهدد السلم الدولي ، والتي نجمت عن عدم وجود التفاهم للمشار إليه ، وإزاء هذه الاسباب أهيب بمواطني المغرب العربي ودارسيه أن يهتموا اهتمامنا بالشرق الاوسط ، هذا الاهتمام الذي يغطي حق منطقتهم ..

وبالرغم من الاهتمام المشار إليه إلا أن علينا أن نبادر بالقول إلى أن الصفحات التالية مليئة بتلخيصات عابرة ، وهذا أمر لا مفر منه في تاريخ يستوعب حوالى ١٣٥٠ عاماً . أما بالنسبة للذين يريدون الغوص إلى أمتق من هذا ، فقد ضمنت الكتاب قائمة بأسماء مراجع متوفرة في المكتبات ، أو مراجع يستطيع الشخص العادى شراءها .

ولقد استرشدت في كتابي بالمبدأ التالي : إن دراسة العالم العربي تتطلب قبل كل شيء تحديد تراث الماضي ، والأحداث الراهنة والظروف البيئية ، والآراء والاتجاهات التي تحرك العرب بالذات ، من أجل ذلك لا يعتبر هذا الكتاب — بأي حال من الأحوال — عرضاً لسياسة الغرب وميوله في العالم العربي ، والكتاب يفترض أن هذه الأشياء معروفة أكثر من معرفتنا للأفكار والحركات التي يقوم بها أولئك الذين يوجه الغرب إليهم سياسته وميوله ، فما لا شك فيه أن من أهم مستلزمات العلاقات الدولية أن ندرس كل موقف أو مشكلة لا من وجهة نظرنا ، فحسب ، وإنما من وجهة نظر الشخص الآخر أيضاً ، وأن نحكم — في أناة — بما إذا كان هناك صراع جوهري بين وجهتي النظر ، فإذا ثبت أن هناك صراعاً بعد هذا الاختيار الدقيق ، فعلياً أن نسمي وراء حل يوفق بين وجهتي النظر المشار إليهما.

قد يبدو أن هذه ملاحظة سطحية صارخة تبرز على صفحات كتاب ، ولكن أومن بأن الصفحات التالية ستثبت لنا أن موقفنا من العالم العربي في عثرات السنين الأخيرة كثيراً ما تجاهل هذه السطحية ، وكانت النتائج جد ضارة بمصالحنا المشروعة في العالم العربي مثلاً هي ضارة بالعرب غير أن هذا الكتاب لم يكتب بمرارة من يذكر نكبات الماضي ، وإنما هو يتطلع إلى المستقبل في تعقل ، ويتناول عالماً يضم حوالى ٨٥ مليوناً من البشر الذي يتحتم على الغرب ، في النهاية ، أن يتفاهم معهم .



ومن المستحيل أن أفنى بحق كل الذين عاونوني في العالم العربي ،  
 لسنوات عديدة ، في البحث والترحال ، ومن بينهم الرئيس ناصر ،  
 وكثيرون غيره ، والقائمة تمتد لتشمل عدداً كبيراً من العرب المجهولين  
 الذين يبلغون في الأهمية مبلغ زعمائهم المشهورين .

أما بالنسبة لكافة الآراء ، التي وردت على هذه الصفحات ، فإن  
 مسئوليتها تقع على عاتقي أنا وحدي بطبيعة الحال .

« ا . ب . ت »

# الفصل الاول

## طبيعة العالم العربي وأهميته

« العالم العربي » عبارة وصفية ، ومفهوم لم يألفه العالم الخارجى إلا فى السنوات الأخيرة ، فاعلة هذا ؟

إن الكتاب الحالى يتحمل عبء الرد على هذا السؤال ، من بين الأسباب ظهور « عروبة » أكثر صراحة فى المجال الدولى ، وظهور منطقة كاملة من العالم العربى كانت تسمى بـ « شمال افريقية الفرنسى » فى الماضى - لتؤكد شخصيتها المستقلة ، وقيام مصر من جديد بلعب دور حيوى فى العالم العربى .

والناس الذين يطلق عليهم اسم العرب يمتدون من شواطئ شمالى غربى افريقية المطلة على المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى المطل على المحيط الهندى ، ومن داخل افريقية الشمالية إلى الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط بأكمله ، وإلى الحدود الجنوبية لتركيا . ويضم العالم العربى حوالى خمسة ملايين ميل مربع ( ١/١١ من مساحة رقعة الأرض ) كما يحتضن حوالى ٨٥ مليون نسمة ١/٢٠ من مجموع الجنس البشرى ) .

وأكثر من نصف هذه المنطقة الضخمة عبارة عن صحراء ، تخلو من الماء تماما . أما الأجزاء المكتظة بالسكان فتتفاوت بين مناطق ساحلية

غنية وسلاسل جبال شاهقة ، مثل جبال أطلس وسلاسل جبال لبنان في الغرب والشرق ، كما تتراوح بين سهول واسعة تغذيها مياه الفيضان ، إلى وديان محصورة وأشرطة ضيقة مزروعة على حافة الصحراء والسهول الجرداء ، فإذا حدث وسقط مطر فإنه لا يسقط الا في الشتاء ، باستثناء جزيره ترتوى من مياه الصيف استقرت في الصحراء ، وحزام صيفي بمائل في اليمن . والجزء الأكبر من المنطقة العربية يدخل في تعريف عالم المناخ للجفاف الدائم ، إلا فيما يتعلق بمصادر الماء فهناك ثلاث مناطق كبرى . ففي شمالى مراكش والجزائر وتونس ، وعلى ساحل ليبيا ، يصل معدل المطر السنوى إلى أكثر من ٢٥ بوصة ، وهناك منطقة مماثلة تحتضن ما يسمى كثيراً بـ « الهلال الخصيب » - تلك المنطقة التي تشبه الهلال في تكوينها ، والتي تشمل اسرائيل ، وجزءاً من الأردن ولبنان ، وسورية ، وجزءاً من العراق ، والبلد الأخير ذو طابع مزدوج فقممه الجبلية تنعم بالمطر الذى يميز « الهلال » ، غير أن سهله المتخلف عن الفيضانات ينتمى إلى المنطقة الثالثة ، ذلك لأنه يعتمد فى الرى على النهرين التوأمين : الفرات ودجله اللذين يتغنيان من الأمطار والتلوج الساقطة ، وخارج العالم العربى ، فى تركيا وغربى ايران . غير أن المنطقة الثالثة لا تتمثل حق تمثيل إلا فى مصر والسودان ، حيث يعتمد الإنسان والحيوان على نهر النيل الذى ينبع من الجبال الشاهقة فى داخل افريقية ، اى من خارج العالم العربى أيضاً .

وقد تمددك مساحة العالم العربى إذا ما قسمتها إلى عدد سكانه ، فقد يترأى لك أن كل ميل مربع لا يستوعب سوى عدد قليل من السكان .

والواقع أن الصور التاريخية والطابع الصحراوي للقسم الأكبر من المنطقة قد أدى إلى ظهور صورة للعرب، باعتبارهم رحلا يتجولون عبر الرمال الشاسعة وقد امتطوا جمالهم، ليخطوا الرحال هناك، ويعيشوا في خيام، بينما ترعى قطعانهم العشب، جالبين الماء من الواحات المألوفة التي تحف بها أشجار النخيل. لقد كانت صورة هؤلاء الرحل صحيحة بصفة عامة في فترة من الفترات، غير أنها لم تعد كذلك. إن الرحل، أو شبه الرحل، يشغلون اليوم حيزاً صغيراً جداً من بين الـ ٨٥ مليون عربي، ومن المؤكد أنهم لا يتعدون ١٠٪ من مجموع السكان، ويحتمل أن تقل هذه النسبة (ما زالت الأحصائيات تحب في كثير من البلدان العربية) ومن بين الأربعين مليون عربي في الشرق الأوسط لا نجد إلا ٣٥ مليون عربي رحل أو شبه رحل.

أما الغالبية العظمى فعبارة عن زراع مستقرين أو سكان مدن. أضف إلى ذلك أن هذه الغالبية العظمى تتركز في مناطق يكتظ فيها الميل المربع بالسكان. وهذا يتناسب، بالضرورة، مع المناطق المحدودة التي يمكن زراعتها من مياه الأمطار أو عن طريق الري بالأنهار. ومثل هذه المناطق صغيرة إلى حد بالغ، وفي معظم أقطار العالم العربي تزيد نسبة السكان الريفيين على سكان المدينة بصورة ضخمة، وهذان العاملان مسئولان عن بعض المشاكل الاقتصادية الخطيرة التي تواجه العرب، وبخاصة إذا لاحظنا بالإضافة إلى ذلك، أن السكان يتزايدون بسرعة في الواقع.

والحلقة المفرغة المألوفة في المناطق المتخلفة إنما تتمثل بصورة كاملة

في العالم العربي . فهناك كثرة هائلة من السكان الريفيين الاميين ، وهم في معظم الحالات يفقرون إلى المهارة والتنظيم اللازمين لاستغلال الأرض الموجودة ، وهناك جمهور يتكاثر بسرعة ، وبذا يطلب المزيد من الطعام وغيره من السلع الاستهلاكية ، وهو يزحف إلى المدن ، وينتج عن هذا كله تعطل لا يمكن تخفيف حدته الا بالتصنيع ، وهناك رؤوس أموال نافهة ، يضاعف من قفافتها تزايد عدد السكان ، مما يعرقل التصنيع ، والتصنيع بدوره لا يوفر لنا علاجا شاملا للعمال المتعطلين ، إذ أن التصنيع يعتمد بطبيعته على الآلة .

وقد نستطيع تصوير المشكلة بالانتقال إلى بلدين يعانيان من هذه المشاكل أكبر العناء ، وهما الجزائر ومصر ، إن سكان الجزائر يبلغون اليوم ١٠ ملايين نسمة ، والعرب يمثلون تسعة أعشار هذا العدد ، وهم يتكاثرون بسرعة ، وبحلول عام ١٩٨٠ سيبلغ عددهم ١٨ مليون نسمة ، واليوم نرى أن ٥٠٪ من الجزائريين لم يتخطوا طامهم العشرين . ونجد أن ٧٥٪ من مجموع السكان يكتظون في الشمال ، وهي المنطقة التي أسماها الفرنسيون بـ « الجزائر النافعة » ، وهي تسمية لها دلالتها . غير أن الجزائر لا تستطيع أن تطلع من أرضها ثلاثة ملايين نسمة مالم تقدم على اصلاحات جوهرية في ملكية الأرض . ومالم تأخذ بأسباب التصنيع الضخم .

وفي مصر تتخذ المشكلة أبعادا ضخمة وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أن مصر تحتضن ٣٦٣.٠٠٠ ميلا مربعا ، غير أن الأرض الصالحة للزراعة من هذه المساحة ، لا تتعدى ١٤٠.٠٠٠ ميل ، في داخل هذه الأرض ، وعلى هذا الجزء الضئيل يعيش ٢٥ مليون مصري في وادي النيل الضيق

الممتد جنوباً ، وفي الثلث المسطح الذى تتألف منه الدلتا فى الشمال حيث يمكن توزيع مياه نهر النيل على أرض لاتغذيها الأمطار على الإطلاق ( إذا عقدنا مقارنة بين مصر واسكتلندة وجدنا أن شعب اسكتلندة يتألف من ٥ مليون نسمة ومع ذلك يشغل ضعف هذه المساحة ) والأرض فى هذه المنطقة المزروعة الآهلة بالسكان ، هى من أكثر أراضي العالم كله تعرضاً للجفاف . أضف إلى هذا أن الشعب المصرى يتزايد كل عام بمعدل ٥٠٠.٠٠٠ نسمة ، ولابد أن هذه الزيادة نفسها ستضاعف ، ذلك لأن البرامج الطبية والصحية الضخمة بدأت تقلل من نسبة الوفيات فى المواليد .

وهناك حالات مشابهة فى معظم البلدان العربية الأخرى ، . وان كانت أقل حدة من الحالتين السابقتين ، وان وطأة الفقر هذه لتفسر كثيراً من الاضطرابات السياسية فى هذه المنطقة . وقد ننظر الى ارتفاع نسبة الجهل فى معظم البلدان ( حوالى ٧٥٪ ) والى الطابع الريفى للسكان فنظن أن هذه القلاقل قاصرة على اضطرابات تنور فى صفوف قلة من سكان المدن ، ولكن ، لا الجهل ولا البعد المكافئ يحولان دون تأثير المناطق الريفية بالآراء الواردة من العالم الخارجى ، وبالأحداث السياسية التى تقع فى مناطق بعيدة ، وتلعب الاذاعة دوراً حيوياً فى السياسة العربية . حاملة آمالاً ضخمة وآفاقاً رحبة من الرخاء للبلايين التى تعيش فى القرى النائية ولا حاجة بنا إلى أن نقول أن معظم الأسر الريفية لاتستطيع شراء جهاز الاذاعة ، ولكن إذا كان هناك مذياع واحد فى القرية ( وهذا ما يحدث اليوم عموماً ) فإن رسائله تصل إلى الجميع ، وبخاصة لأن الدول العربية

هى قبل كل شئ لغة مشافة ، وأن الكلمة المنطوقة تكاد تكون سمية طبيعية للذين يتحدثون بها .

وهناك عامل آخر يؤثر في نمو الحركات السياسية العنيفة والفتاقل الشعبية ، ألا وهو الهجرة الضخمة إلى المدن ، وهى التى ذكرناها آنفا . وقد لا نستطيع أن نتصور - بشكل كامل - العدد الهائل من العرب الذين يقطنون المدن الكبرى . وهناك يتصلون مباشرة ، بتيار الأفكار الحديثة القادمة من الخارج ، ومن كل جانب تواجههم تلك المقارنة الصارخة التى تثيرهم : فقر يحل بمعظم مواطنهم ، مع مستويات عالية فى الداخل والخارج . أضف إلى هذا وخزات وضربات النفوذ الأجنبى أو الاحتلال أو كليهما معاً ، وهناك عامل آخر يجب أن يدخل فى اعتبارنا . وتقتصد به طبيعة الأسرة العربية ، وطبيعة الهجرة إلى المدن ، فالجزء الأكبر من هذا التيار المستمر المتدفق إلى المدن ( كما هو الحال فى مناطق أخرى بآسيا وإفريقية ) لا يعتبر هجرة مستديمة إلى المدن بالمعنى المفهوم لدى الغرب ، بمعنى أن الأسرة تنتقل بأكملها إلى المدينة وتصبح متمدنة تماماً من حيث جذورها وعلاقاتها الاجتماعية ومستوياتها . إن القسط الأكبر من هذه الهجرة إنما يتم عن طريق أفراد من الأسر الريفية يبحثون عن عمل ، أنهم رجال ونساء محتفظون على الدوام بالروابط التى تربطهم بأسرهم التى بقيت فى الأرض ، وهم يرسلون إلى هذه الأسر قوداً ويسافرون بين الحين والحين إلى قرىتهم ، وعليها ونحن ندرس الجدول الصغير التالى - المبين فيه أسماء المدن العربية الكبرى - أن نذكر هذا التدفق المستمر للبشر فحسب ، وإنما للأفكار ، والأحران ، والمطامح ، ذلك لأن هذا يصور لنا ، بشكل واضح ، مضطراً آخر من مصادر الاضطرابات السياسية .

## الدول العربية الكبرى

من الشرق الى الغرب

| مدن رئيسية           | مدن أخرى                  |
|----------------------|---------------------------|
| الدار البيضاء ٧٠٠٠٠٠ | ١٩٣٦:١٤٦٠٠٠ مراكش ٣٢٠٠٠٠  |
| الجزائر ٧٠٠٠٠٠       | ٣٠٠٠٠ حوران               |
| ٥٦٠٠٠٠ تونس          | ٣١٣٠٠٠:١٩٣١ فاس ٦٥٠٠٠     |
| ١٤٠٠٠٠ طرابلس        | ٧٠٠٠٠ بنغازي              |
| ٢٥٥٠٠٠٠ القاهرة      | ٨٠٠٠٠٠:١٩٢٢ بورسعيد ٦٩٠٠٠ |
| ١١٥٧٠٠٠ الاسكندرية   | ٦٥٠٠٠ بورسودان            |
| ٣٠٠٠٠٠ الخرطوم       | ٤٠٠٠٠٠ حلب                |
| ٢٠٠٠٠٠ عمان          | ٢٠٠٠٠:١٩٢١ حصص ١٣٠٠٠٠     |
| ٢٥٠٠٠٠ بيروت         | ٩٥٠٠٠:١٩٢٢ طرابلس ١٤٠٠٠٠  |
| ٣١٠٠٠٠ دمشق          | ١٨٨٠٠٠:١٩٢٢ الموصل ١٤٥٠٠٠ |
| ٥٠٠٠٠٠ بغداد         | ١٤٥٠٠٠:١٩٢٢ البصرة ٦١٠٠٠٠ |
| ١٢٠٠٠٠ مكة           | ٣٧٠٠٠٠ عدن                |
| ١٠٠٠٠٠ الرياض        | ٣٠٠٠٠٠ الكويت             |
| ٥٠٠٠٠ صنعاء          | ٤٥٠٠٠ المنامة             |
| ٧٥٠٧٠٠٠ اجمالي       | ٣٠٩٧٠٠٠ اجمالي            |

اجمالي عام : ٩٦٠٤٠٠٠

قد تعطى لنا الأرقام السابقة صورة للعرب تختلف قليلا عن الصورة التي عرفها الغرب طويلا، وسنرى من الجدول أن أكثر من ١٠٪ من



مجموع سكان العالم العربي يعيشون في هذه المدن ، وعلينا أن نذكر هنا أن هذه المدن لا تمثل كافة المراكز الحضرية بآية حال، وإنما تمثل المراكز الكبرى فقط .

وفي بعض الحالات يكون غالبية الموجودين من سكان المدن .  
 إن أكثر من ٣٠٪ من التونسيين حضريون و ٢٩٪ من مجموع اللبنانيين يعيشون في بيروت وطرابلس وصيدا وزحلة وحدها .

## ماذا نقصد بكلمة «عربي» ؟

إننا نسبق ما سيراد في الفصول التالية حين نحاول هنا الإجابة عن هذا السؤال الهام . غير أنه من الضروري ، في أي وصف إجمالي للعالم العربي أن نلاحظ أنه يحتضن أجناساً متباينة أشد التباين ، أو يتضمن جماعات تاريخية . إن القائمة الموجزة مجهزة ، والتعريفات ، الجنسية ، خادعة .  
 وإذا بدأنا من المغرب واتهمنا إلى الشرق فلا بد أن تتضمن القائمة أناساً من البربر ، والقرطاجيين، والرومان ، والفانдал ، والعرب ، والتركانيين والمصريين، والنوبيين، والحاميين، واليونانيين، والآراميين، والسيرياقوسيين والآشوريين ، والبابليين ، والحيثيين والسامريين ، والآكراد ، والفرس وفترة من الواقدين القدامى الذين اندمجوا بشعوب المنطقة ، والذين يحسن أن نطلق عليهم صفة الساميين .

موجز القول أننا إذا حاولنا الإجابة من وجهة نظر علم الأجناس على السؤال : من العربي ؟ فعنى هذا أننا سفتنر — ياتسين — في خضم

آلاف من السنين التي مرت في الهجرة ، والغزو ، والزواج . وليس للعروبة أدنى علاقة بـ « الجنس » وإنما هي ترتبط باللغة ، والتقاليد والميراث الثقافي ، والدين ( إلى حد ما ) . والشعور المتزايد بالمشاركة ، وهو الشعور الذي ولده هذه العناصر عندما تغلغل إليها المفهوم الغربي لكلمة « الأمة » .

أى أننا نستطيع أن نقول في هذه المرحلة بوجه عام: إن العرب بشر يتكلم غالبيتهم اللغة العربية ، ومعظمهم يدين بديانة الاسلام . ( غير أن هناك المسيحية واليهودية أيضاً ، وهما عقيدتان لا تقتصان من صفة العروبة ) وهم يستجيبون لمجموعة المؤثرات الثقافية والاجتماعية التي انتشرت في المنطقة بفضل الحضارة العربية الأولى . وهم يعيشون اليوم في عشرة بلدان تتمتع بالسيادة الكاملة وحوالى ثلاثين منطقة أخرى ، وهم يحسون بأنهم عرب .

## أهمية المنطقة العربية

لقد مرت أحداث تاريخية بعشر دول تتمتع بالسيادة وعضوية الأمم المتحدة، وبفضل هذه الأحداث تخلصت تلك الدول من السيطرة الخارجية أو المنافسات المدمرة للطرفين ، وبفضلها أيضاً تتجه شعوب البلدان الأخرى إلى تأكيد عروبتها ، مهتدية بالقومية العربية ، لهذا كله دلالة الخاصة بالقبة للعالم الخارجى .

وقد لا يدرك العالم أهمية العالم العربي - في الكرة الأرضية - من

حيث عدد سكانه . ويبدو أن أهميته تتمثل في عوامل مجتمعة نستطيع أن نقسمها إلى : المواصلات ، والبترول ، والسياسة ، والسلام .

## المواصلات

هناك عدة محاور كبرى من المواصلات تعبر العالم العربى بحراً ، وبراً ، وجواً .

( أ ) فأقصر طريق ملاحى بين أوروبا وشرق أفريقيا، وشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا ، والشرق الاقصى واستراليا يخترق العالم العربى عن طريق قناة السويس .

( ب ) والمواصلات البرية بين أوروبا والقارة الافريقية تعبر العالم العربى — سواء عن طريق جبل طارق ، أو عن طريق أية نقطة عند الساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط ، أو عن طريق آسيا الصغرى . والسكك الحديدية التى ستمتد فى المستقبل من الشمال للجنوب ، ومحاور الطرق فى افريقية وستنتهى — شمالاً — فى هذه المنطقة .

( ج ) يعبر العالم العربى محوران جويان على جانب كبير من الاهمية فمعظم الطائرات التى تنقل بين أوروبا وجنوب آسيا والشرق الاقصى واستراليا تخترق الفضاء الجوى العربى ( بالرغم من أنه من الممكن -فنيا- تحويل الطريق عبر فضاء تركيا وإيران ) والذى يريد أن يسافر بالطائرة إلى إفريقيا من أى مدينة فى أوروبا أو روسيا السوفيتية لابد أن يمر بالعالم العربى ، ويمر بمحور الدائرة ، وأقصد به القاهرة .

أما الدور الاستراتيجي الذي تلعبه هذه المواصلات الضخمة فإنه آخذ في التغير الآن لأن طبيعة الحرب نفسها آخذة في التغير . فبالطائرات التي يستطيع الانسان توجيهها قد أخذ يتسع باستمرار وذلك بسبب الحاجة إلى الاحتفاظ بقواعد للبرور الجوي داخل المنطقة . وستتغير هذه الحاجة تماماً في عصر الصواريخ عابرة القارات ونتيجة لنفس التطورات العسكرية اختفى إلى حد كبير ذلك الدور القديم الذي كان يلعبه الشرق الأوسط العربي كمنطقة للناورات البرية والغزو أثناء الحرب واليوم أصبحت قناة السويس من أكبر أهداف العالم تعرضاً للخطر في حرب تستخدم فيها الذرة والصواريخ ومع ذلك سيظل العالم العربي محتفظاً بما يمكن أن نسميه بالقدرة على الازدواج في ميدان الاستراتيجية العسكرية ، وذلك لسنوات . وإذا لم يكن شن الحروب المستقبلية في حاجة إلى السيطرة الفعالة على العالم العربي ، فإن من الضروري مع ذلك الحيلولة بينه وبين الوقوع تحت سيطرة دولة كبرى معادية .

ولسنا بحاجة إلى تحديد أهمية مواصلات المنطقة في زمن السلم سواء في الميدان التجاري أو السياسي أو الثقافي . وطالما ظل الرجال يرسلون بضائعهم بالسفن ، ستظل قناة السويس عمراً مائياً دولياً على جانب كبير من الأهمية . واليوم ، والقارة الأفريقية تنهض ، نجد أن الطيران الحر إلى هذه المنطقة سيكون حلقة اتصال لا بد منها . بل : إن شكل الطرق التجارية لمعظم الخطوط الجوية داخل القارات يتأثر بأحوال المرور داخل المنطقة العربية .

## البترول

في عام ١٩٥٦ بلغ رصيد العالم من البترول حوالى ١٨٦٩٠٠ مليون برميل، منها - على أقل تقدير - ١٢٠٠٠٠ مليون برميل راقدة تحت التربة العربية أما أوروبا الغربية فقد جاء ٩٥٪ من بترولها من الشرق الأوسط. وكان لابد أن يتغير هذا الإطار أبان أزمة السويس ومن المحتمل أيضاً أن يتعرض البترول العربي لمنافسة جديدة من المصادر الأمريكية ( أى نصف الكرة الغربى ) نتيجة لتزايد قابلية تحويل العملة الأوروبية ، ومع ذلك ، من الواضح أن البترول العربى سيظل مصدراً رئيسياً لوجود أوروبا ( وجنوب آسيا ) واحتياجاتها إلى مواد التشحيم وحتى لو وضعنا فى اعتبارنا الطاقة الذرية فان احتياجات بريطانيا من البترول ستبلغ فى عام ١٩٧٠ ثلاثة أضعاف احتياجاتها فى عام ١٩٥٥ .

وهناك عامل آخر جديد له دلالاته الكبرى ، ألا وهو استغلال فرنسا لمستودعات البترول المائلة فى الصحراء الكبرى . وبفضل هدم المستودعات لن يتحقق الاستقلال الذاتى لفرنسا فى عام ١٩٦٥ فحسب . وانماستصبح أيضاً مصدرة للبترول . ولم يظهر هذا التطور إلا فى الأعوام القليلة الماضية . وتصادف ظهوره مع التحدى الحاسم النهائى للوطنيين الجزائريين . وقد يوافق الجزائريون على استغلال بترول الصحراء الكبرى مع مشاركة فرنسا لهم ، ولكن يبدو أن الأمل ضعيف فى قبولهم لشروط ديجول ، فديجول يطالب بالاشراف الدائم ، الكامل على حقول البترول ، بالسماح لفرنسا بالوصول إليها عبر شمالى الجزائر .

أما الاتحاد السوفيتي فعنده مستودعاته البترولية الضخمة وهي تفوق احتياجه كما تذكر البيانات السوفيتية ، وتغطي أى تطور فى الداخل . ولقد بدأت روسيا ، فى الواقع ، فى تصدير البترول ، وهكذا فإن الدور الذى يلعبه البترول العربى فى ميدان التنافس الدولى لا يمثل اشتباكا مباشرا بين الذين يبحرون وراء البترول . ومع ذلك فإنه يهيم الغرب أن يظل البترول العربى يتدفق باستمرار وبطريقة اقتصادية ، إذ أن لهذا دلالة فى ميدان الحرب الباردة . وسيظل هناك خوف من أن تدمر حقول البترول العربية أثناء الحرب بالرغم من أن موجة هذا الخوف قد تتضاءل لأن أى حرب قادمة ستكون سريعة عاجلة .

## السياسة

من الواضح أن سياسة العالم العربى ذات أهمية عالمية كبرى حتى لو اكتفينا بالنظر إليها على ضوء المواصلات والبترول . غير أن هناك تشعبات أوسع مجالا . فللمنطقة أهميتها القصوى فى تطور الفكر والحركات السياسية فى أفريقية وآسيا . وذلك بفضل موقعها الجغرافى واتصالها بقارقي أفريقية . إن العرب يتعاطفون مع الأفريقيين والآسيويين ، ولقد تمثل هذا التعاطف فى مؤتمر باندونج الذى عقد عام ١٩٥٥ . وهم يشاركون الأفريقيين والآسيويين وعيهم بالمعركة الدائرة من أجل الوثوب إلى منتصف القرن العشرين بعد النومة الطويلة فى ظل السيطرة الأجنبية . وإذا صاغ العرب أنظمة وهيئات سياسية واجتماعية واقتصادية فإنها

قد تؤثر على سير الأمور جنوباً وشمالاً ، والعكس بالعكس .

غير أن هناك نفوذاً عربياً في العالم الخارجى أكثر مباشرة ، وذلك عن طريق اهتمام ٢٠٠ مليون مسلم من غير العرب في أفريقية وآسيا وروسيا حقا وليس هناك ما يشبه « الكنيسة » ، في كل قطر يسود فيه الاسلام . غير أن هناك اهتماما عاما يشترك فيه المسلمون ، وأن رموز عقيدتهم لتوجه أنظارهم إلى العالم العربى ، إلى المدن المقدسة في بلاد العرب ، وإلى الجامعة الاسلامية القديمة والأزهر ، الموجودة في القاهرة وإلى أماكن أخرى يتركز فيها اهتمام المسلمين .

وفي أعقاب هذه المصالح المشتركة لا يستبعد أن تتدفق تيارات الفكر السياسى والاجتماعى بشدة . إن وصول الشيوعية إلى مرتبة النفوذ في بلد عربى لاشك يؤثر على مناطق بعيدة كإندونيسيا أو الملايو . وبالعكس فإن التطور الناجح لتنظيمات عربية غير شيوعية — بفضل البحث الاسلامى أو بدونه — يؤثر إلى حد كبير في البلاد الواقعة خارج العالم للعربى .

وبفضل هذه العوامل ، وبفضل عوامل أخرى غيرها ، نستطيع أن نقول إن مستقبل هؤلاء البشر الذين يبلغ تعدادهم حوالى ٨٥ مليون نسمة له أهميته البالغة في المنطقة الافريقية الآسيوية التاسعة ، التى تحتضن ٨٠٠ مليون نسمة ( مع استبعاد الصين ) .

## السلام

وأخيراً وليس آخراً ، في هذه القائمة الموجزة ، لا تحتاج ( ونحن في عام ١٩٦٠ ) إلى أن نضيف شيئاً إلى الرأي القائل : إن العالم العربي مسرح لمشاكل ثبت منذ زمن أنها قادرة على إثارة أزمات عالمية . وقد يتضام عدد هذه المشاكل بينما تعيد دول الغرب المتسلطة النظر في موقفها التقليدي وسياستها لإزاء المنطقة ومع ذلك ، فما زالت هناك أربع مشاكل قابلة للانفجار ، أو تحمل في طياتها عناصر الانفجار ، ومن الممكن أن تثير أية واحدة منها رد فعل يتعدى المنطقة نفسها . ولقد حدث هذا لثلاث منها .

ففي غرب العالم العربي ما زالت مشكلة الجزائر قائمة ، ولقد لعبت هذه المشكلة دوراً كبيراً في التعجيل بنهاية الجمهورية الفرنسية الرابعة ، كما أنها تمس تحالف الغرب في ميدان الحرب الباردة ، وذلك بسبب سياسة فرنسا الخارجية ، أما المشكلة الخطيرة الثانية فتتمثل في الأزمة العربية الاسرائيلية التي استعصت على الحل ، وهي أزمة تتورط فيها كافة الدول الكبرى ، والأمم المتحدة ، وبعض دول موالية ، فيقف فريق مع هذا الجانب ويقف آخر مع ذلك .

أما المشكلة الثالثة فردها تلك البقية من آثار السيادة البريطانية ، وبخاصة في جنوب الجزيرة العربية وفي أمارات ودويلات الخليج العربي ( وهذه المشكلة تمس - إلى حد كبير - البترول واستثمارات رهوس



الأموال في لندن ) أما المشكلة الرابعة فما زالت تنكشف ، وهى تنصل بمدى تعاطف الوطنيين العرب على الصراع الناشب بين الوطنيين الأفريقيين والدول الأوروبية . وقد تثبت مدى أهمية المركز الجغرافى الذى ينعم به العرب إذا عجزت هذه الدول أو رفضت تجنب الصراع السافر الذى ميز روابطها الاستعمارية أو روابط الوصاية فى بقاع أخرى فى قارتى إفريقيا وآسيا .

موجز القول أن السلام والاستقرار الدوليين قد يتعرضان للخطر - مراراً وتكراراً - فى المستقبل كما تعرضا فى الماضى . وسيكون هذا نتيجة لمشاكل تنشب داخل العالم العربى أو تنصل به اتصالاً وثيقاً .

هذه هى من بين الأسباب الملبوسة التى تدعونا إلى دراسة أفكار هذه المنطقة الضخمة . ومشاكلها ، وأحداثها ، دراسة مستأنية متفهمة الماضى ولكى نكمل الصورة لا بأس من أن نستعيد أحداث السنوات القليلة الماضية عندما حاولت سياسة الدول الغربية معالجة عدد كبير من المشاكل التى ذكرناها آنفاً . إن تاريخ المصالح العربية التى أرادوا حمايتها ، والنجاح أو الفشل الذى حالفهم ، لتاريخ بشع ، محير .

لقد كان من صالح الغرب ، قبل كل شئ ، أن تظل قناة السويس مفتوحة تجرى فيها السفن ومع ذلك سد الممر المائى العظيم فى نوفمبر عام ١٩٥٦ . وتوقفت فيه الملاحة كنتيجة مباشرة للإجراء العسكرى الذى أقدمت عليه دولتان غربيستان . واتخذت الدولتان هذا الإجراء فى نفس

اللحظة التي كانت فيها مشاكل تأميم مصر لشركة قناة السويس قابلة للتفاوض وعندما توقفت الملاحة الدولية في القناة أضر ذلك ، مباشرة ، بمصالح الطرفين ، الغربي ومصر .

وكان من صالح الغرب أيضاً أن يظل بترول العرب متدفقا في سلام إلى المستهلكين في أوروبا الغربية . لقد مضت سنوات الاحتكاكات والازمات شبه مستمرة ، ومع ذلك لم يتوقف البترول عن التدفق ، إلى أن حل شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ وسدت الانابيب الممتدة من آبار البترول العراقي وكان ذلك ، أيضاً ، نتيجة للأجراء العسكري الذي أقدمت عليه الدولتان الغربيتان .

ولقد كان من بين مصالح الغرب الحيوية الأخرى خلق زعامة مستقرة محبوبة ، ناهضة ، لاشيوعية ، في العالم العربي . ومع ذلك فن الملاحظ بشكل بارز أن أى حكم عربي يتمتع بتأييد ساسة الغرب في الفترة ١٩٥٥-١٩٥٩ إنما كان حكما مكروما لدى الشعب ، مقتضراً إلى الاستقرار والتقدم . ولقد اختفت معظم هذه العهود منذ ذلك الحين ، أو اضطرت إلى القيام باصلاحات داخلية ، ولكن في وقت متأخر جداً .

ويرتبط بمصالح الغرب أيضاً رغبة في تدعيم التبادل التجاري بينه وبين البلاد العربية ، والوقوف ، على الأقل - وبطريقة سلبية - في وجه تغافل الكتلة السوفيتية في المنطقة عن طريق التجارة ، والمعونة ، والدعاية وفي الفترة من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٩ اضطرت أكبر دولة عربية متاجر مع الغرب إلى توجيه تجارتها ( التي كان ٧٥٪ منها مع الغرب ثم

تدهور إلى أن وصل إلى ٢٥٪ تقريباً ( لصالح الكتلة السوفيتية ، جاء ذلك نتيجة للضغط الاقتصادى الذى فرضه الغرب طويلا . وفى نفس الفترة . ونتيجة لتعذر حل المشكلة العربية الإسرائيلية العويصة تدفقت أسلحة الكتلة السوفيتية إلى الشرق الأوسط . وبفضل الشروط الحقيقية أو الكامنة فى معونة الغرب الإقتصادية — وبخاصة معونة أمريكا — استطاع الاتحاد السوفيتى أن يستغل فائض رهوس أمواله فى صورة مساعدات اقتصادية للمنطقة ، ونتيجة لتزايد الصراع الجوهري بين القومية العربية ودول الغرب استطاعت روسيا أن تظهر بمظهر المدافعة عن هذه القومية العربية وربما لم يكن هناك مفر من هذا الصراع بالنسبة لبريطانيا وفرنسا ، نظراً لأنهما كابتا تسيطران على منطقة الشرق الأوسط فى يوم من الأيام . بيد أن الولايات المتحدة — التى لم تكن تستعمر بلداً — انقادت إلى نفس الوقت التعس .

ومن بين الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تحطيم الغرب لمصالحه يديه ورغبته فى عقد محادثات فى العالم العربى يخوض بها الحرب الباردة ، بالرغم من تصميم الزعماء الوطنيين على الوقوف موقف الحياد .

ولقد أثبتت لنا الأيام أن كل جهد بذله العرب لتعزيز هذا التحالف بالمعاهدات أو ما يشبه المعاهدات قد باء بفشل ذريع . وأصبح « حلف بغداد » تسمية خاطئة فى عام ١٩٥٨ ، ولا نقال إذا قلنا إنه ساعد على زيادة خطر حدوث انقلاب شيوعى بالعراق بدلا من التخفيف من حدة هذا الخطر . واضطرت أمريكا إلى التخل ، فى هدوء ، عن مبدأ أيزنهاور

بعد أحداث الحرب الأهلية في لبنان ، وبعثورة العراق ، والازمة العنيفة في بلاد الملك الشاب حسين .

ولسنا نجانب الدقة حين نقول إن دول الغرب - والغرب بأكمله - قد جر على نفسه شك ملايين من الغرب ، وعداهم المرير . وذلك خلال السنوات التي انهكتها الازمات . لقد ظل هؤلاء - قرابة عام ونصف عام يتطلعون إلى الغرب ، غير أن الالهام الذي كانوا يستمدونه ، والعلم والمعتقدات السياسية باقت اليوم في خطر ولحسن الحظ أوقف هذا التيار في الوقت المناسب ، غير أنه خلف وراءه شيئاً من عدم التقام ، وهو شيء لا يطيقه الغرب ، ولا يطيقه العرب .

كيف وقع هذا ؟ كيف يمكن إصلاح العطب الذي حدث ؟ إن الإجابة عن هذه الاسئلة تتطلب فحص عديد من الاصطلاحات التي أصبحت مألوفة اليوم في الغرب ، اصطلاحات مثل « القومية العربية » و « الحيادة » و « الموالاتة للغرب » و « معاداة الغرب » و « الناصرية » و « العدوان غير المباشر » . ووراء هذه الاصطلاحات يقف ١٣٠٠ عام من التاريخين العربي والغربي ، اللذين يتشابهان بصورة كبيرة .

## الفصل الثانى

### العالم العربى قديما

فى عام ٦٠٠ ميلادية كانت شواطىء البحر المتوسط بأكلها تقريبا - شمالا وجنوبا وشرقا وغربا - تابعة للامبراطورية البيزنطية المسيحية التى كانت تحكم من القسطنطينية . وكانت هذه الامبراطورية تشمل مايعرف الآن بايطاليا ، وبوغوسلافيا واليونان ، وتركيا ، وسورية ، وفلسطين ، ومصر ، والجزء الاكبر من ساحل افريقية الشمالى وجزء آ فى جنوب شبه الجزيرة الايبيرية ( الاسبانية ) أما الباقى من القارة الاوروية فكان فى يد القبائل مثل الاسبان والفرنك . وفى شرق مايعرف الآن بتركيا ، استقرت الامبراطورية الساسانية الفارسية، وشملت مايعرف اليوم بيران ( بلاد الفرس ) ومعظم العراق . كان الوهن يذب فى أوصال الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ، وكانت كل واحدة منها تبدد قوى الاخرى فى حرب مريعة مستمرة .

وفى جنوب خطوط الصراع الرئيسية استقرت شبه الجزيرة العربية، وهى مربع ضخم يربو على مليون ميل مربع معظمه صحراء. فى هذه الفترة، كان لشبه الجزيرة العربية تاريخ غريب خلاب ، والواقع أنها كانت مهد الحضارات قديما . خلال مئات من السنين التى ترجع بنا إلى فجر التاريخ والإنسانى تحركت القبائل شمالا ، خلال هذه المفاوز، متجهة إلى الأرض

الأكثر ثراء وخصوبة ، والتي تمتد على طول شاطئ البحر المتوسط . وهكذا قدم اليهود إلى فلسطين عام ١٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً ، وعبر النبطيون نفس الطريق ليستقروا في النهاية في النقب الجنوبية ويؤلفوا مملكتهم الرائعة ، التي شقوها في الصخور الوردية جنوب الأردن ، وما زالت آثارها موجودة إلى اليوم .

وكانت هذه الهجرات التاريخية القادمة من شبه الجزيرة تسير في طريق هو من أهم الطرق التجارية في العصور القديمة - فرحلة القوافل الطويلة تتجه من الساحل العربي الجنوبي ، وبخاصة من اليمن ، إلى الجانب الغربي من المربع الكبير ، ومن هناك تتجه إلى شاطئ البحر المتوسط . وعلى طول الطريق تقع مدن عديدة ، من بينها مكة والمدينة . وبينما كانت التوابل والعاج ، والجواهر والمر ، تتجه شمالاً عبر هذه المدن كانت الأفكار تتجه جنوباً مع تلك الحفنة من المسيحيين واليهود الذين استقروا في داخل شبه الجزيرة العربية . وهكذا كان العرب الذين يعيشون في مكة والمدينة في عام ٦٠٠ ميلادية على علم بأيمان اليهود والمسيحيين بالهواحد غير أن شعب الجزيرة العربية كان مشركاً في ذلك الحين ، وكان يعبد عدة آلهة لا يراها ( فهي في السماء ) وفي نفس الوقت يعتقد أنها تعيش في بعض المواد كالحجارة ، وبخاصة الحجر النيزكي الأسود في حرم الكعبة بمكة . وكان ينتظم في قبائل تربطها رابطة الدم ، وكانت هذه القبائل عبارة عن أسر رحل ( قوية ويبسج عددها بضع مئات على الأقل ) ترعى القطعان وتهاجم القبائل ، وتحارب كل منها الأخرى في معارك دموية .

والامر الذى له دلالة أن اللغز الشعر كانا أسرع شيء يعقد الهدنة بينهما، فالقبائل تجتمع، فترات منتظمة، فى مجالس الشعر، وهناك يقف خولها من الشعراء ليلقوا قصائد بطولة تمتاز بثرائها وتنوعها، وتدور حول تجاربهم، ومناظر الصحراء والحب والحرب، والخرافات والالغاز. والفائز من الشعراء هو الذى ينال الموافقة الاجتماعية، وإذ ذاك تكتب قصيدته بماء الذهب على شريط من القماش لتعلق على الكعبة. وهكذا حملت اللغة العربية - وهى من أغنى اللغات المنطوقة التى عرفها التاريخ البشرى، بتشبيهاها الخصبه وكلماتها التى تستند إلى تاريخ تفتقر إليه معظم اللغات الحالية - هكذا حملت بذور الوحدة حتى قبل ظهور النبى .

هذا هو العالم العربى فى عام ٦١٠ ميلادية - عالم لا يتعدى أبداً حدود شبه الجزيرة العربية. ولكن حدث فى هذا العام أن آمن عربى واحد فى الأربعين من عمره - واسمه محمد - آمن بأن حقيقة وجود إله واحد قد تكشفت له، وأخذ على عاتقه مهمة نشر هذه الحقيقة بين عشيرته. وبعد اثنتى عشرة سنة من الاستهزاء والاضطهاد الجسام جمع محمد حوالى مائتين من الأتباع فى المدينة، وهى البلد الذى هاجر إليه تاركاً مكة المحافظة للمعادية.. هذه الهجرة تميز بدء التقويم الإسلامى. فى عام ٦٢٢ ميلادية. وفى المدينة بالذات بدأ محمد فى تنظيم أتباعه فى حوزة مجتمع - أمة - من المؤمنين، أو المسلمين، وهم الذين قبلوا الإسلام أو «التسليم» بإرادة الله.

ونستطيع أن نقسم مهمة تنظيم المجتمع الدينى إلى قسمين :

لقد أصبحت كلمات النبي أو تعليقاته عن الرب جزءاً من العقيدة الإسلامية ، وقد تم تدوين بعض الأحاديث في حينها . أما البعض الآخر فقد وعته ذاكرة العرب الذين تعودت أذهانهم على تذكر الكلمة المنطوقة ، ثم تم تدوينها بعد ذلك . وأصبحت هذه الأحاديث جزءاً لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية . وتبدأ العقيدة الإسلامية بالكلمات : « لا إله إلا الله ، وتنتهى بالتأكيد بأن محمداً ، النبي هو «رسول» الله .

ولقد آمن الإسلام بكثير من الأنبياء اليهود والمسيحيين ، وآخرهم المسيح ومحمد نفسه . غير أن المسلمين يرون أن المسيح ومحمد كانا من البشر تماماً ، وهم يرفضون عقيدته الحلول والصلب ، والبحث — كما يرفضون الثالوث بطبيعة الحال ، ذلك لأن الله عندهم هو الواحد الأحد . وهم يعتقدون في وجود جنة ونار وحياة أخرى . وليس لديهم وجود أو شكل ، ومن الكفر أن يحاول امرؤ تجسيده . وهو في كل مكان ، ولكن ليس له رموز . ومن الصعب أن نعر على تشبيهه ، ولكننا لا نخالف الواقع تماماً إذا قلنا إن المسلم في مسجده يتجاوب مع كلمات القرآن التي يسمعها ترقل ، إنها الكلمات التي أوصلها جبريل إلى محمد لتعيش بعد ذلك بين المسلمين . وليس هناك تماثيل أو رموز كالخيز والحز ، ليس هناك إلا الكعبة التي أخذها الإسلام في الوقت المناسب .

والقرآن وثيقة هائلة تتضمن العديد من الإرشادات والتعاليم الروحية الموجهة للمسلمين ليسترشدوا بها في حياتهم على الأرض . ومن الممكن



(وهذا ما حدث) تفسيرها بصور مختلفة ، كما هو الحال بالنسبة للمسيحية- واليهودية . غير أن جوهر المسلم إنما يتمثل في قيامه بواجبات خمسة هي :  
النطق بالشهادتين ، الصلاة خمس مرات يومياً ، الصوم من الفجر حتى غروب الشمس في شهر رمضان ، ومحاولة الحج إلى مكة مرة في العمر على الأقل ، وإعطاء الزكاة للفقير .

وليس للإسلام كنيسة - ويقودنا هذا إلى المظهر الثاني للتكوين الاجتماعي داخل الجزيرة العربية . لقد آمن محمد بأن الرسالة التي أوحيت إليه تطالبه بمحاولة نشرها إلى أقصى البلاد . ولم يكن في الإمكان تحقيق هذا على يد حفنة من الوعاظ المتجولين في بلاد العرب المشركه . وهكذا احتاج الأمر إلى تنظيم ديني سياسي يعتمد على تمويل مناسب . ولا بد من وضع قوانين لاتباعه يسرون على هديها في حياتهم ، ويجب تسليحهم ليدافعوا عن أنفسهم ، ويهزموا - إذا اقتضى الأمر - معارضهم في الجهاد تلك الحرب المقدسة وفي عام ٦٢٤ قاد الرسول أتباعه لمهاجمة قافلة عربية من مكة ، وأحرزوا النصر واستولوا على غنائم كثيرة .. وكان هذا بداية حملة عسكرية دينية سياسية نقلت العرب ( في مائة عام ) من تلك البقعة الضئيلة في شبه الجزيرة العربية إلى حيث سيطروا على جزء كبير من العالم المعروف آنذاك ، وتم لهم ذلك تحت راية الاسلام . وإذا شئت الدقة - قلنا أنه بعد مضي ١٠٨ عام على الاغارة على القافلة في الجزيرة العربية ، كان الجنود العرب المسلمون يحاربون الفرنجة في قلب فرنسا بعد أن اكتسحوا شمال أفريقيا بأكمله . وكذلك أسبانيا . وفي الشرق الأقصى ذهبوا إلى أبعد من نهر الهندوس بالهند ، بعد أن تغلبوا على

الامبراطورية الساسانية بأكلها وعلى جميع أراضي البيزنطيين ما عدا أراضي  
الاناضول (تركيا حالياً) والأراضي الأوربية.

ولا شك أن هذا التوسع كان من أصعب الحكايات تصديقاً في تاريخ  
البشرية فهذا التوسع لم تقم به دولة ذات تاريخ طويل ونظام محكم . لقد  
كان انفجاراً لقوة جديدة ذات صبغة دينية سياسية ، وشمل هذا الانفجار  
ما يربو على ملايين الأميال . وفتحت هذه القوة الجديدة فلسطين كلها،  
وسورية ، والعراق ، ومصر في خلال ١٨ عاماً فقط من ظهورها .  
لا عجب إذن أن يرتعد العالم البيزنطى والأوربى .

.. لقد رأينا أن « البيزنطيين » و « الفرس » - الذين أحاطوا بشبه  
الجزيرة العربية - كانوا يعانون من الضعف والاضمحلال . وفي داخل  
بلاد العرب نفسها أحس العرب بالرغبة في التوسع عن طريق  
غزو بلاد أكثر ثراء ، والسبب في هذا طبيعة الظروف الاجتماعية  
والاقتصادية آنذاك وبما ساعد على زيادة تحمس القبائل تلك الفكرة  
التي تؤمن بالله واحد قوى يعد المؤمنين به حسن المثوبة في الآخرة .  
أضف إلى هذا أن العرب كانوا يستخدمون أسلوباً في الحرب لم تتعود  
عليه الجيوش المنظمة التي كانت تقابلهم في طريقهم .

كان العرب يعتمدون على هجمات في سرعة البرق عن طريق الجياد  
والجمال الخفيفة ، خارجين من مخابئهم في الصحراء .

أما الجيوش البيزنطية والفارسية فكانت مثقلة بالسلاح ، تعتمد على المشاة وعلى المعارك المحددة التي تشكل بطريقة تقليدية .

غير أن هناك عاملاً آخر بالغ الأهمية ، وهو لا يتفق مع ذكريات العرب التقليدية عن المحاربين من المسلمين . لقد كان رجال القبائل العرب فتوحشين ومتعصبين في المعارك التي تقع بالفعل ضد الجيوش الرسمية ، لقد كانوا في الواقع يشنون « حرباً مقدسة » .

يبدو أن الإسلام كان يتسامح مع المدنيين الكفار الذين يجدهم في البلدان التي يغزوها . ولم ينظر المسلمون إلى المسيحيين واليهود باعتبارهم « وثنيين » وإنما هرطقة ، وهرطقة معتدلون ، ذلك لأنهم يحملون عدداً كبيراً من أنبيائهم العظام ، ولقد حدد محمد منذ البداية قوانين التسامح هذه وطالب من كل مجتمع غير مسلم أن يعترف بسلطان الدولة الإسلامية الآخذة في النمو .

ولكنه سمح لهم بالاحتفاظ بأراضيهم ، والبقاء على دينهم على شريطة أن يدفعوا جزية للدولة الإسلامية . هذه الجزية هي التي كانت تمول الدولة العربية المسلمة ، بالإضافة - بطبيعة الحال - إلى الضريبة المفروضة على المسلمين ، وأسلاب الحرب ، موجز القول أن هذا العالم العربي القديم كان يستفيد جداً من تسامحه مع العقائد المتنافسة .

كان هذا هو النمط الذي ساد ذلك العالم الذي أصبح عربياً - سواء داخل جزيرة العرب أو في القدس نفسها أو في أماكن أخرى بعيدة .

وفي معظم الحالات كانت الضرائب المفروضة على غير المسلمين أخف وطأة — لدى الشعوب المغلوبة — من الضرائب اليزنطية أو الفارسية .

وقطع الاسلام أشواطاً كبيرة في التوسع بفضل هذا التسامح الدقيق الذي ذاقه المدنيون المهزومون ، وبسبب سحر تلك العقيدة التي يؤمن بها السادة الجدد .

## بذور التدهور

كان تاريخ هذه الامبراطورية العربية سلسلة غريبة من الفؤس والحضارة المزدهرة ، والراث الخالد — ومع ذلك كان يتدهور في نفس الوقت . كانت بذور المتاعب موجودة في التربة منذ البداية .

لقد رأينا كيف أن محمداً ، لكي ينشر رسالته ، قد نظم مجتمعاً ، هو الأمة ، الاسلامية ، وجعل من نفسه رئيساً لها وحكماً في جميع الخلافات التي تنشأ في الداخل .

وطل يعمق عقيدة الاسلام ، وفي الوقت نفسه أضيق على المجتمع طابعا سياسياً . تمثل هذا في قواعد التسامح مع غير المسلمين ، والمعاهدات المعتمدة مع القبائل العربية أو المجتمعات المسيحية أو اليهودية ، وتنظيمه للتمويل الآتي من الضرائب والقنائم .

وعندما أخذت الامبراطورية العربية في الاتساع بعد وفاة النبي

عام ٦٤ ميلادية كان من الطبيعي أن تتوسع أيضاً في وظائفها السياسية .  
واقضى الأمر تعيين حكام الولايات ، وكان لابد من وجود قوانين  
لتصريف شئون هذه الولايات ، وطرق لتنظيم شئون المال ، وسultan  
يمتد من عاصمة الامبراطورية ليصل إلى أقصى أطرافها .

أما رؤساء الدولة بعد محمد فهم الخلفاء ، وكانوا يقومون بدور الملك ،  
و « البابا » في نفس الوقت ( ليس هذا التشبيه مأموماً ، ولكن لاغضاضة  
من ذكره من باب التصوير العام ) .

غير أن النبي محمداً لم يعين خليفته قبل وفاته . فلقد رأينا أنه لم تكن  
هناك « كنيسة » تقرر الخلافة ، ولم يكن هناك أيضاً هيئة سياسية تعين  
من يخلفه في المهام الزمنية . ولم يكن « مقدساً » في حياته أو موته ، وهكذا  
لم تكن هناك ملك القيود التي كان من الممكن أن تفرضها مراعاة الناس  
لهذه القدسية . وبمجرد وفاته أصبحت هذه الدولة ، ذات الطابع الثنائي  
- الديني والسياسي - فرسة للعارك الداخلية بين أقربائه وسلالاتهم  
حول مشكلة الخلافة . وهكذا كان من الطبيعي جداً أن ينتهي الخلاف  
حول الخلافة إلى صراع دائم بين فريقين ينحدران من محمد . فهناك  
من ناحية ، أتباع أبي بكر والد زوجة الرسول الذي صار خليفة عقب  
وفاة محمد فوراً . وهناك - من ناحية أخرى - أتباع علي زوج ابنة النبي  
( لم يكن النبي أولاد ذكور ) وعرف الفريق الأول باسم السبطين ( لأنهم  
ينادون بأنهم أتباع « السنة » أو تعاليم الرسول ) والفريق الثاني باسم  
الشيعة ( من المتشيعين لعلي ) .

وربما استطعنا تقريب الصورة إلى الأذهان إذا ما ذكرنا ما حدث في المسيحية . فهناك نستطيع أن نلح نمو كنيسة تحتضن أحياء يرعى القسس والأساقفة شئونها الدينية ، ونمو رؤساء الدول السياسيين نمواً منفصلاً ، ونستطيع أن نلح أيضاً سيطرة سلطة دينية على السلطات الأخرى . وكيف استطاع البابا الأول دليو، أن يجعل القرارات البابوية في قوة القانون الديني ، وكيف أن الأباطرة استولوا على السلطات الدينية إلى جانب سلطاتهم السياسية ، ورأينا الصراع بين الكنيسة والدولة والعشور على حل تقدي ، وذلك بالفصل مرة أخرى بينها ، ثم وجود هوة ضخمة تبلغ ذروتها بعد اكتمال هذا الفصل ولا يمكن المقارنة بين هذا وما حدث في إمبراطورية العرب الإسلامية . ونظراً لعدم وجود كنيسة منفصلة ، فإن الرمز الديني والسلطة السياسية كانا يتمثلان منذ البداية في الخليفة . وعانت هذه الدول الثنائية منذ البداية الخطر الذي يمكن أن يتعرض له الدين وتعرض له السياسة .

### من الذي سيمخلف ؟

فاذا وضعنا هذه المخاطر في أذهاننا وجدنا أن ما حدث كان مثيراً وخلاباً بكل تأكيد ، فلقد خلقت الإمبراطورية العربية حضارة حية تحتضن كل شيء . وفي الوقت الذي كانت أوروبا تعاني فيه من الظلام ، كان العرب يجمعون خيوط ميراث اليونانيين والفرس وغيرهم في ميدان العلوم والفنون . وتحت رعاية الخلفاء ازدهرت مكاتب ومعاهد ضخمة

تُعلوم في عواصم بعيدة متألفة كقرطبة بأسبانيا . وبغداد بالعراق ،  
وتتم الاحتفاظ بمخطوطات يونانية لا تقدر بثمن ، وترجمت هذه المخطوطات  
وتمت دراستها والتعليق عليها . وهكذا ، عندما وصلت دوافع النهضة  
الثقافية إلى أوروبا المسيحية ، استطاع علماء الغرب الاعتماد على نصوص  
العرب في الفلسفة ، والسياسة ، والجغرافيا ، والطبيعة ، وعلم الأحياء ،  
والطب ، — وغيرها من النصوص ، ووسط هذا التراث الحى للعرب ،  
أمكن إنقاذ فكر أرسطو ، وإيصاله إلى دارسى الغرب الأول . وحتى  
لو اقتصر دور العرب الأول على نقل التراث ، فإن هذا كفى بأن  
يضعهم في التاريخ الحديث . غير أنهم لم يقتصروا على النقل ، وعلى مجرد  
« تخزين » علوم الماضى وإنما أخذوا يجمعون ، ويمزجون ، ويعلقون .

وفي نفس الفترة القصيرة نسبياً ( ٤٠٠ عام ) نبت تراثان دائمان  
في المنطقة التي نعرفها الآن بالعالم العربى : تراث التعريب ، وتراث الدخول  
في الديانة الاسلامية . ونستطيع أن نتتبع هذين الاسلوبين عبر المراحل  
الكبرى المختلفة التي مرت بها الامبراطورية . فالمرحلة الاولى من التوسع  
الممتد من الجزيرة العربية قذف بحفنة من العرب إلى اراض جديدة .  
وكانوا إذا ما هزموا سكانها أقاموا سلسلة من المدن التي تشبه القلاع ،  
وهناك يعيش قوادهم وحامياتهم ، ومن هذه المدن يحكمون . ويعيش  
السكان مثلاً كانوا يعيشون من قبل ، فالعرب يحققون لكل طائفة  
دينية استقلالها الذاتي ويسمحون لهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم إلى  
جد كبير . وهكذا كان الفاتحون العرب ، في هذه المرحلة الاولى ، بمثابة

أرستقراطية عسكرية — أرستقراطية تكني نفسها بنفسها وتحفظ  
بتفانيها العربية وعاداتها الإسلامية الجديدة . والواقع أنها كانت عبارة  
عن أقلية تعيش وسط « المهزومين » .

ولكن لم يمض وقت طويل إلا وحدث تغير لا بد منه . فالمدن  
المحصنة في حاجة إلى عمال ، وموردى طعام ، وحفارى خشب ، وجالبي  
ماء وهكذا استقر الرعايا حول الفاتحين ، وازدادت صلتهم بالعرب ؛  
وبلغتهم وطرقهم ، ودياتهم . وبالرغم من أن الجزية المفروضة على غير  
المسلمين لم تكن شاقة في غالب الأحيان إلا أنها شجعت على الدخول  
في الإسلام ، خاصة وأن الدين الجديد لا يختلف كثيراً عن اليهودية  
والنصرانية . أضف إلى هذا أن الإسلام دين عربي ، فكتابه مدون باللغة  
العربية ، وكذلك خطبه ، وروحه . كما أن الإمبراطورية يحكمها حكام  
يتحدثون ويكتبون اللغة العربية . ولم يكن هناك مفر من أن يستخدم  
المشولون المتصلين بهم والعاملين معهم هذا اللسان الجديد . ولقد سبق  
أن أشرنا إلى أن المعارف القانونية والفكرية والعلمية الإمبراطورية  
العربية كانت مدونة — إلى حد كبير — باللغة العربية .

ونتيجة لهذا انتشر في معظم أنحاء الإمبراطورية مجتمع جديد حقاً ،  
وثقافة جديدة حقاً ، كانت أدواتها اللغة العربية والدين الإسلامى بصورة  
دائمة ، وانصهرت الأرستقراطية العربية المميزة في هذا المجتمع عن طريق  
التزاوج ، والدخول في الإسلام واستخدام كافة السكان اللغة العربية . لقد  
كان تطوراً ملفتاً للنظر ، خاصة إذا علمنا أن العرب لم يجبروا السكان على



الدخول في الاسلام ، بالسيف ، ، وان الطليعة التي انبثقت خارجة من شبه الجزيرة العربية تألفت غالبيتها من محاربين و جهلاء ، غير مدربين ، وانهم كانوا في كل مكان فتحوه تترىبا عبارة عن أقلية . لقد فتحوا مصر عام ٦٤٠ ميلادية . وعندما حل القرن العاشر كان القساوسة الأقباط في مصر مازالوا يمارسون دينهم الخاص بهم ، غير أنهم كانوا يستخدمون في ذلك اللغة العربية بدلا من لغتهم القديمة . وتعدى دين العرب الاسلام هذا النطاق اللغوي بمراحل ، فوصل إلى أندونيسيا وأفريقية ، وشمال الهند ، وإيران ( التي بقيت لغتها ) .

ومع ذلك ، ففي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية العربية ترمي دعائم هذين الترائين : التعريب ، والدخول في الاسلام ، كانت تعاني من التدهور البطيء . لقد استمر الخلاف الذي بدأ حول المشكلة الأساسية : من الذي يخلف محمداً ؟ غير أن رقعته اتسعت بصورة هائلة بعد أن اعتنقت الملايين هذه العقيدة أو تلك . وأصبحت الحياة في بلاط الخليفة مفعمة بالترف ، وتدهورت الأحوال المالية لسوء التدبير ، وكانت النتيجة ظهور طائفة ضخمة من المسلمين العمال في كل اقليم ، وكانوا ساخطين على الأوضاع الاقتصادية مما جعلهم عرضة للتطرف . وفي نفس الوقت كانت خطوط المواصلات متباعدة ( كما هو الحال في معظم الامبراطوريات القديمة ) . وهكذا بدأ الحسكام المحليون والزعماء الدينيون يسيطون نفوذهم الخاص ويتزعمون ثورات انشقاق . أضف إلى هذا أن التطور السياسي والمائوني والتجاري للامبراطورية تطلب وجود وزراء مركزيين .. وهكذا ظهرت

وظيفة وزير الخليفة . ومن المفروض أن هذا الوزير يطيع الخليفة . غير أنه أخذ يسطر مزيداً من النقوذ من وراء ستار . وعندما تدهورت الارستقراطية العسكرية القديمة ، للؤلؤة من العرب الفاتحين ، بدأ الحكام يفكرون في استخدام الجنود المرتزقة ، معقدين أن هذا يخدم أغراضهم . وهكذا التفت خلفاء بغداد إلى الترك ، شعب أواسط آسيا ، ولم يمض وقت طويل إلا وظهرت طبقة جديدة من الأتراك تسمى بالماليك . وعندما ازدادت الامبراطورية رخاوة بدأ هؤلاء الجنود المرتزقة يسكون بزمام السلطة لأنفسهم .

هذه اذن بعض عوامل التحلل والتدهور الداخلي التي أصابت العالم العربي قديماً . كذلك احتكت به قوى خارجية وساعدت على اخضاعه وانهيائه . ونستطيع ، بصفة عامة ، الاشارة إلى ثلاث غزوات وهجمات تعرض لها العالم العربي للمسلم ، ففي عام ١٠٣٧ تمحركت إلى فارس ، ثم إلى العراق قبائل كاملة من أتراك أواسط آسيا تقودها أسرة السلاجقة ، وسارت في الطريق الذي قطعه الأتراك الأول الذين استوردتهم العالم العربي ، في مجموعات صغيرة ، في صورة جنود مرتزقة ، وعندما عبر الترك بلاد الفرس اعتنقوا الدين الإسلامي ، ثم اكتسحوا ما في طريقهم متجهين إلى بغداد ، ثم انتشروا غرباً إلى سورية ، وأهم من هذا كله أنهم وصلوا إلى الأناضول (تركيا) . وفي الوقت الذي حدث فيه هذا الغزو من أقصى الشرق ، وقعت هجمتان هامتان من الجنوب . ففي جنوب مصر كانت الاسرة المعاصرة تفقد سيطرتها ، فاندفعت إلى شمالي افريقية قبيلتان كبيرتان من قبائل البدو العرب ، وحطموا وسلبوا على طول

الساحل حتى وصلوا إلى تونس . ومن أقصى الغرب جاءت قبيلة بربرية قديمة من الجنوب متجهة إلى مراكش والجزائر قريبا .  
وسرعان ما أعقب هذه الأحداث أول حملة صليبية من أوروبا المسيحية ، وذلك في عام ١٠٩٦ . ولم يكن الباحث وراء الرحلات المسيحية المسلحة إلى الشرق الأوسط أكثر دقاً من الباعث الذي جعل العرب يخرجون من شبه الجزيرة العربية ويفتحون البلاد الأخرى لقد سيطرت عليهم حماسة الرسالة ، والرغبة الجارحة في تخليص القدس من أيدي المتعصبين . وكانت هناك روح المغامرة والقتال ( مثلما كانت بين صفوف البدو المحاربين القادمين من الجزيرة العربية ) . وكان هناك ضغط سكاني معين ، مثلما كان في الجزيرة العربية . وكان النظام الأوربي يجعل حق التوريث لابن النزيل البكر ، ولذلك بات الابن الثاني والثالث لكثير من النبلاء بدون ضمان المستقبل . وكانت الزربة الفرنسية تتدهور بالتدريج نتيجة لنظام الزراعة القائم على الضياع . وكان محاربو الرسول يحملون بغائم الأرض في ضرورة أسلاب وثروات في البلاد المفتوحة ، وكان الصليبيون يعتقدون أن القدس دجنة العالم وهي أكثر أثراً من أي بلد آخر ، انها نعيم آخر من الممرات ، . وخطاب البابا أربان الثاني للصليبيين الأول في كليرمونت ) .

استمرت الحملات الصليبية المتلاحقة من عام ١٠٩٦ حتى عام ١٤٥٣ ولكن حدث في عام ١٢٠٦ أن اكتسح العالم العربي غزو شرق أشد هولا — مثلاً في مغول جنكيز خان القادمين من امبراطورية أواسط آسيا . ومنذ سبعمائة عام على وجه التحديد ( عام ١٢٥٨ ) انتهكوا جرمة بغداد وخربوها . وفي عام ١٤٠٠ اكتسحوا سيورية ودمروا

دمشق وغيرها من بلاد الشرق ، وقضوا على كل مظهر من مظاهر الحياة المنظمة ، بما في ذلك الزراعة بالعراق وسورية . وحال ماليك مصر دون تقدمهم . غير أن الممالك أنفسهم كانوا يعانون من التدهور ، سواء عن طريق الضرائب الباهظة — من الناس أنفسهم ومن التجارة مع البندقية — أو تدهور الدول نتيجة للترف والفساد .

وشيثاً فشيئاً ، خضعت البقية الباقية من هذه الامبراطورية العربية ( التي عاشت ولكن في ازدهار ) خضعت لعوامل الضعف الداخلي ، وللهجرات الخارجية ، وفي القرن الرابع عشر ، شرع الاتراك في غزو أوروبا . وكانوا ينحدرون من الاتراك السلاجقة وبالرغم من أنهم ضاعوا وسط العالم المستعرب ، إلا أنهم بقوا كطائفة كبيرة تعيش في الأناضول وفي عام ١٢٨٨ شرعت أسرة تعرف بأسرة العثمانيين في التوسع من هذه القاعدة الصغيرة وفي عام ١٤٥٣ استولى هؤلاء الاتراك العثمانيون على القسطنطينية وظلوا يتغلغلون إلى جنوب شرق أوروبا في المائتي عام التالية .

وفي مطلع القرن السادس عشر ، وجه العثمانيون طاقاتهم جنوباً . تجاه المسرح العربي المتداعي . وفي عام ١٥١٢ استولوا على حطام دمشق وفي عام ١٥١٧ كانت مصر — مفتاح العالم العربي — في حوزتهم وامتد سلطانهم إلى معظم ساحل البحر المتوسط الجنوبي ، وإلى سورية بأكملها والعراق ، والجزيرة العربية ( اسماً ) ثم اتجهوا مرة أخرى شمالاً . ووصلوا إلى أبواب فيينا عام ١٦٨٣ ، ليواجهوا بعد ذلك دفاعاً من جانب

الاوروبيين المذعورين . غير أنهم كانوا سادة في العالم العربي . والعرب يؤرخون نهاية عهدهم الاول بعام ١٥٧ ، حين سقطت مصر في أيدي الغزاة ، وظلت الامبراطورية العثمانية تحكمها ثلاثة قرون متتالية دون أن ينازعها أحدهم ذلك . كان حكمهم راكدا جامداً . كانوا مسلمين ، ولكن كانت تعوزهم القدرة على تحريك هذه الديانة لتغير وتتطور . وكانوا أترাকা ، غير أنهم لم يؤثروا بصورة تذكر على تراث العروبة .

وهكذا ، بينما كانوا أسرى نومهم كان العرب يحتفظون بلغتهم ، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهودا . واحتوت هذه اللغة العربية على طاقة تحقق وحدة جديدة ، وعلى الوسيلة التي تستطيع الاجيال القادمة عن طريقها بعث أجدادها الذين عاشوا في « العصر الذهبي » الاول ، لقد فقدت اللغة شيئاً من حيويتها ، غير أنها ظلت لغة عالمية ، تحقق الدوام والاستمرار للتراث العربي ، ولا تحتاج إلا لدوافع جديدة تعيد اليها سابق مجدها .

والآن وقد أشرنا إلى هذا التراث العربي المشترك ، نجد مع ذلك أن هذا الدور الذي قام به هام جداً . ونحن حين نعود إلى الوراثة نساھل ونستخدم كلمة « عرب » لنصف بها هذه الشعوب التي تعلت اللغة العربية ودخلت الدين الاسلامي . غير أن هذه الشعوب نفسها لا تفعل ذلك . « فالعرب » عندهم معناها البدو ، والقبائل الرحل التي تجوب الصحراء . لم يكن هناك احساس بوجود أمة ، ولم يكن هناك شعور بالوحدة القومية في هذه القرون الاولى . كان الرجل منهم ينتمى

إلى دمشق ، أو إحدى مدن مصر العليا ، وكان مسلماً أو مسيحياً ، وكان فرداً في أسرة لها مئات بل آلاف الأقارب . ولم يكن يعرف شيئاً غير هذا سوى أن جيرانه الأقربين يتكلمون نفس اللغة التي يتكلمها . لم يكن الناس يسافرون بعيداً — فهذا وقف على البدو وقوافل التجارة . بل ان عامل اللغة المشتركة — لم يزودهم بإحساس واع بالوحدة .

ويبدو أن عوامل اللغة المشتركة هذه ، والعادات الواحدة ، والنظرة المتشابهة إلى الحياة كانت في سبات عميق طوال القرون التي سيطر فيها العثمانيون ، كانت مسيحية الغرب تطور آراءها وهيئاتها . وترفع برخانها الهائل الذي يعتمد على امبراطوريات الأرض ، كما نهضت بعلومها وفنونها إن ما حدث في الغرب مبعثه ، إلى حد كبير ، وجود الاسلام . مثال هذا أن رغبة البرتغاليين في الكشف والنهوض بالتجارة في الشرق مبعثها إلى حد ما رغبة البرتغاليين في تطويق المسلمين . — فهم يريدون قطع روابطه التجارية في الشرق عن طريق الخليج العربي والبحر الأحمر ، وثبتت أقدامهم في آسيا ، ليهاجروا العالم المسلم من هناك ، من المؤخرة . سيطرت هذه الرغبة على عقل الأمير هنري الملاح — كما سيطرت على البابا الذي بارك مشروعاته . وفي هذه النقطة ، وفي نقاط كثيرة غيرها ، نستطيع أن نقول : إن تيار المدنية الغربية ارتبط إلى حد كبير بظهور العرب . منذ القرن السابع الميلادي .

. وبينما كانت سياسة القوة والتناحر من أجل الامبراطوريات تسيطر

على أوروبا ، ظهرت معها ، جنباً إلى جنب ، فكرة الأمة ، والدولة  
التي هي عبارة عن أمة ؛ و الشعب ، الذي يتمتع بطابع خاص . هذه  
الفكرة ، بالاضافة إلى المفهوم الغربي للتقدم ، وتكنولوجيا الغرب ،  
هي التي أخصبت تراث الامبراطورية العربية .. وهذا المزج بين قوتين ،  
إحداهما عربية والاخرى غربية ، إنما بدأ في القرن السابع عشر عندما  
وجهت دول أوروبا نظرها إلى حوض البحر المتوسط والطريق المفضي  
إلى الهند .

ونستطيع أن نقول : إن هذه « القطة العربية » بدأت في — مصر —  
في ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ ؛ الذي نزل فيه نابليون بونابرت على  
البر المصري .



## الفصل الثالث

### اليقظة العربية

في عام ١٧١٨ هبط نابليون مصر ، وكانت تعليماته تقضى بتدعيم مصر وتقويتها ، وربط أواصر الصداقة بينها وبين فرنسا ، وحفر قناة عبر برزخ السويس إلى البحر الأحمر ، وانتهاز كافة الفرص للحرمان البريطانيين من ممتلكاتهم في أقصى الشرق .

كانت هذه أول مرة ينزل فيها جيش في العالم العربي منذ الحروب الصليبية ، ولم يكن المصريون قد نسوا بعد ذكرى تلك الأيام . . فما نال الجزء الأكبر من الاسكندرية حطاماً بعد أن دمره الصليبيون منذ ستائة عام . وخلق وصول نابليون مقاومة عنيفة ، غير أن مصر كانت ضعيفة منهارة بعد القرون الطوال التي خضعت فيها للحكم العثماني ، وسرعان ما سحقته القوات الفرنسية المقاومة المصرية .

وفي ظرف أعوام قلائل أجبر نابليون على الانسحاب ، غير أنه خلف وراءه تياراً من القلق ، والسعي وراء قوة جديدة أثارها الحكم الفرنسي القصير الأجل ، في عام ١٨٠٥ ناشد السادة الدينيون والمديون في مصر أحد الجنود التجار الألبان أن يتسلم زمام الأمور ويضع حداً للفوضى التي تعيش فيها البلاد ، وكان اسمه محمد علي ولم يكن مصرياً ، بل لم يكن يستطيع أن يتكلم العربية . لقد قدم إلى مصر بوصفه مجنداً في



جيش السلطان العثماني ، غير أن صور التقدم الأوروبي حركته وأثارته ، أضف إلى هذا أنه كان طموحا للغاية . وقبل محمد علي الداء الذي وجه إليه ، وبدأ عهد أقيض له أن يغير مجرى حياة مصر .

وشرع أولا في تصفية وحشية للبقية الباقية من الحكم المالك ، وبعدها وضع أطار الدولة الحديثة ، واستولى على الأرض ، وعلى جميع وسائل التوزيع ، في صورة « اشتراكية الدولة » واستقدم القطن الطويل الثيلة ، ذلك المحصول الذي صارت له أهمية بالغة في اقتصاديات مصر في المستقبل . وأوفد المصريين ليدرسوا الموضوعات الفنية في الكليات الأوروبية ، وأنشأ مطبعة بالقاهرة ، واستخدم الخبراء والمستشارين الفرنسيين ليمهدوا الطرق ، ويقوموا مشروعات الري ، والقناطر ، والمصانع ، والمستشفيات ، ولينقلوا جيشاً واسطولا جديداً قوياً . وما أن جاء عام ١٨٢٢ حتى كان في مقدور محمد علي إرسال القوات المصرية إلى اليونان لمساعدة السلطان العثماني في قمع الثورة اليونانية . وفي عام ١٨٣٢ كان يتحدى بطموحه حكم السلطان في سورية ، وكان أن غزاها بجيوش قادها ابنه ، ومضى عام واعرف السلطان بمحمد علي واليا على سورية .

واستلقت هذه النهضة المصرية السريعة أنظار الدول الأوروبية وظلت الحكومات الفرنسية تبارك هذا الاتجاه ، ولم تكن في هذا تعادى السلطان العثماني الذي ظل الحاكم الاسمي لمصر ، وإنما كانت تعادى أية سيطرة بريطانية على طول النيل . أما الساسة البريطانيون فقتلوا في دهشة إلى ما يفعل محمد علي ، لقد كانوا يعتبرون الامبراطورية العثمانية أكبر ضمان

ضد أى تقدم روسى فى خوض البحر المتوسط ، أو تجاه الهند عبر الخليج العربى . وهكذا اعتبروا أية قوة تضعف من سيادة السلطان ظاهرة خطيرة . كما أن الحاكم المستقل الذى يحكم مصر وسورية قد يرحب بتأييد دولة أخرى - خاصة فرنسا - وبما حدا بالبريطانيين إلى زيادة تعصيد الباب العالى فى القسطنطينية أن تجارتهم أخذت تتضاعف فى الشرق الأوسط ، سواء عبر حوض البحر المتوسط ، أو من الهند حتى الخليج العربى والبحر الأحمر .

وهكذا أصبحت مصر تحتل مكاناً دائماً على خريطة الصراع بين دول أوروبا ، وظل مصيرها يتشكل باستمرار نتيجة لهذه القوى الخارجية حتى على استمرار الهضة الحديثة على يد أبناء محمد على وأحفاده . ولقد حدث أول رد فعل كبير لسياسة القوة فى عام ١٨٣٨ ، فى سورية ، عندما طلب محمد على من الامبراطورية العثمانية منح الاستقلال الاقتصادى لامبراطوريته الصغيرة .

وكانت بريطانيا ، فى هذه اللحظة تطالب ببعض الامتيازات التجارية لتجارها فى الامبراطورية العثمانية . وثار تجارها مطالبين باتخاذ اجراء ضد محمد على وصاحب هذا احساس سامة بريطانيا بالقلق لمركزه الجديد فى آسيا الصغرى . وهكذا استطاعت بريطانيا أن تطرد محمد على من سورية وتضمن تحبسه مرة أخرى فى مصر ، مستخدمة فى ذلك سد الطرق البحرية ، والضغط الدبلوماسى على القسطنطينية ، والضرب بالقنابل وانزال القوات فى النهاية .

وأعقب هذا تطور تاريخي جديد . لقد أخذ حكم مصر يقطعون أشواطاً كبيرة في طريق التقدم ، ومن ثم احتاجوا إلى رأس مال أجنبي . وفي عام ١٨٦٢ طلب سعيد المتلاف ، حفيد محمد علي أول قرض أجنبي ، وكانت أوروبا على استعداد للمغامرة بأموالها . غير أنها فرضت اقتطاعات وفوائد هائلة . وكلما مضى عام أخذت مصر تموج بالمسولين الأجانب ، وبصغار المضاربين الذين وان كانوا صغاراً إلا أنهم غاية في الدهاء . وعندما نجحت الحروب الأهلية الأمريكية في وقف تدفق القطن من الجنوب إلى لانكشاير . أصبحت صادرات مصر من القطن تتمتع بالازدهار . وانغمست النخبة من حكامها في موجة جديدة من التوسع . غير أن الازدهار كان قصير الاجل . وكان على مصر أن تستدين المزيد لتسد تكاليف منشآتها العامة الجديدة . وازدادت مصر اقتراباً من هوة الافلاس . وتعالصت صيحات الدائنين والتجار في أوروبا مطالبين الدول الكبرى باتخاذ اجراءات تضمن دفع الفوائد . . وحماية استثماراتهم .

ولكن حدث في عام ١٨٦٩ أن ظهر عامل جديد ركز الانظار على مصر : فلقد افتتحت الامبراطورة ايوجين رسمياً قناة السويس ، وصمدت بريطانيا على بسط نفوذها الفعال على هذا الطريق الجديد الحساس المفضي إلى الهند . ولاحق الفرصة ممثلة في وقوف مصر موقف المدين . وفي عام ١٨٧٥ ضرب دزرائيلي ضربته المالية الخاطفة . وكان الخديو ايسماعيل في حالة يرثى لها . وكان في حاجة إلى المال فوراً على الأقل . ليسدد

الجزء المطلوب توا من قرضه الاجنبي . وحقق دزرائيل لبريطانيا ٤٤ /  
من السيطرة على شركة القمار مقابل ٥٠٠.٠٠٠ ر. ٤ جنها استراليا .

وفي الوقت الذي اشتدت فيه أزمة مصر المالية . ارتفع سخط الشعب  
لا على الاستغلال الاجنبي لحسب . وإنما على العصابة الحاكمة التي فتحت  
أبواب مصر للربا . وفي عام ١٨٨١ قاد ضابط في الجيش المصرى يدعى  
عراي ثورين ضد الحكومة وضد الميسطرين عليها من الأجانب ،  
وفي بريطانيا تعالت صيحات التجار والبنوك ، تدعها نشوة الاستعمار  
الجديد وردد جلاستون أنه ليس حريصاً على ضم مصر إذ كان يخشى  
أن تؤدي هذه الحركة إلى دقّس بيضة امبراطورية افريقية الشالية .  
غير أن الشعب الذى حدث بالاسكندرية عام ١٨٨٢ والذى فقد فيه بعض  
الاوربيين أرواحهم اضطره إلى اتخاذ اجراءات ايجابية . وغادرت قوة  
بريطانية سفنها في قناة السويس وفاجأت جيش عراي ليلا وسحقته في التل  
الكبير . . ونفى أول زعيم شعبي وطني لمصر في عصرها الحديث ، وأعلنت  
بريطانيا أمام الدول الكبرى أنها ستحتل مصر إلى أن يستعاد سلطان  
الخليفة والامبراطورية العثمانية .

ومع ذلك مضى أربعة وسبعون عاما قبل أن يخرج آخر جندي  
بريطاني من مصر . لماذا ؟ هناك اجابة عامة مؤداها أن مصر قد احتلت  
في نفس الفترة - من تاريخ القرن التاسع عشر - التي أصبح فيها الاستعمار  
الاوربي حقيقة مؤكدة . كانت هناك ذواقع كثيرة وراء هذا الاستعمار .  
فهناك الحضارة الفخورة الواثقة بنفسها إلى أقصى حد والتي توق

إلى «تمدين البربرى» ، وتعتبر ذلك مسئولية تقع على عاتق الرجل الابيض . وكان هناك أيضاً ذلك الانقلاب الصناعى الهم الذى يتوق إلى أسواق جديدة وراء البحار وإلى مصادر للواد الخام . وكان هناك عالم البنوك الحى الذى يريد استثمار أمواله فى مضاربات جديدة تعود عليه بالنفع . وكانت هناك المنافسة التى تثيرها هذه الاحتياجات . . . وظهر أيضاً مفهوم السلطة القومية أو الاستعمارية التى يعتبر فيها امتلاك المناطق الجديدة هدفاً فى حد ذاته مؤدياً إلى صراع من أجل الاستحواذ على أكبر جزء من افرقية . هذه الدوافع مجتمعة قد خلقت بدورها خريطة استراتيجية جديدة لسياسة القوة .. وصارت مصر محورا فى هذه الخطة لا لأنها تنفضى إلى الهند والشرق غصب ، وإنما لأنها أيضاً جزء من افرقية .

وسرعان ما أصاب البريطانيين المقيمين بمصر ما يمكن تسميته بحق «سيكلوجية النيل» ، فهناك خوف دائم من أن يسيطر أحد على الضفاف العليا للنهر فيجوع الشعب الذى لا ينزل فى أرضه المطر ، وبذلك يستسلم ويخضع ، ومنذ فجر المدنية كان نهر النيل الدماء التى تسير فى كيان مصر فتبعث فيه الحياة ، وكان مجرى الأحداث فى القرن التاسع عشر يعكس إدراك حكامها لهذه النقطة ، وخضوعهم للسحر الذى لا يقاوم ، القادم من الجنوب .

وفى أوائل القرن كان محمد على قد أعاد غزو السودان ، وهى أهم منطقة فى أعلى النيل ، وأرقد خلفاؤه من بعده حكاما بريطانيين وأجانب إلى هذه المنطقة حتى قبل أن يتم احتلال مصر وفى عام ١٨٨١ انفجرت ثورة وبعدها بعامين تم سحق قوة بريطانية وطردها من هناك : لقد ذهب

الجنرال جوردون إلى أعلى النيل لإجلاء المنطقة ، غير أنه عمد - بدلا من ذلك - إلى تهدئة القبائل المنردة ، وكان نصيبه الذبح هو ورجاله في الخرطوم ، واستولت على بريطانيا موجة من الغضب العارم والرغبة في الانتقام ، غير أنها لم تقدم على إجراء حاسم لعشر سنوات تالية ، وفي خلال هذه السنوات العشر استمر تقسيم القارة الإفريقية بين الدول الكبرى . وفي عام ١٨٩٨ ذهب كتشنر إلى أعلى النيل ليغزو السودان . ولكنه لم يصل إلا في آخر لحظة ، لقد كانت البعثات الاستعمارية القادمة من بلجيكا وإيطاليا وفرنسا إلى قلب القارة تقترب وتقترب من منابع النيل وتطالب بحقوقها هناك . وعثر كتشنر على بعثة فرنسية معسكرة على ضفاف النيل عند فاشودة ، وأعقب ذلك أزمة انجلو فرنسية ، وتعتبر هذه الأزمة من أخطر الأزمات التي حدثت لعشرات من السنين وكسبت بريطانيا الجولة ، وأصبح السودان أرضا انجلو مصرية . لقد أفرخت بيضة جلاستون — بيضة إمبراطورية شمال افريقية — أفرخت عن إنتاج جيد ، وأثبتت صدق الرجل

وقد نستطيع عند هذه النقطة رسم صورة « لرجوع » الغرب إلى العالم المستعرب في القرن التاسع عشر . وعندما نتطلع إلى ما حدث على ضوء النظرة التاريخية العريضة نجد أن رجوع الغرب كان عبارة عن انتهاك على نطاق هائل ، كما كان يمثل كافة عناصر المدنية الأوروبية : الاستراتيجية الاستعمارية وسياسة القوة ، نشر الحضارة ، التجارة والبنوك ، نظرية أسلوب الحكم الحديث ، مهارات الغرب العلمية والصناعية . والتي هذا

كله في تلك المنطقة الضخمة التي ظلت لا تحرك ساكنا عدة قرون. وإذا نظرنا إلى خريطة العالم المستعرب وجدنا أن مراکش أصبحت محمية فرنسية عام ١٩١٢ ، وأن الجزائر خضعت للسيطرة الفرنسية عام ١٨٣٠ وإن تونس انزلت وخضعت للسيطرة الفرنسية — عن طريق الرباط كما حدث في مصر — وذلك في عام ١٨٨١ ، وما نطلق عليه اليوم لفظة ليبيا ، اغتصبته إيطاليا عام ١٩١١ من الامبراطورية العثمانية أما مصر فأصبحت أرضا بريطانية منذ عام ١٨٨٢ وتعرض السودان لنفس المصير منذ عام ١٨٩٨ .

وظلت شبه جزيرة العرب بمعزل عن هذا الانتهاك الغربي إلى حد كبير ، وكانت بريطانيا تسيطر على عدن وعلى طائفة من المحميات المحيطة بهذا الميناء الحيوى ، وعلى طول الساحل ، فى أقصى الشرق وفى الخليج العربى كانت تسيطر — بصورة فعالة — على سلسلة من الامارات عن طريق معاهدات تعقدها مع حكام هذه الامارات . وظل اليمن مستقلا يعيش فى الماضى البعيد جدآ . وفى قاب المربع الكبير الذى شهد مولد المدنية العربية دارت معركة بين قبيلتين من أجل بسط النفوذ . وفى النهاية انتصرت طائفة الوهابيين المتعنتة المتعصبة ، بقيادة عبد العزيز بن سعود ، وفى عام ١٩٢٦ تم إعلان قيام المملكة العربية السعودية المتحدة وتضمن ذلك السيطرة على مدن الإسلام المقدسة : مكة والمدينة .

وقبل الحرب العالمية الأولى كانت الجزيرة العربية خاضعة للامبراطورية العثمانية ولكن بالرغم من أن الاتراك نادرا ما حاولوا:

بسط سلطان مباشر على قلب شبه الجزيرة العنيد ، إلا أنهم ظلوا يلبسون نفوذا كبيرا على باقي الشرق العربي ، وكان يحتضن ما يعرف اليوم بالأردن ، وإسرائيل ، ولبنان ، وسورية ، والعراق .

وعندما اضطر محمد علي إلى الانسحاب من سورية عام ١٨٤٠ . ظلت هذه المنطقة بأكملها تابعة للعثمانيين ، ولم يكن تأثير الغرب في هذه المنطقة مباشراً ، كما هو الحال في مصر ، ومنغ ذلك كانت له دلالاته البالغة فلقد أخذت التجارة البريطانية في التوسع المستمر . وتمت سلسلة من الإصلاحات في ميدان السياسة والحكم وسرت إلى السلطان العثماني الجالس في القسطنطينية عدوى الرغبة في التحضر إلا أنه كان يرى التحضر في البداية في القوة العسكرية ، غير أن بريطانيا وفرنسا ظلتا تلحان على السلاطين أن يقوموا ببعض الإصلاحات ، ذلك لأنهما خافتا أن تستقل روسيا ضعف الاتراك ، وأسلوبهم في القمع والوحشية . وتتخذ من هذا كله ذريعة للحرب والغزو ، كما خضعت السلطنة للضغط من مصدرين آخرين : الأحرار والتجار الاتراك ، ورجال البنوك الأوروبية الذين يتوقون إلى تثبيت أقدامهم في هذه الأقاليم الشاسعة . وبعد عام ١٨٧٠ أضيف إلى هذا كله ضغط قادم من ألمانيا الجديدة التي كانت تنادى بـ Drag nach Osten أى الاتجاه شرقاً .

وكانت النتيجة أن حقق الشرق العربي بعض التقدم في الفترة ١٨٤٠ - ١٩١٤ . غير أنه لم يكن في سرعة التحول الذي مرت به مصر ( وهو تحول لم يحمه أفلاسها ، بالرغم من سوء حال الشعب نتيجة لهذا الأفلاس )



ومع ذلك كان التقدم كافياً لكي يفتح أبواب الشرق العربي أمام تيار الأفكار الجديدة القادمة من الغرب ، وعلينا أن نتجه الآن إلى حفل الأفكار في هذا الاستعراض السريع لليقظة العربية .

إن كل ما قلناه آنفاً عبارة عن لمحة عامة يمكن أن نسميه «بوسائل» المتقدمين التي أخذت تعمل عملها في العالم العربي في القرن التاسع عشر - فقد أشرنا إلى هيكل الحكم الحديث ، والتجديدات الأولى في ميدان الزراعة والصناعة القائمة على العلم ، وأشرنا إلى التعليم العام والطب ، وغير ذلك ولكن ، ما قولنا في الفلسفة السياسية ؟ لقد التهب محمد علي حماسة أمام الجانب السطحي ، الوظيفي ، للجمع الغربي ، كان متحمساً له لأنه ، ولكي يشجع طموحه . اصطنع دولة حديثة في مصر ، غير أنها دولة بلا أمة ، فهو لم يكن مصرياً ، ولم يكن يتكلم العربية ، ولم يكن يهتم بالشعب الذي يحكمه بوصفه شعباً . وخلق طبقة جديدة حاكمة ، غير أنها لم تكن أقرب من سابقتها إلى جموع الشعب المصري ، ولم تكن تمثل هذه الجموع وتعبّر عنها . وعلى هذا النسق العام سيطر الأتراك العثمانيون على الشرق العربي ، غير أنهم لم يحكموه بالمعنى العادى لكلمة الحكم باستثناء حاكم أرائين من حكام الإصلاح الموهوبين - قام الأتراك بعدة إصلاحات تجارية ، ولكن ندر أن فعلوا ذلك من أجل رفاهية العرب .

ومع ذلك ما أن شرع الحكم في إيفاد الطلاب إلى أوروبا وتثقيف ولو جزء صغير من السكان ، وطبع النصوص الغربية التي تتناول حضارة

ديناميكية حية ، وتياراتاً من الأفكار السيامية التي تقف وراءها ما. إن حدث ذلك حتى أثرت هذه الأفكار في مصر وفي الشرق العربي .

وفي سورية بدأت هذه الخطوات في ثلاثينيات القرن التاسع عشر . خلال حكم ابراهيم العابر ، وقد كان ابراهيم تواقاً إلى بعث العالم العربي كما كان هو ووالده يتساحان مع الارساليات المسيحية ، ولذا شجعها على القدوم إلى بيروت ودمشق وغيرهما من المدن السورية . وكانت هناك طائفتان كبيرتان : اليسوعيون الفرنسيون والبروتستانت الأمريكيون . وكان اليسوعيون يميلون إلى التبشير بلغتهم الخاصة بهم ، ولقد كان لهذا الاتجاه فائدته العظمى ، خاصة وأن مدارسهم أخذت تنمو .

غير أن رسالة الأمريكيين كانت أكثر بروزاً ، ذلك لأنهم كانوا يعلون ، ويعظون . بالعربية . واستحضروا من مالطة مطبعة عربية . وكانت الأوضاع السورية - في عام ١٨٣٠ - متأخرة إلى حد أنه لم يكن هناك مطبعة ، أو مكتبة في المنطقة كلها ، وشرعوا في ترجمة كتب الغرب الدراسية وغيرها من النصوص إلى اللغة العربية ، وذلك لاستخدامها في مدارسهم . وأهم من هذا كله ، أن هذه الارساليات الأمريكية الموهوبة شجعت طلابها العرب على دراسة تراثهم العربي الخاص بهم .

وفي مدارس الغرب هذه امتزج تراث العالم العربي القديم ( ذلك التراث الذي طال عليه النعاس ) بأيدولوجية الغرب الجديدة التي تحمل معها بذور الخصب والنماء . وبدأ الشباب العربي ، المسلم والمسيحي ينقب

عن ماضيه ويدرسه ورؤى المستقبل أمامه، تلك الرؤى التي أثارها أوروبا وأمريكا، لقد مرت قرون عديدة واللغة العربية جامدة هامة والعرب قد أهملوا الروح العلمية الماثلة في النصوص القديمة وفي اللغة العربية المكتوبة، ولو كان الاسلام مزدهراً ساعثاً لما حدث - على الأرجح - ما حدث. غير أن الاسلام نفسه عاصر الأقول والجود، إذا استطعنا اذن أن نصور لانفسنا طالباً عربياً فتياً يتعلم - في بيروت وفي عام ١٨٥٠ - كيف يقرأ روائع النصوص العربية القديمة التي عثر عليها مدقونة في الاديرة القديمة، وكيف يدرس قصة الثورتين الفرنسية والأمريكية، ويتأمل ملياً أفكار ديكارت وبيرك وعلما أوربا ورجال اللبثق فيها... إذا استطعنا أن نشكل هذه الصورة، أصبحت لدينا فكرة عن معنى هذه الارساليات الأمريكية في الشرق وكانت هذه الخطوات، من تنقيب عن الماضي وتفكير في المستقبل، في طريقها إلى مصر. وتمضى الأعوام ويتضاعف بانتظام عدد الشباب الذين فعلوا إلى الدرجة التي يستطيعون عندها التعمق في معنى الماضي، والحاضر والمستقبل.

والواقع أنهم استطاعوا أن يعيشوا على ماض عريق في عصر العرب الذهبي، عندما كانت قرطبة أسطورة من أساطير العلم، والحكم، والتجاسة في أوربا كلها، وعندما كانت مكتبات بغداد الضخمة، ومعاهدها، نوراً يضيء العالم كله، ووجود هذا الماضي العريق جعلهم يقارنون بما وصل إليه الغرب الآن، وبما آل إليه حال العالم العربي في القرن التاسع عشر.

وأثارت المقارنة أسئلة مستمرة أخذت تتضخم في عقول العرب ..  
 أى روح حركت شعوب الغرب لجعلتها تحقق كل هذه المكاسب ؟ ..  
 وإذا كان الناس في الغرب ينظرون إلى أنفسهم على أنهم « شعوب »  
 ليس لهذا أهمية في تحقيق التقدم ؟ وبدأ المثقفون في جميع أنحاء العالم  
 العربي يفكرون ملياً في معنى وطنية الفرنسيين وقوميتهم ، ويدرسون  
 فكرة « الأمة الأمريكية » وإيطاليا التي توحدت أخيراً .. ما معنى هذا  
 الحب لوطن وما هذه الشخصية القومية ؟ .. يبدو أن أهمية هذه الأشياء  
 للغرب تعادل أهمية تعبيد الطرق ، واختراع الآلة البخارية ، بل ربما  
 تعادل تأليف حكومة ناجحة .

وإذا كان الأمر هذه الأهمية ، فلا بد إذن من العثور على شخصية ،  
 بمثابة شعوب الشرق الأوسط ، ولكن كيف يتسنى هذا ؟ .

وقد يحس الغربي برابة إزاء هذه التساؤلات وذاك التفكير ولكن  
 علينا أن نتذكر أن فكرة الدولة التي هي عبارة عن أمة ، والدولة ذات  
 الشخصية الخاصة بها والمستمدة من شعبها والمختلفة عن الشعوب الأخرى  
 هذه الفكرة كانت في ذلك الحين من صنع الغرب إلى حد كبير .

ولم يكن هناك ، في العالم المستعرب ، ذلك الاهتمام الذي يوليهِ  
 الغرب للحدود ودور المناطق في التطور الذي مرت به « قومية الغرب »  
 في الماضي .. لم يكن للعرب رمز سياسي أو كنيسة قوية .. كانوا يعيشون  
 منطوين على أنفسهم في أحيائهم وجماعاتهم الدينية المحلية . وكأولاً رعايا  
 امبراطورية عثمانية لا يتكلم بحكامها اللغة العربية ولا يهتمون كثيراً

بالتقسيمات بين الاقاليم التابعة لهم ، بل لا يهتمون البتة . كان العرب قد فقدوا اتصالهم بـمـاضـيهم . والرجل البريطاني العادى لا يضع اليوم وقتاً كثيراً يتأمل فيه حقيقة كونه « بريطانيا » وأهمية ذلك بالنسبة له أو لوطنه . ذلك لأنه يعلم بهذه الحقيقة إلى حد كبير . ولدينا في الغرب احساس طاع تراثنا العريق المعقد ، ولقد أدى هذا الاحساس ، إلى جانب مكاسبنا ، أدى إلى شعورنا بالتفوق عما جعلنا نشعر بالازعاج والضيق عندما نلصق تردد الشعوب الأخرى وحساسيتها . غير أننا نشهد اليوم نتائج تصديرنا لهذه الآراء لشعوب افريقية وآسيا . وعندما شرع ما كولى فى وضع نظام للتعليم للهند البريطانية على نمط التنظيم البريطانى لم يدرك تماماً ما فعله والذين أبدوه ظنوا أن الطبقة الصغيرة من الهنود الذين سيتمتعون بهذا النظام سيخرجون وقد اصططبوا بصيغة بريطانية . ولم يدركوا أن الهنود سيأخذون الافكار فقط ويخضعونها لبيتهم الخاصة بهم واحساسهم المتيقظ ، بالشخصية القومية - ليصلوا فى النهاية إلى مفهوم القومية الهندية .

وطوال القرن التاسع عشر نشط هذا السعى وراء شخصية مميزة فى العالم المستعرب . ولم يكن هذا السعى بالأمر الهين إذ ما هى الامة ؟ .. هل يتوقف انتهاؤك لها على مسقط رأسك ، أو المكان الذى تعيش فيه ، أو اللغة التى تتكلمها ، أو الدين الذى تدن به ؟ .. ولقد رأينا كيف أن المجتمع العربى المسلم كان فى الماضى مجتمعاً ثنائياً مضطرباً . ولقد دفعت هذه الثنائية الموروثة بعض المفكرين إلى تشبيه فكرة الامة الفرنسية بالامة الاسلامية . غير أن الامة الاسلامية كانت تحتضن شعوباً قد تكون بعيدة بعد أندونيسيا ، أضف إلى هذا أن الرئيس الرمزى لهذه الامة هو السلطان .

التركي الرجعي . فهل معنى هذا أن على العرب السعى لبحث الاسلام؟  
 نبذ آخرون هذه الفكرة . فلقد كانت يجذبهم علمانية الغرب . والملاحظ  
 أن الغالبية العظمى من كبار المفكرين السياسيين كانت من العرب  
 المسيحيين الذين يتوقون إلى شخصية قومية تحتضن كل العقائد الدينية .  
 ليس من الغريب إذن أن يتجه مسيحيو الشرق العربي — الذين تلبذوا  
 على أيدي ارساليات الغرب وكلياته — إلى فكرة العروبة التي تعتمد  
 على التراث المشترك ، واللغة المشتركة لكل من يتكلمون العربية بصرف  
 النظر عن عقائدهم .

### قومية مصرية منفصلة

ولكن بالرغم من أن هذا التطور كان لا يزال في الطريق ، إلا أن  
 أحداث الساعة تدخلت وأثرت فيه فبعد أن احتل البريطانيون مصر  
 عام ١٨٨٢ لم يكن هناك مفر من أن يركز المفكرون الوطنيون كل  
 جهودهم ضد العدو الموجود في بلادهم . وظل الكثيرون يأملون أن  
 تساعد القسطنطينية — خاصة وأن فجر القرن العشرين قد لاح ، كما  
 تزايدت بوادر حركة تحريره وتركيا الفتاة، في العاصمة العثمانية ومن ناحية  
 أخرى كان الأتراك أنفسهم هم الذين يستبدون في الشرق العربي . وهكذا  
 ظهرت في مصر نزعة قومية قائمة بذاتها إلى حد كبير ، نزعة تأثرت بالآراء  
 السياسية الفرنسية ، والدور الذي لعبه العلماء لاكتشاف تاريخ مصر  
 القديم . وأخذ الوطنيون يحلون بأمة مصرية مستقلة تقوم على أنقاض

تبريطانيين؛ وكانوا يأملون أن تساعد القسطنطينية ، ومن أجل هذا لم يرضوا عن كفاح الوطنيين في بيروت ودمشق ضد القسطنطينية .

وعلى العكس من ذلك ، كان الوطنيون في الشرق العربي يحلمون بأمة عربية مستقلة متحدة ، تركز على سورية العظمى ، وعلى علاقة وثيقة بدولة عربية شقيقة في العراق . وهكذا قصرت كل طائفة بحجها وراء شخصيتها المميزة داخل نطاق تجاربها الخاصة بها وحدها سولم تتعد حدود المستبدن بها . غير أن الجميع كانوا يفكرون ويكتبون ويتكلمون العربية ويطلقون نصوصاً عربية واحدة ، ويستفيدون من تراث عربي واحد هل يحىء اليوم الذى يألف فيه تيارا الفكر المتشابهان ، ويستمدان نفوذهما الاكبر من المشاركة فى التراث واللغة .

## الحرب العالمية الأولى وفرساي

عندما أعلنت الامبراطورية العثمانية الحرب على بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٤ . وجه السلطان نداء دما فيه كافة المسلمين إلى الولاء له فى " الجهاد " أو الحرب المقدسة . وانزعج سياسة بريطانيا . لقد أحسوا أن نداءه قد يؤثر على المسلمين بدرجة كبيرة ويجعلهم يؤيدون الترك . ولن يقتصر هذا على المسلمين فى الشرق الأوسط وإنما سيتعداهم إلى الهند البريطانية نفسها . وفى نفس الوقت بعث الوطنيون العرب أفراداً لجلس نبض بريطانيا والتعرف على هدفها من الحرب . وحاولت بريطانيا بإدء

الأمر اغراء الزعماء العرب بالثورة على الحكم الاتراك ، عن طريق الوعود العامة اللفظية . غير أن العرب كانوا يشكون في البريطانيين لدرجة كبيرة ، ولذلك طالبوا بوعود ملموسة . ومن أجل هذا خولت الحكومة البريطانية للسير هنرى مكماهون - عام ١٩١٥ - بأن يتفاوض مع الزعيم العربي حسين ، ويصل معه إلى اتفاق مكتوب . وبمقتضى هذا الاتفاق يتعهد حسين بالدعوة إلى الثورة العربية على الاتراك ، بتأييد من الأموال والأسلحة والمستشارين البريطانيين . وفي مقابل هذا تعدد الحكومة البريطانية ( كتابة ، وبعد أن ينهزم الاتراك ) بالاعتراف بقيام دولة عربية مستقلة تشمل سورية بأكملها ( وكانت تحتضن آنذاك فلسطين والاردن ولبنان ) والعراق . وفي عام ١٩١٦ بدأت الثورة العربية بمشورة قلة من الضباط البريطانيين وتشجيعهم ، ومن بينهم « لورانس الجزيرة العربية » ، ومنذ ذلك الحين حارب ٢٥٠.٠٠٠ جندي عربي ضد الاتراك ، وعجلوا بانتصار النبي السالح في فلسطين وسورية .

وفي نفس الوقت ، كانت هناك اتفاقيات أخرى تعقد ، مدارها مستقبل العالم العربي . وكانت متناقضة ومتعارضة لدرجة خطيرة . ولقد صممت فرنسا على أن تكون لها منطقة نفوذ في شرق البحر المتوسط ، وعلى أن يكون لها نصيب من بترول الشرق الأوسط . وحرص الاستراتيجيون الاستعماريون في بريطانيا على تأمين قناة السويس ، والطريق البرى بين ساحل البحر الأبيض والخليج العربي ، وكذلك البترول وكان مجلس الوزراء البريطانى يتوقع أن تطالب الدول المنتصرة بأن يكون



لها رأى فى وضع فلسطين ، فهناك كنائس كثيرة مختلفة - تهتم بالاماكن المقدسة لها . ونتيجة لهذا وقع مبعوثون من بريطانيا وفرنسا على اتفاق سرى فى أوائل عام ١٩١٦ ، وبمقتضى هذا الاتفاق يتم تقسيم العالم العربى الشرقى ( خارج الجزيرة العربية ) إلى جزأين ، أى إلى مجالين للتنفيذ البريطانى والفرنسى ، ويخضع هذان المجالان - جزئيا - للسيادة العربية ، غير أنهما يرتبطان بالدول المسيطرة ارتباطا وثيقا . وتم الاتفاق على إخضاع فلسطين لإدارة دولية . وكانت هذه الوثيقة ، وهى المعروفة باتفاقية سايكس بيكو سرية للغاية ، غير أنها ظهرت للعيان عام ١٩١٧ عندما فتح البلاشفة ملفات وزارة الخارجية القيصريّة ونشروا الكثير عن محتوياتها .

وكان هناك عامل آخر يتصارع مع العوامل السابقة . اقد ظل الزعماء الصهيونيون يسعون ، لسنوات عدة ، من أجل الحصول على وطن فى فلسطين يأوى إليه يهود العالم التائهون المضطهدون وقبل الحرب العالمية الاولى بوقت طويل كسبوا تأكيذا كبيرا من جانب كثيرين من كبار ساسة بريطانيا ، وخلال الحرب استطاع الزعماء الصهيونيون أن يقنعوا وزراء بريطانيا بأن وجود مجتمع يهودى غنى فى فلسطين سيكون خيرا ضمان استراتيجى لبريطانيا بالنسبة لفناء السويس والطريق المفضى إلى الهند . وتأكد لدى مجلس الوزراء أنه سيشجع الامريكيين على المساهمة فى الحرب ، والمساهمة فى التمويل ، إذا هو وعد الصهيونية بشئ . وهكذا أعلن وعد بلفور فى نوفمبر عام ١٩١٧ . وجاء فيه : أن بريطانيا تتخذ قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين .

. ثم جاءت اتفاقيات الصلح ، وحل يوم الحساب الذى ظن الوطنيون الغرب أنه سيفضي بهم إلى باب الحرية . . وكان المصريون قد اضطروا إلى الاشتراك فى الحرب ، ودب فيهم الأمل وهم يستمعون إلى وعود الحلفاء زمن الحرب ، ووعود الرئيس ويلسون الخاصة بحق تقرير المصير . وكانت بريطانيا نفسها قد وعدت مصر بالاستقلال . وكانت هناك نفس الآمال فى الشرق العربى وكانت هذه الآمال ، كما رأينا ، تقوم على وعود أكثر وضوحا وفى كلا المنطقتين توقع الغرب - الذين اعتنقوا مبادئ الغرب فى الحرية والعزة الوطنية - توقعوا فى شيء من الثقة ، أن تطبق دول الغرب هذه المبادئ الآن . ورأى الوطنيون فى الأراضى المستعمرة والأراضى التابعة للتاج ، أن نهاية الحرب العالمية الأولى تعتبر فترة حافلة بالتفاؤل الكبير . وكان إيمانهم كبيرا بالحضارة التى أعجبوا بها أشد الإعجاب .

ولكن سرعان ما تبددت الأوهام . فبعد ثلاث سنوات من المظاهرات المستمرة والشغب ، والتوتر السياسى ، وافقت بريطانيا فى النهاية على إنهاء حمايتها على مصر . غير أنها لم تصل إلى اتفاق مع الوطنيين بشأن السودان التى طالبوا بها ، كما لم تصل إلى اتفاق بشأن القوات التى أصرت هى على الاحتفاظ بها فى مصر لحماية مواصلات الإمبراطورية ، (قناة السويس) وأصبحت مصر مملكة مستقلة ذات سيادة فى الظاهر ، غير أن بريطانيا احتفظت بقوات لها هناك ، وبقيت فى السودان ، وعارضت فى الطالب المقدم من مصر للانضمام إلى عصبة الأمم ، وسيطرت فى الواقع على شئونها الخارجية ، ورفضت إلغاء الحاكم الخاصة بالأجانب .

وتم فرض حكم الانتداب في الشرق العربي ، وكان من الواضح أن الوطنيين العرب يعارضون هذا . وأصبح العراق تحت الانتداب البريطاني وأسس المستر ونستون تشرشل امانة غربية التكوين في شرق الاردن ، شرق نهر الاردن ، وصارت تحت الانتداب البريطاني . وصارت سورية الداخلية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، كما خضعت فلسطين للانتداب البريطاني ووعدت بريطانيا بتحقيق وطن قومي لليهود . وقوبل هذا بمعارضة اجماعية من العرب . ولم تسلم من هذه التقسيمات المفروضة والسيطرة سوى شبه الجزيرة العربية . وباستثناء شبه الجزيرة خرج العالم العربي - من المحيط الاطلسي إلى الخليج العربي - خرج من الحرب العالمية الاولى وهو خاضع لسيطرة الدول الكبرى ، ولقد تم هذا كله بالقوة ، وأدى إلى ثورة في مراكش عام ١٩٢٤ ، وإلى عشرة أعوام من الضغط الايطالي في ليبيا . وإلى قلاقل مستمرة في مصر ظلت حتى عام ١٩٢٣ ، ومعارك عنيفة مستمرة في فلسطين بعد عام ١٩٢٠ ، وثورة بالعراق في عام ١٩٢٠ ، وتمرد في سورية ضد الفرنسيين في عام ١٩٢٠ و١٩٢٥ - وسمى العرب ذلك العام الذي وصلت فيه الدول إلى قراراتها النهائية بسان ريمو عام ١٩٢٠ بـ « علم الكارثة » .

ومنذ عام ١٩٢٠ إلى الآن ، امتلأ ذهن العرب بمبراة ملتهبة ازاء تقض الغرب للوعود والعهود المكتوبة التي بذلها خلال الحرب العالمية وبعد عام ١٩٢٠ ظلت هذه المرارة تشتد عاما بعد عام إلى أن ظهر في النهاية جيل جديد ، وشرع في تسيير دفة الامور .

## الفصل الرابع

### العرب في مرحلة الانتقال

١٩٢٢ - ١٩٥٢

تأكدت اتفاقيات الصلح في الشرق الأوسط ، واستمرت السيطرة  
الاسبانية والفرنسية والايطالية على المغرب العربي .. وبدأت مرحلة  
جديدة من مراحل اليقظة العربية . ويحق لنا ، ونحن ننظر إلى الوراء ،  
أن نعتبر فترة الثلاثين عاما التي تبدأ من ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢ فترة انتقال ،  
وخلال هذه الفترة تجمعت قوى جديدة حاسمة ذات حيوية كبرى ،  
واختفت وراء الزعامة العربية الموجودة .. ونستطيع أن نلص طابع  
الفترة الانتفالية عن طريق سياسة الدول الكبرى في المنطقة ، وطبيعة  
الحكم العربي والقيادة العربية خلال هذه الفترة ، والأفكار التي بدأت  
تضج في عقول الجيل الشاب

### المغرب العربي

في غرب مصر فرضت ثلاث دول سيطرتها المباشرة - على النمط  
الاستعماري - على مراكش والجزائر ، وتونس وليبيا .. ولقد ظهرت  
القومية الحديثة بمراكش وتونس متأخرة عن ظهورها في الشرق ، وقضت

معظم الفترة الانتقالية وهي تصوغ مثلها العليا بدلا من أن تلج بها بصورة فعالة ، وقد نستطيع أن نصف المقاومة الأولى ضد السيطرة الفرنسية على أنها تتمثل في عداوة المحاكم المحليين التقليدي لا للاحتلال الأجنبي لحسب ، وإنما لآى سلطان أو حاكم مطلق يخضع لمثل هؤلاء الأجانب .. ولكن ما إن حلت الثلاثينيات حتى صارت بوادر القومية الحديثة ظاهرة للعيان ، كان هناك ، شبان تخرجوا من المدارس الفرنسية وعرفوا المثل العليا التقليدية التي أوحى بها الغرب ، والتي تدور حول كيان الأمة ، والتقدم ، وكان هناك العائدون من مدارس الشرق العربي ( وبخاصة معاهد مصر وفلسطين الخاضعة للانتداب ) والذين ألهمتهم الحركة الوطنية ، التي لمسوها من حولهم . وهكذا حدث على سبيل المثال ، أن اجتمع تسعة شبان بالرباط عام ١٩٢٦ ، واستمعوا إلى محمد بنون وهو يصف المثل الوطنية العليا والتقدم الحديث الذى لمسه فى الشرق العربى ، ومن أعضاء هذه الطائفة أحمد بلفريج الذى تزعم حركة وطنية فى مراكش ، ثم أصبح بعد ذلك أول وزير خارجية لمراكش المستقلة ، وفى تونس انضم حبيب بورقيبة ، ذلك المحامى الذى ألهمه الغرب ، انضم إلى آخرين ليؤلفوا — فى عام ١٩٣٤ — حزباً وطنياً جديداً أشد تطرفاً ، وهو حزب «الاستور الجديد» ، ثم أصبح بعد ذلك أول رئيس لتونس المستقلة .

غير أن السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية قد اتسمت بإجراءات القمع والحبس فى المغرب ، أو بمطالب إصلاحية جد معتدلة ، وظل المغرب يستمد إلهامه من الشرق العربى ، مثال هذا أن أول حركة وطنية مراكشية تطالب

بالاستقلال التام عام ١٩٤٤ قد جاءت بعد أحداث لبنان الخاضع للانتداب  
الفرنسي . غير أن ركب القومية وظهور جيل جديد وما كان لظهوره من  
نتائج ، لم يؤثر التأثير الكبير إلا في الشرق العربي ، مما أدى إلى نتائج  
خطيرة في المحيط الدولي ، ولم تبرز القومية المغربية إلى السطح إلا بعد  
نهاية الفترة الانتقالية التي تحدث عنها ، وبحصول مراكش وتونس على  
استقلالهما بدأت هذه القومية تتخذ طابعا عربيا أكثر وضوحا ، وأكثر  
اتصالا بالشرق العربي .

## الشرق العربي

صاغت الدول الكبرى اتفاقيات السلام ، من مصر حتى البلاد  
الواقعة شرقا ، دون مراعاة آمال العرب ، وكانت المصالح الاستراتيجية  
والتجارية والثقافية هي التي تحددها وتتحكم فيها ، غير أن بريطانيا وفرنسا  
دفعتا الثمن غالبا لقاء هذه الامتيازات الزائفة ، ولم يكن وضعهما هناك  
وضع دول استعمارية كما هي الحال في المغرب . وتمضى الأعوام ويتضح  
أنهما لا يستطيعان بسط نفوذهما - بل نفوذهما غير المباشر - إلا بالضغط  
والقمع . لقد اعترفت بريطانيا باستقلال مصر ، غير أنها عجزت حتى عام  
١٩٣٦ عن التوفيق بين هذا الاعتراف ، ورغبتها الملحة في حماية مصالحها  
الخاصة بها هناك ( قناة السويس والسودان ) وفي الشرق العربي فرضت  
بريطانيا وفرنسا نفوذهما غير المباشر عن طريق الموافقة على نظام انتدابات  
العصبة الذي ابتكره الجنرال سمطس وأصر عليه الرئيس ولسن . غير أن

البلاد الواقعة تحت الانتداب تعد ، في نظر ميثاق العصبة والرأى العام العالمى ، وديعة مقدسة في عنق المدنية ، ، وكانت هناك مطالبة صريحة بالهوض بشعوب هذه البلاد فوراً ، تمهيداً لتحقيق سيادتها الكاملة غير المشروطة .

وكانت الدول القائمة بالانتداب تأمل في أن تؤدى وصاية بريطانيا وفرنسا إلى خلق زعماء عرب يحبون معلمهم . فإذا حصلت بلادهم على سيادتها وافق هؤلاء الزعماء عن طيب خاطر — على التحالف الوثيق الذى يحمى مصالح بريطانيا وفرنسا ، وكان هناك اختلاف طفيف بين آمال بريطانيا وآمال فرنسا ، فلقد شرع سياسة فرنسا في صيغ لبنان وسورية بالصيغة الفرنسية الحقيقية في التفكير ، أما البريطانيون فكانوا يأملون في كسب ود زعماء مصر، والسودان، وفلسطين، وشرق الاردن والعراق ، غير أنهم لم يصبغوا العرب بالصيغة الانجليزية، كما فعل الفرنسيون ولكن أحلام الدولتين تبخرت .

وكان من العسير إيجاد توفيق دائم بين هذا الرأى والوصاية التى تفرضها الدول القائمة بالانتداب أو الحماية للمقنعة في مصر . . غير أن بريطانيا وفرنسا حاولتا — إزاء التردد الوطنى المستمر — إيجاد مثل هذا التوفيق فكان أن أقنعتا المحافظين من الوطنيين ، في الثلاثينيات ، بالموافقة على استقلال مصر وسورية والعراق مقابل معاهدات تكفل للدولتين قواعد استراتيجية . ونجحت هذه السياسة لأن معظم الوطنيين أحسوا بأن هذه المعاهدات أقل إذلالاً من الوصاية ، ولأنهم كانوا يتوجسون خيفة من

قوة ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية التي أخذت تزايد باستمرار ، غير أن السنوات لم تكن كافية ، وقوبلت باستهجان كبير بين أوساط الجماهير وغيرها ، اللهم إلا أكثر الزعماء تحفظاً ، وكانت النتيجة أن فوجئت بريطانيا ، في الحرب العالمية الثانية ، برأى عام مصرى يتراوح بين حياد أو تعاطف مع المحور ، كما فوجئت بثورة صريحة في العراق . وخضعت سورية ولبنان لسيطرة حكومة فيشي الفرنسية إلى أن تم تحريرهما عام ١٩٤٣ . ثم حاولت حكومة ديمبول الحرة الحصول على مراكز استراتيجيّة طويلة الأجل ، ومراكز أخرى في الجمهوريتين وتوسلت إلى ذلك بشتى الطرق ، ومنها استخدام القوة ، وفي النهاية اضطرت فرنسا إلى الاستسلام أمام ضغط بريطانيا والأمم المتحدة . وفي عام ١٩٣٦ أصبحت سورية ولبنان أول بلدين عربيين في التاريخ الحديث يتحرران تماماً من السيطرة الأجنبية أو من وجود قوات غريبة . وخرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية وقد تحققت لها السيطرة ، غير أنها جوبهت بموجة هائلة من الآمال العربية ، وكانت تلك الآمال تستند في هذه المرة إلى ميثاق الأمم المتحدة والتزام الدول - الأدبي - أمام نصوص هذا الميثاق .

وكانت مصر مفتاحاً لعهد جديد . غير أن مفاوضات الحكومة العالمية مع مصر فشلت عام ١٩٤٦ ، وفي نفس السنة بدأت مشكلة فلسطين تسيطر على مسرح الشرق الأوسط بأكمله ، فقد تعالت الصيحات التي تطالب بهجرة اليهود إلى الأرض المقدسة نتيجة لكارثة يهود أوروبا في معسكرات الاعتقال ، وعدم ترحيب الدول الغربية بايوانهم . وبدأت



سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط تتدهور نتيجة لتردد المسؤولين بين الرغبة في التخفيف من الأعباء الملقاة على عاتقهم فيما وراء البحار ، ومسئوليتهم المحيرة في فلسطين ، وبين حاجتهم الاستراتيجية المستمرة إلى القواعد وتسهيلات المرور التي أثبتت ضرورتها في الحرب العالمية الثانية . ودخلت الولايات المتحدة على المسرح وجرت على نفسها توبيخ العرب لها بآدى الأمر لأنها أيدت اليهود في رغبتهم للهجرة إلى فلسطين ! ولم يمض وقت طويل حتى اتضحت أهمية الاحتياجات الاستراتيجية نتيجة لخوف الغرب من الاتحاد السوفيتي .

ومرة أخرى حاولت بريطانيا تسوية خلافاتها مع الدول العربية عن طريق عقد معاهدة خاصة .

وبمقتضى المعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق في أوائل عام ١٩٤٨ يحق للسلاح الجوي الملكي التابع لبريطانيا أن يتمتع بتسهيلات خاصة ، ويحق لبريطانيا الاستفادة من دفاع مشترك عن طريق استخدام قواعد متفق عليها هذه المرة . غير أن هذه المعاهدة أثارت من القلاقل ما أدى إلى إلغائها .

وبعد عامين حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا تأليف منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط ، ولم توافق أية حكومة عربية على هذا المشروع .

كان هناك في العالم العربي ، ووراء الستار شبح اتفاقية الصلح ، والمرارة المتزايدة من سياسة الغرب تجاه فلسطين .

## الزعامة العربية

وكانت هناك أيضاً ثورة داخلية . وإذا كان ساسة الغرب قد فشلوا في فهمهم للتيارات الجديدة ، فإنهم لم ينجحوا أيضاً في إدراك التيارات الخفية وراء السياسة العربية في الثلاثين عاماً الانتقالية . وكان لابد أن تبدأ فترة الوصاية في كل بلد بزعامة وطنية محافظة . ومصر خير مثال لهذا . ففي مصر ، بعد عام ١٩٢٢ ، كان للحكومات المتعاقبة نصيب كبير من السيطرة على الشؤون الداخلية . وكانت مصر تسير على النظام الملكي الدستوري .

وسيطر حزب الوفد الوطني الرمزي على مسرح السياسة . غير أن الملك أخذ يحرز لنفسه السلطان والمجد والثروة . واستعان ببريطانيا ضد البرلمان عندما رأى أن ذلك يخدمه ويخدم بريطانيا عندما بدا أن نفوذها يمثل الخطر الأكبر .

ووسط هذه القوى الثلاث قاد الوفد الأمة في ميدان القضايا الوطنية الرسمية - كإجلاء القوات البريطانية ، ووحدة وادي النيل في ظل دولة مصرية سودانية موحدة . غير أن الوفد كان يستمد قيادته من أسر عريقة تخضع أفكارها السياسية والاجتماعية لمذهب الأحرار العربي السائد في القرن التاسع عشر ، وكان هناك زعماء يؤمنون - بصفة عامة - بالاستقلال الوطني والتعليم العام إلى حد ما - وبالتنمية الاقتصادية

عن طريق الاستثمار الخاص . غير أنهم لم يؤمنوا ( ولم يكن بمقدورهم أن يؤمنوا ) بالإصلاح الاجتماعي الجوهري . وهكذا إذا سلمنا بأنهم توسعوا إلى حد هائل في الصناعة والتعليم ، إلا أنهم قاوموا كل رغبة في الإصلاح وفي إعادة توزيع الملكيات الزراعية .

وظهر نفس الإطار - إلى حد كبير - في البلدان الأخرى . وكانت القيادة الوطنية في يد المحافظين الذين يمثلون الأسر الموسرة ، وكبار الملاك ، وأصحاب الوظائف المحافظين ، والسادة التجار . وفي العراق ، حيث الملكية المطلقة ، كان طابع المحافظين هو الغالب إلى حد أن ملكية الأرض كانت من أبرز صور الإقطاع في العالم حتى قبل انتهاء الانتداب عام ١٩٣٢ ( أى عندما كان العراق خاضعاً للإشراف البريطاني ) . ولم يكن وضع الأرض في سورية ولبنان سيئاً لهذه الدرجة ، ومع ذلك كانت الحكومة في أيدي المحافظين ، وكانت الأحزاب ، تتألف في الواقع من أقطاب الملاك والتجار .

أما شرق الأردن فراح في سبات هادئ ، وكان عبارة عن محمية بريطانية صغيرة على حافة الصحراء ، يحميها عبدالله الأرسطراطي ، ومستشاروه البريطانيون من مدنيين وعسكريين .

ولقد جاء الجزء الأكبر من نزعته المحافظة نتيجة للوثرات الغريبة التي تعرض لها من قادوا الحركة الوطنية في أوائل القرن العشرين .

والواقع أنهم كانوا يعبرون عن مفاهيم للجمعية سادت الغرب في القرن التاسع عشر . فسلطان الدولة في المسائل الاجتماعية والاقتصادية

يجب أن يكون محدوداً . . بل ويجب - من الوجهة المثالية - أن يتلاشى لتحل محله الدولة المثالية « اليوتوبيا » ، ولكن كان هناك عامل آخر قوى من عوامل الرجعية ، هذا العامل جاء نتيجة مباشرة لوجود سيطرة أجنبية . . فعندما تحكم إحدى الدول في ظل الوصاية ، أو تفرض سلطانها عن طريق الاحتلال العسكري ، فلا بد من أن تطفو إلى السطح نزعة محلية محافظة ، وطموح شخصي ، وانتهازية . وتؤيد الدول المسيطرة بطبيعة الحال هؤلاء المعتدلين ، الذين أبدوا استعدادهم للرضوخ لوضعها الخاص ، والذين أبدوا استعدادهم أيضاً لقمع العناصر المتطرفة ، ولابد من أن يدخل في قائمة هؤلاء المتطرفين أناس يطالبون بثورة اجتماعية في الداخل إلى جانب مطالبهم بالتححر من السيطرة الأجنبية . فإذا كان هناك ، إلى جانب هذا كله ، ملك يحرص على سلطانه وامتيازاته ، ويخشى أن يعتدى أحد على حافظة نفوذه الملكية ، أصبح لدينا عامل آخر يقف في وجه الثورة الاجتماعية والتقدم .

إن هذا الظهور الداخلي للقيادة المحافظة الانتهازية الفاسدة يبرز وسط التطور الذي تعرض له الشرق الأوسط أكثر مما يبرز في مستعمرات خاضعة تماماً للمستعمر . ذلك لأن غموض الانتداب والوصاية والعلاقات التعاهدية هو الذي يؤدي إلى ظهور ذلك النوع من القيادة . ولم يكن من المعقول أن تفكر وزارة المستعمرات في السماح بذلك الإقطاع الذي أقتره الحكومة البريطانية المتعاقبة بالعراق في ظل ولي العهد عبد الإله ونورى السعيد .

## الجيل الشاب

وبمرور الأعوام اشتدت سيطرة التحفظ والفساد على حياة العرب السياسية. وتمرور الأعوام التصق هذا الطابع بوجود بريطانيا وفرنسا. ثم التصق ببريطانيا وحدها .

ولكن بمرور السنين أيضاً كان الشباب ( وبعض النسوة ) يتنقلون بين سنى الدراسة فى المدرسة والجامعة ، ويتعرفون على الآراء السياسية والاجتماعية الجمهورية التى سادت الغرب فى القرن العشرين ، كان الآلاف يتلقون علومهم فى جامعات مصر وسورية ولبنان وكلية بغداد الصغيرة وفى جامعات الغرب نفسه أيضاً .

ولم يكف هذا الجيل الجديد بالتمرد على الأشكال التقليدية للسيادة والاستقلال الوطنى . وإنما أخذ يتشرب ، بصورة مستمرة ، بروح الإصلاح الاجتماعى فى الغرب - وبالمبدأ القائل بأن الديمقراطية لا تعنى الحرية السياسية التقليدية وحدها ، وإنما تعنى أيضاً توزيع الدخل وتحقيق الرفاهية الاجتماعية . ولن يتعذر علينا أن نلمس النتائج إذا نحن تذكرنا أن أفكارا هائلة كانت تطالب بالتطور الاجتماعى وتحرك العالم الغربى فى الفترة بين عام ١٩٢٢ - ١٩٥٢ ، إذا نحن تصورنا شباب العالم العربى وهو يتعرف على هذه الآراء ثم ينظر إلى حال مجتمعه .

لقد تسرب إلى الأجيال العربية الجديدة خبر ظهور النقابات العمالية القوية في أمريكا ، والاضراب العام ، والكساد الكبير ومشروع روزفلت ، وذلك التيار الجارف للثورة الاجتماعية الذي اجتاحت بريطانيا نتيجة للكساد والحرب العالمية الثانية ، وكذلك تقرير بيغردج ، والنهضة التكنولوجية التي كان الغرب خير نموذج لها .

ونظر الشباب في حال الفكرة الغالبة من المزارعين ، ولمس الفقر والجهل ، وعدم كفاءة الحكومة وفسادها . وضعف البرلمانات التي تخضع - على ما يبدو - لاهواء القصر والسفارة الأجنبية والقيادة المحافظة . وبمرور الأيام ازداد إيمانهم بأن العالم العربي في حاجة ماسة إلى ثورتين ، ثورة على الاستعمار ، وثورة على ما أسموه بالاقطاع داخل مجتمعهم . لقد بالغوا ، ولكن لأسباب مشروعة ، حين اعتبروا الشر الأول مكسلا للشر الآخر ، وحين رأوا أن كل واحد منهما يقتات من الآخر . وبمرور السنين ازداد إيمانهم بأن الذين يكبرونهم من المحافظين الذين يشغلون المناصب لا يستطيعون إلحاق الهزيمة بالاستعمار ، وكانوا يرضخون لهذا عن طواعية أحيانا ، لأنهم يريدون حماية مصالحهم الطبقية ، وأحيانا كانوا يرضخون على مضض لا لشيء إلا لأنهم ضعفاء . ورأى الجيل الجديد أن هذا الوضع لا يعدو أن يكون حلقة مفرغة . فكيف يمكن علاجها ؟

لعب البعض مع طوائف شيوعية صغيرة . واهتم آخرون - وقد كانوا كثيرين - بالاخوان المسلمين ، وهي جماعة تنادى بشورة في الاسلام وقد ازدادت عنفاً طيلة الأربعينيات . بيد أن الغالبية العظمى تشبثت

- في يأس - بطريق وسط غير متكامل ووقفت رقب وتنتظر. وأخذوا  
يؤلفون الأحزاب ، غير أن هذه الأحزاب فشلت جميعاً في دخول  
البرلمانات ، فإذا كانوا طلاباً وتظاهروا وعقدوا اجتماعات للاحتجاج ،  
فإن بزاءهم الطبيعي هو التعرض لعقاب البوليس : الطرد أو السجن .  
فكيف إذن يتسنى لهذا الجيل الشاب أن يقوم بثورته؟ ومضت الأعوام  
وازداد هذا السؤال وهم يرون السلطة والقيادة في المجتمع لم تتغير التغير  
الجوهري الذي ظلوا يتمنونه طويلاً .

## الضباط الأحرار

كان الكثيرون من شباب « الطبقة الوسطى » المتعلبة يهتمون بالجيش  
ويرون هذا الاهتمام أمراً طبيعياً . وبهنا أن نفسر هذه الظاهرة حتى  
لا نخلط بينها وبين الوضع في الغرب . إن وراء سلاح الضباط في الغرب  
تقاليد طويلة نobile . وهي مستمدة من العهد الأرستقراطي حيث كان  
الآباء ذوو المناصب والمراكز يشترطون الرتب لأبنائهم ، ولم يفكر أحد  
طيلة ما تقي عام في حق الضباط البريطانيين في التدخل في السياسة . الضباط  
لا يردون ، ولا يتساملون ، وإنما يعملون ، ثم يموتون ، . غير أن تاريخ  
الجيش الحديثة ، في العالم العربي ، يتنافى مع هذه الروح . فلقد كانت  
الجيش أول من سرت إليها حماسة الرغبة في التقدم . ورأى الضباط أن  
الجيش رمز للبحث في مجتمع حر يحقق له البعث . وانخرط الشباب في  
سلك الضباط لأن الجيش وسيلة مشرفة يحاولون عن طريقها تحقيق هذه  
الرسالة ورأوا في الجيش رمز الوطنية الحق . وفي ظل النفوذ البريطاني

والقرنلى كانت هناك، دون شك ، دعوة إلى وقوف جيش الدولة جانباً غير أن النتيجة جاءت بخلاف هذا : يجب أن يقف الجيش لا لشيء إلا لكي يخدم الشعب - يخدم الكثرة الغالبة من الشعب التى ينحدر منها الجندى المادى ، والتي لا يفصل الضابط الصغير عنها سوى درجات طفيفة فى الدخلى والتعليم .

وهكذا ازداد سخط الشباب من ضباط الأجيال الجديدة ، ازداد سخطهم على الأوضاع الخارجية والداخلية التى ضاقت بها اخوانهم المدينون . غير أن الضباط أحسوا بالاذلال أكثر مما أحس به المدينون . فى معظم فترة الثلاثين عاما التى تتناولها هنا خضعوا لقيادة البريطانية أو الفرنسية المباشرة ، أو تعرضوا لبراهين مستمرة غير مباشرة تثبت لهم أن جيشهم ليس جيشاً حراً لامة حرة - لقد أحسوا أنهم خدام دولة يتجاهل زعماءها حال الجماهير . والواقع أن هؤلاء الضباط الشبان كانوا يضطرون أحياناً إلى سحق المظاهرات التى يقوم بها اخوانهم احتجاجاً على الشرور التى ناروا هم عليها . وأخذوا يراقبون البرلمانات ، فيزداد يأسهم كما ازداد يأس الشباب المدينى ، غير أنهم ازدادوا إيماناً بأن قواتهم هى القوة الوحيدة غير المتحيزة . فى هذا البلد ، فهى تمثل الشعب ، وتهدف إلى خدمته . وآمنوا بأن الشعب وحده هو الذى يملك القوة اللازمة وأن الجيش وحده هو الذى يتمتع بالوحدة ، وأن الجيش وحده هو الذى لم يلوثة الطموح والفساد والنزاع الطبقي .



وهكذا ظهر من بين صفوف صغار الضباط في مصر وسورية والأردن والعراق مجموعة ضئيلة من رجال ذوى بسالة، رجال صاغوا أنفسهم أو أطلقوا على أنفسهم تسمية « الضباط الشباب » أو جماعة ضباط الأحرار . ولم يكن لهذه الظاهرة مثيل في مجتمع الغرب الحديث . وكانت النتيجة أنه حين ظهر هؤلاء الضباط في عناوين الصحف ، خطرت بذهن الغرب صور « العسكرية » كما يفهمها الأوروبيون ، وخطرت بذهنه مفهوم « الدكتاتورية العسكرية » . . . بل انقلابات الجيش المتكررة في أمريكا اللاتينية .

## قومية جديدة

فلنتوقف لحظة لنوجز ذكر الآراء التي تعرضنا لها ، والتي اعتنقها الجيل الشاب القلق الطموح ، في هذه الفترة الانتقالية .. لقد رأيت كيف أن « قومية » هذا الجيل كانت مزدوجة ، فهي لاتسعى إلى إنهاء النفوذ الأجنبي المجحف لحسب ، وإنما تسعى أيضاً وراء الإصلاح الاجتماعي الداخلي لتتقف به ضد شيوخ الجيل المحافظين الذين يمسكون بزمام السلطة. إن هذا الطابع الثنائي لتلك الحركة الصاعدة على جانب كبير من الأهمية ذلك لأن « القومية » - في بريطانيا والبلدان الغربية العريقة - ذات طابع سياسي خارجي تماماً. غير أننا رأينا كيف أن قومية العالم العربي، في الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٥٢ أخذت تتسم بطابع اجتماعي أيضاً - ولاحقاً في الأفق صورة « ثورتين ثومان معا »

وشهدت هذه الفترة أيضاً تطوراً سريعاً في وسائل المواصلات الجديدة داخل العالم العربي ، وكان هناك أيضاً توسع في التعليم التقليدي . وتضاعفت الصحف والمجلات ، والكتب والنشرات . والاذاعات والأفلام وظهر هذا كله باللغة العربية، وكان التضاعف في السكك الحديدية والنقل معاً ، وحدث نفس التطور في ميدان الطرق والسكك الحديدية ، والنقل بالأتوبيس ، والملاحة البحرية والجوية في داخل الأقاليم . وازداد اتصال الشعوب التي تحدث بالعربية في البلدان المختلفة . وكان الاتصال مادياً وذهنياً . وأخذوا يحسون ، بفضل مئات من الوسائل المختلفة أنهم يشتركون في أشياء كثيرة في اللغة ، وما تحمله اللغة من تراث ، وفي الإسلام تلك الديانة السائدة وفي العدد المشترك الممثل في الدول الكبرى ، وفي وجود زعماء ضعفاء رجعيين ، وفي وجود فقر ومرض وتأخر . وشيئاً فشيئاً انتشرت في المنطقة فكرة « العربية » ، كانت فكرة تفقر إلى اليقين ، وإلى تعريف فلسفي ، غير أنها كانت تهز كل شخص يتكلم العربية .

ولم تكن هذه المشاعر وفقاً على الأقلية المتعلمة . فلقد فشا هذا الوعي « بالعربية » ، حتى بين الذين لم يتعلموا ، وذلك نتيجة ان ظهور المذيع ، والأفلام العربية ، والرحلات الشمسية المحدودة التي قد تتمثل في الانتقال من حدود إلى حدود ( كالسفر من سورية إلى شرق الأردن على سبيل المثال ) . غير أن هذه المشاعر كانت قوية بصفة خاصة لدى الذين يستطيعون الاستفادة من كافة وسائل الاتصال الجديدة ، والذين استطاعوا أن يدرسوا تاريخ العالم العربي بشيء من التفصيل ، والذين تأثروا —

باستمرار - بفكرة الوحدة القومية الموجودة عند الغرب. وسواء ذهبوا إلى كليات الغرب ولسوا ثمرة الفكرة في كل مكان حولهم ، أو اكتفوا بدراسة تاريخ الغرب من بعيد ، فإن التأثير كان واحداً . وتمضى الأعوام ويستمر التساؤل في ذهن الشباب العربي .. ما هي أمتهم ؟ وتمضى الأعوام ويزدادون اقتراباً من الفكرة القائلة بأن أمتهم قد تحتضن كافة الشعوب التي تتكلم العربية، بصرف النظر عن المكان الذي تعيش فيه . وانتهجت الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب أسلوب العرب الديني في نظرتهم إلى المجتمع : ذلك أن سيمهم وزاء الشخصية القومية لم يكن يعتمد في المحل الأول على روابط دينية .

وعندما درسوا التاريخ الحديث للعالم العربي ، رأوا أن معظم الأراضي التي يعيشون داخلها هي أراض أجنبية ، لقد كانت من صنع الاستعماريين ، ومع ذلك ، كانت هناك مصالح وامتيازات قوية داخل هذه الأراضي - هناك قدامى الساسة الوطنيون الذين يستمدون مركزهم من وجود جمهورية سورية أو مملكة عراقية ، وتجار يحجم دخلهم من القيود الجركية وغيرها من الحواجز المفروضة بين بلدان الشرق العربي. وعندما التفت هذا الشباب العربي المتعلم إلى العلاقات القائمة بين الدول العربية الموجودة ، لم يجد إلا التنافس والمؤامرات . كان عاهل العربية السعودية يتشاجر مع الأسرة الهاشمية الموجودة بشرق الأردن والعراق ، وكان فاروق يقوم بمناورات بين الطرفين ، أما عبد الله ولي عهد العراق فكان يأمل في توحيد الهلال الخصيب ، في ظل إنتاج العراق ، وكان عبد الله ملك شرق الأردن يلتهب شوقاً إلى سورية .

وخلال الحرب العالمية الثانية سجلت بريطانيا موافقتها على الفكرة المنادية بمزيد من الوحدة العربية. ولكن ما أن مرت السنوات التي أعقبت الحرب دون أى تغير فى وضع بريطانيا الخاص داخل معظم الدول العربية، حتى استنجد الشباب العربى أن بريطانيا لا تهتم بالوحدة العربية إلا إذا كانت هذه الوحدة تخدم مصالحها. وعندما آمن الشباب العربى بأن عدم الوحدة قد أضعف العرب مراراً وتكراراً. وجعلهم فريسة للضغط الاجنبى، عندما حدث هذا دخل عنصر جديد فى نظرهم إلى الحلقة المفرغة. لم يكن الرجال الذين يحكمونهم مهتمين بوحدة عربية وثيقة، اللهم إلا إذا استطاع أحدهم أن يسيطر على الباقين. وكان لبريطانيا مصلحة فى السيطرة على الاتجاه أو تعديله فى ميدان مشاكل العرب الداخلية وكما استفاد الحكام الموجودون من بريطانيا واستفادت منهم، كان فى مقدور أحدهم أن يلجأ إليها على انفراد ويطلب منها مساعدته فى معارك التنافسية. ولهذا التعادل أساس من الصحة وهو فى نفس الوقت مبالغ فيه غير أنه أدى إلى نتيجة هامة.

لقد أصبحت « القومية » تتضمن أيضاً وحدة عربية حقيقية — وصارت لها أحلامها الثلاثة: الاستقلال. الإصلاح الاجتماعى. الوحدة. وتطلع الشباب العربى إلى اليوم الذى يتم فيه تنسيق القيادة. والروح. والطاقات الشعبية. والموارد الاقتصادية. والقوة العسكرية فى المنطقة بأكملها. وأينما تطلعوا بعيونهم إلى خارج المنطقة، بدا هذا درساً هاماً من دروس التاريخ.

لقد صاغت أمريكا لنفسها أمة موحدة خلقتها من الولايات المنفصلة التي كانت عبارة عن مستعمرات في الماضي . وكانت هذه الأمة تتألف من شعوب لا يتكلم لغة واحدة . وليس ورلما تراث موحد ونهضت ألمانيا من فوضى الإمارات الضعيفة لتصبح دولة مؤلفة من أمة واحدة دولة تؤمن بمقيدة « الفولك » ، أى الشعب . كذلك فعلت إيطاليا . وإذا كان الشباب العرب قد تطلع إلى آسيا بعد عام ١٩٤٧ فقد رأى جمهورية هندية موحدة تخرج من شبه قارة تضم أكثر من خمسمائة دولة منفصلة — وأقاليم بها أناس لا يتكلمون لغة واحدة .

وفي أقصى الشرق رأوا جمهورية أندونيسيا وهي تحاول جاهدة تحقيق « الوحدة » عن طريق التنوع والاختلاف ، وهي التي تتألف من ثلاثة آلاف جزيرة ولا يتكلم أهلها لغة واحدة .

ولم يكن الدرس بأقل وضوحاً في المسائل الاقتصادية ، فالذى يدرس العالم العربى بعد عام ١٩٢٢ لا يستطيع أن ينكر ذلك المبدأ الذى أخذ فى الظهور ، والذى ينادى باستخدام الموارد داخل المنطقة الاقتصادية بطريقة منطقية .

وخلال الحرب العالمية الثانية نظم الحلفاء منطقة الشرق الأوسط . بأكملها باعتبارها منطقة واحدة ، وذلك لكي يضمنوا وصول الموارد اللازمة لكافة السكان المدنيين . وكان هذا الاجراء بمثابة سابقة هامة .

وأخيراً ، يجدر بنا أن نلتفت إلى فكرة حيوية أخرى كانت تسيطر على ذهن الشباب ، لقد ظلت المنطقة العربية — لاكثر من قرن —

حسراً للقتال والمعارك الدبلوماسية للدول الكبرى . كانت هناك فرنسا أولاً ، ثم بريطانيا ، ثم روسيا ، ثم ألمانيا القيصرية ، وإيطاليا .. والحرب العالمية الأولى ، ثم التنافس بين إنجلترا وفرنسا في اتفاقيات الصلح . وتنافس دول الغرب والنازي واستخدامهم لأساليب سياسة القوة .. والآن ، وبعد الحرب العالمية الثانية يدور السجال بين الغرب والاتحاد السوفيتي .

ورأى الشباب العربي أن هذا التورط المستمر مع الدول الكبرى لا يحقق شيئاً سوى الكوارث المستمرة التي تحمل بشعب متأخر تقع على عاتقه مهمة جسيمة ، ألا وهي بناء مجتمع جديد ، لا يكتفي طرد بريطانيا وإبعادها عن مركز السيطرة ، وإنما يجب تحرير العالم العربي وعزله عن الاشتباكات التي تدور بين كافة الدول الكبرى . لقد حركت نفس الفكرة أمريكا الفتية ، وكانت تحرك آنذاك الهند الفتية ، وكان هذا « الحياء » من أعقد المسائل التي كان العرب في حاجة إلى محاولة فهمها - لا بالنسبة للعالم العربي وحده ، وإنما بالنسبة لمنطقة افريقية وآسيا بأكملها .

واعتقد الكثيرون في الغرب أن من العار أن يبدى كائن بشري حفاكر رغبته في « الابتعاد » عن معارك البشرية الكبرى - سواء أكانت معركة الحرب العالمية الثانية ضد الفاشية والتوسع الياباني العسكري أو الحرب الباردة ضد الشيوعية . ومع ذلك كان هذا « الابتعاد » هاما جدا بالنسبة للعرب ، لم يكن ابتعاداً أيديولوجياً ، وإنما كان عبارة عن

تجنب للتورط الاستراتيجي زمن السلم ، وقد يعطينا بيت العنكبوت صورة مفيدة تبرز لنا هذه النظرة . فالحرب يرون أن المنطقة التي تقع في الشمال مغطاة بأكملها بخيوط عنكبوت هائلة ، مثلة في التحالف والتنافس بين الدول الكبرى . فإذا جذبنا أحد أركان البيت إلى الخارج فإن الخيوط كلها تنجذب مع هذا الركن .

وهكذا رأى العرب أن تحالفاً واحداً يعقد مع بريطانيا مثلاً في ركن من أركان المنطقة العربية معناه جذب ركن من بيت العنكبوت وتحويله ناحية العالم العربي . ولا صعوبة حينئذ في أن يمتد البيت بأكمله جنوباً ويغطي المنطقة العربية بأكملها .

وهكذا ساد الشعور بالحاجة إلى حياد موحد .. لاني بلد واحد فقط وإنما في المنطقة كلها ، تلك المنطقة التي ستصاغ فيها الوحدة العربية ، ولن ينجو العرب — كشعب — من الضغط الذي تفرضه سياسة القوة طالما كان لدولة كبرى سلطان في جزء من عالمهم .

وهكذا فصل إلى صورة كاملة للبلاد الأربع الكبرى التي ميزت العروبة الفتية — تلك القومية العربية التي سنسمع عنها الكثير في الخمسينيات عندما تظهر هذه الأجيال الشابة على المسرح السياسي .

هذه الأهداف الأربع المماسكة هي: الاستقلال، الإصلاح الاجتماعي الوحدة العربية ، الحياد .

## أثر فلسطين

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ازدادت هذه الآراء تدعياً وأعقب ذلك سلسلة من الأحداث التي جعلت هذه الأفكار محفورة على الدوام في ذهن القتيان العرب ، لقد حفرها اليقين اليأس وما أحسد العرب من اذلال كبير فالمصير الذي تعرض له عرب فلسطين وجد اهتماماً طويلاً من جانب العرب الذين يعيشون في مناطق أخرى، وعندما ثار عرب فلسطين على هجرة اليهود في عام ١٩٣٦ سادت المنطقة بأكلها اضطرابات وتعاطف ومظاهرات احتجاج، وقرارات رسمية، ومناشدات. غير أن هذا الاهتمام وصل إلى أبعاده الضخمة عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ فلقد بدا أن العرب مصمم على أن يفرض على المنطقة التي يعتبرها العرب جزءاً من وطنهم ، مجتمعاً جديداً ومعادياً ، مجتمعاً يطالب زعماءه بكيان دولة .

وفي التاسع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٧ ، وبعد احتجاجات وتحذيرات عنيفة من كافة السلطات العربية داخل فلسطين وخارجها ، صوت ثلثا أعضاء الجمعية بالأمم المتحدة على قرار يوصون فيه بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية ، وسرعان ما انفجرت أحداث العنف داخل فلسطين ، واجتمع أعضاء جامعة الدول العربية وقرروا معارضة أية دولة يهودية ، والاتجاه إلى القوة عند الضرورة .

وفي مارس عام ١٩٤٨ كان القتال بين العرب واليهود في فلسطين



قد بلغ من الشدة ما جعل الولايات المتحدة تعلن بحث فكرة التقسيم وتقرّح بدلا منها . قيام الأمم المتحدة بأمر الوصاية ، ووافقت الجامعة العربية ، غير أنها قالت أنها تعطى بذلك فسحة من الوقت للأمم المتحدة لكي تلي مطلب العرب في قيام دولة واحدة تقدم ضمانات للأقلية اليهودية ورفضت الوكالة اليهودية .

وفي ١٥ مارس عام ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني وتم إعلان قيام دولة إسرائيل من جانب واحد ، وبعثت الدول العربية بجيوشها التي مزمت وحصل اليهود على أكثر من المقرر الذي حدده مشروع التقسيم الميث في الأمم المتحدة، وكانت هذه الزيادة بنسبة ٣٥ ٪ ، ولم يكن هناك تنسيق يذكر بين الجيوش العربية المختلفة .

وكانت الروح المعنوية منخفضة بين صفوف القوات ، وكان عتادهم هزيبا بل فاسداً في حالات كثيرة وذلك نتيجة للفساد المستشري داخل أوطانهم ( كانت القنابل تنفجر في وجوه الجنود، وكانت الذخيرة فاسدة ) وانهى القتال في يوليو عام ١٩٤٩ بعد أن نظمت الأمم المتحدة اتفاقيات الهدنة بين كل دولة عربية ودولة إسرائيل الجديدة .

وفي موجة القتال شرد أكثر من ٦٥٠.٠٠٠ مواطن فلسطيني — وعسكروا في الكهوف والأكواخ والخيام المنتشرة ورفضت إسرائيل السماح لهم بالعودة إلى منازلهم واستئناف أعمالهم والحصول على ممتلكاتهم وعملت رفضها بأسباب اقتصادية وأسباب تتصل بالآمن .

ويمكننا أن نلخص رد الفعل للهزيمة على النحو التالي : الاستقلال .. إن

بريطانيا هي التي أذاعت وعد بلفور عام ١٩١٧، وبريطانيا هي التي كانت تسيطر على فلسطين وترفض السماح للعرب بحق تقرير مصيرهم بينما استمرت هجرة اليهود حتى عام ١٩٤٨، واكتشف العرب في النهاية أن بريطانيا هي التي «نفضت يديها» ببساطة وتركزت المشكلة . الاصلاح الاجتماعي.. لقد أثبتت عهود الاجيال القديمة المحافظة أنها عهود بلغت من الضعف والفساد ما جعلها عاجزة حتى عن محاربة الأعداء . الوحدة العربية . . . لقد كشف تاريخ فلسطين كله ، والهزيمة المخزية في الحرب ، كشفا عن التنافس بين هؤلاء الزعماء ، وعن ضعف الأمة العربية التي لا تستطيع جيوشها أن تحارب متكاثفة . الحياذ .. ليست بريطانيا وحدها هي التي سعت إلى فرض إسرائيل على فلسطين وإنما كانت هناك الدول الكبرى أيضاً ، ولقد أيدت الولايات المتحدة — بشدة — مطلب الصهيونيين . وبالرغم من اعتراف وفدها بعيب مشروع الأمم المتحدة ، فإنها اعترفت بدولة إسرائيل بعد قيامها بساعات، كذلك فعل الاتحاد السوفيتي . والواقع أن إسرائيل أصبحت مكاناً آخر انجذب إليه أحد أركان بيت العنكبوت بيت الدول الكبرى، وبذلك دخل هذا الركن المنطقة العربية .

هذه هي الاستنتاجات العامة التي ظهرت بعد أن اتضح معنى الأحداث . وفي صفوف الجيش نبذ الضباط الشبان كل تردد سابق، وكان رد فعلهم أكبر رد مباشر، وفي مارس عام ١٩٤٩ ، وحتى قبل عقد اتفاقيات الهدنة كان هناك انقلاب عسكري بسورية ، غير أن رد الفعل هذا أثبت فشله ودخلت سورية مرحلة طويلة من مراحل عدم الاستقرار الزمن .

وظلت الأجيال العربية الشابة تنتظر زهاء ثلاثة أعوام أخرى ، واستمر الشكل القديم للحكومة المنهارة ، عمليات القمع الاوتوقراطية ، التنافس بين دول الجامعة العربية ، والضغط الاجنبي ( من أجل عقد أحلاف للخوض في الحرب الباردة ) وأقبل شهر يوليو من عام ١٩٥٢ وتناقلت الأنباء خبر قيام ثورة في مصر ، وخلع فاروق ، وألغيت الألقاب القديمة ، وكان هناك وعد بإجراء اصلاحات اجتماعية، ونستطيع أن نقول عن هذا الحادث إنه من أخطر الحوادث في تاريخ العرب في القرن العشرين . . كانت مصر أضخم بلد في الشرق الاوسط ، وأكثره تقدماً في التعليم والصناعة ، وتحولت عيون المنطقة كلها إلى القاهرة ، لتتفحص الزعامة الجديدة .



## الفصل الخامس

### خرافاتنا عن العالم العربي

وصلنا الآن ، في قصتنا هذه ، إلى حد فاصل ضخم في العلاقات بين الغرب والعرب ، ويجدر بنا أن نتوقف عن تتبع الأحداث نفسها لنستعرض الانطباعات التي تجمعت لدى الغرب عن « العرب » وهي الانطباعات التي أثرت - خلال السنوات التالية الحاسمة - على سياسة الغرب بأكملها تجاه العالم العربي . ونشير بصفة خاصة إلى أن ظهور قومية - أكثر شمولا - بين صفوف الجيل الجديد ، وبخاصة بعد حرب فلسطين ، قد أثار السؤال التالي : كيف تتصرف الدول الغربية ؟ إن الدبلوماسية الغربية في حاجة إلى صفتين : القدرة على تفهم أذهان هذه الأجيال الجديدة ومشاعرها والقدرة على إعادة النظر في مصالح الغرب في منطقة الشرق الأوسط ، والنظر فيها إذا كانت القومية العربية الجديدة تعرض هذه المصالح للخطر غير أننا إذا تطلعنا إلى الوراثة ونحن في عام ١٩٦٠ اتضح لنا أن سياسة الغرب فشلوا في الناجيتين .

وستعرض للأسباب بالتفصيل في فصول تالية ، ولكن ، لن يضيرنا أن نشير إليها هنا . أولا : لقد ظلت دوائر الغرب الرسمية على طريقتها القديمة في النظر إلى الشرق الأوسط على ضوء الجيوش ، والقواعد العسكرية

وفي نفس الوقت لم يخفف العرب من شكهم وعدائهم العميق لهذه النظرة الغريبة : لقد سادت الحرب لفترة طويلة جداً ، بدلا من أن تسود المساواة والثقة المتبادلة . ثانياً : ظهرت الحاجة إلى حماية الدولة اليهودية نتيجة لقرار الغرب بالسماح بقيامها في فلسطين - وظل هذا الوضع يعرقل أية فرصة ممكنة لحدوث اتفاق بين الغرب والعرب . ثالثاً : تضخمت نظرة الغرب الاستراتيجية نتيجة لازدياد حدة الحرب الباردة مع الكتلة السوفيتية ، وكانت النتيجة جهوداً مستمرة لعقد أحلاف جديدة مع الحكام العرب - نفس الحكام الذين لا تثق الأجيال العربية الجديدة بسياستهم في الداخل .. ولكن وراء كل عامل من هذه العوامل التي حالت دون ظهور نظرة غربية جديدة ، وكان هناك عامل آخر ، أشد وطأة ، عامل لا يؤثر على السياسة وحدهم ، وإنما يؤثر على الرأي العام في الغرب كان هناك ضباب من الخوف والمعلومات الخاطئة عن العرب ، وامتد هذا الضباب بين الدول الغربية والأجيال العربية الجديدة . في أعماق ميراث الغرب الحضارى كله كانت هناك مجموعة من الصور من المنطقة وشعبها ، وعزز هذه المجموعة طابع الاتصالات الجديدة بين الغرب والعرب في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولم تكن هذه الصور دقيقة صادقة بأية حال من الأحوال .

كان العالم الغربي ينظر إلى العرب ، والإسلام نظرة معادية للدرجة كبيرة ، واستمر هذا لاكثر من ١٢٠٠ عام ، وكان إدراكه لها أطول وأعتمق من إدراكه لأي منطقة أو حضارة أخرى في العالم . ولقد

ظهرت منشآت مسيحية غربية في العصور الوسطى في نفس الوقت الذي واجه فيه أسلافنا نمو امبراطورية العرب الاسلامية ، وكانت أعظم قصائد أوروبا عن الفروسية تتناول المعركة المسيحية ضد الخطر العسكري للعرب . « المسلمين » ، وضد هرطقهم الدينية ، وظل أطفال المدارس في الغرب يطالعون لقرون عدة *Chanson de Roland* « أغنية رولان » ، من أن أعداء رولان هم أتباع محمد المتوحشون ذوو الأسلحة الذهبية ، بالرغم من أن أعداءه الحقيقيين في رونسفال كانوا لصوصاً يرتدون شارات مسيحية . واستمر هذا الموضوع الدائر حول الخطر والتهديد الديني ، بارزا في أساطير الحروب الصليبية ..

وفي ثقافة الغرب نجد أن مفاهيم الشجاعة والوطنية والشرف والاحساس بالرسالة ، تستمد وجودها من هذا الموقف المعادي للعرب والاسلام .

وحتى بعد أفول نجم هؤلاء العرب بعد أن هزمهم الاتراك العثمانيون ظل هؤلاء الغزاة يكملون الصورة المعادية ، لانهم كانوا مسلمين ، وهددوا قلب أوروبا نفسه وأقاموا مذابح شنيعة حتى في سبعينيات القرن التاسع عشر . ونستطيع أن نحدد الصورة التي كانت لدى الغرب - والتي ما زالت مترسبة في لاعتورهم - على النحو التالي : أن العرب بربريون ، وهم أعداء المسيحية لانهم ينادون بالهرطقة لحسب ، وانما لانهم يقتلون كافة المسيحيين ( بالرغم من أننا رأينا كيف أن امبراطورية الغرب الاولى كانت قائمة على التسامح ) ، وهم أعداء أوروبا الالاء بسبب هذا كله ولانهم

دخلوا بجيوشهم ذات مرة إلى قلب فرنسا نفسها ، واتجهوا بعد ذلك إلى فيينا ( والغرب هنا يخلط بين الأتراك والعرب ) .

وعليها ، بطبيعة الحال ، أن نضيف إلى هذه الصورة رد الفعل العام للحضارة الغربية تجاه الشعوب الملونة ، أن الغرب غفور ، لدرجة هائلة بالانتصارات التي حققتها مدينته ، وبينما استمر غفره وإيمانه بقدرته على التقدم ، ازداد اتصاله بالشعوب الملونة والمتأخرة .

ووصل هذا الاجراء إلى مرحلة اعتقد فيها الغربيون - بصورة جازمة - أن البشر ذوى البشرة البيضاء يتمتعون بكفاءة متفوقة كامنة ، وما زالت هذه العقدة ، عقدة التفوق الجنسى كامنة ، بالرغم من أن العلم يدحضها اليوم . فعلينا أن نضيفها إلى وجهات النظر التي أثرت على موقف الغرب الحديث من العرب .

ومنذ القرن التاسع عشر تشكلت في ذهن الغرب صورة ثانية حية ، ونستطيع أن نسميها ساذجية الصحراء والبدو ، لقد علمنا الانجيل ، واتصالات الغرب الأولى بالعرب ، أن الشعوب التي تعيش في الارض المقدسة وما حولها هي قبائل رحل تركب الجمال والخياد والحير ، وتعيش في فياف من الرمال .

والواقع أن هذا الكلام كان ينطبق تماماً على العرب القدامى - كما رأينا - وقد ظل ينطبق أيضاً على مساحات شاسعة من العالم العربي في القرن التاسع عشر .

وبما دعم هذه الصورة للعرب وعالمه تجول الرحالة الغربيين والدارسين .

والمستولين عبر المنطقة ، وذلك في القرن التاسع عشر وظهر في أدب الغرب موضوع جديد يدور حول المغامرات - إنه موضوع الغرب الجريء الذى يجوب صحارى لا حدود لها ، ويكافح الشمس المحرقة ، والخلق الذى يتوق إلى قطرة ماء ، والسراب والاختار البشعة التى يمثلها رجال القبائل العربية القساة الذين تلتشق عنهم الرمال لجأه ، ودعمت هذا الموضوع حكايات جوردون وكثنر فى السودان (يكفى أن تفكر فى فيلم «الريشات الأربع» وعدد من القصص عن الفيلق الأجنبى) .

وكما سبق أن أشرنا ، حدث خلال الحرب العالمية الأولى أن قتلت بريطانيا عن زعيم عربى (حسين) ليتزعم ثورة العرب على الأتراك ، وكان حسين ينحدر من إرستقراطيين عرب يقطنون الصحراء ، وكان عمار به من البدو ، أما البريطانى الذى ارتبط بعد ذلك بهذه القصة فهو الكولونيل لورانس «لورانس الجزيرة العربية» . وفى أعقاب الحرب الكبرى مباشرة شاعت مغامراته فى جميع أنحاء العالم الغربى - عن طريق المحاضرات والعروض السينمائية ، والمقالات الصحفية ، والكتب التى ألفها . هو والذى ألفها غيره . والصور التى تمثله وهو يرتدى الرداء الملون لمحارب الصحراء البريطانى الغربى «ملك الجزيرة العربية غير المتوج» ، وفى نفس الوقت الذى شاعت فيه هذه القصة بين صفوف الجماهير ظهرت قصة رودولف فالنتينو وشيخه ، وأدخلت على هذه القصة فكرة جديدة غريبة : إنها صورة زعيم الصحراء العربى ، النبيل المهيب ، الذى يعيش وفقا لقانون خاص به ، قانون الشرف والفروسية ، والذى يختلف



الغذارى الرقيقات ( أى البيض ) إلى مقره النائي في الصحراء ، إلى أن يخف لنجدتهن ضباط نبلاء ( أىبيض ) .

. وفى نفس الوقت إلى حد كبير ، تأثر المثقفون الغربيون بالكتب الجادة عن الصحراء العربية التى كتبها لورانس وغيره . إن الصحراء ذات سحر وجاذبية ، إن الغربى فرصة عصر الآلة الممل المزدهم ، وفريسة الدخان والضغط للتأجيل عن حياة التصنيع ، أما الصحراء فتظيفة مثيرة . إنها المكان الذى يستطيع الإنسان أن يتنفس فيه بعمق ، ويختبر نفسه إلى أقصى حدود الاختبار ، ويصبح وجهها لوجه مع المطلقات الكبرى للوجود الإنسانى ، وكان لهذه الصحراء فى معظم الحالات ، نفس السحر النابع من قم الجبال الشاهقة أو المحيطات الشاسعة ، أحس بهذا الذين يعرفون الصحراء ، والذين لا يستطيعون سوى تصورها وهم جالسون على مقاعد الوثيرة فى مدن الغرب ، غير أن فى الصحراء العربية ما هو أكثر من ذلك ، إنها تحتوى على أناس ، وعلى قبائل من البدو الرحل الذين يبدو أنهم منسجمون مع هذه البيئة الساحرة ، ويبدو أنهم يرون الحياة - إلى حد كبير - فى ظل المطلقات الواضحة للصحراء نفسها ، وبدا الغربى أن البدو ليست لديهم الشكوك والخاوف والقلق المنطقى المتأصل فى جذور حضارة القرن العشرين ، المنطقية المادية ، إن تراث البدو ذو طابع نبيل ويبدو أن الارستقراطية تجرى فى دمائهم ، وهم يعتزون بأسلافهم ( والغرب يحن ويتوق إلى إرستقراطية كهذه ) ودياتهم بسيطة ، وهى تظهر على أروع ما تكون فى الصحراء ، وبالنسبة للغالبية من الغربيين ..

كان منظر البدوى الذى يركع تجاه مكة التى لا يراها ، ويصلى لرب لاوجه له أو شكل أو كنيسة أو يقوِّنه وسط مساحة ضخمة من الرمل النظيف الجليل ، كان هذا المنظر مقلقا ومثيراً لدرجة هائلة .

وهكذا دخلت هذه الصورة الجديدة ، الإيجابية نوعاً ما ، إلى حضارة الغرب ، وفى نفس هذه الفترة من فترات التاريخ افتتحت الحكومات الغربية الثلاثين عاماً الانتقالية التى ارتبطت خلالها بالشرق العربى ارتباطاً وثيقاً ، وكان هذا الاتصال خاصة بالنسبة لبريطانيا ، اتصالاً بالعرب النبلاء الأرمستقراطيين الذين يعيشون فى الصحراء . ومنع الملك عبد الله عرشاً فى شرق الأردن ، وظل المسئولون البريطانيون — قرابة ثلاثين عاماً — يعملون معه ومع جيش من البدو الذى أصبح بعد ذلك « الفيلق العربى » الشهير الذى يعمل تحت قيادة جلوب باشا ، وفى العراق توجت بريطانيا أبناً آخر من أبناء حسين — الملك فيصل الأول — وتعاونت مع هذه الأسرة واعتمدت عليها فى سياستها فى الشرق الأوسط حتى عام ١٩٥٨ ، وكانت هذه الروابط طبيعية للغاية . كانت تعبر عن -محرر الصحراء والبدو وأشبع سعى بريطانيا الغربى ، وراء تراث وإرستقراطية بين صفوف العرب ، باعتبار هذا أفضل أشكال الزعامة ، وهذا هو ما كان يتوقعه الرأى العام الغربى على وجه التحديد .

ومع ذلك ، كان هناك بجانب آخر لهذه الصورة العربية القوية كان هناك المدن التى تنمو بسرعة ، والبلدان والموانئ الساحلية داخل العالم

العربي، والتي اتصل بها ملايين الغربيين اتصالاً وثيقاً ممثلاً في جيوش حريين عالميتين، وفي الاحتلال والحاميات الموجودة بمقتضى معاهدات ورحلات رجال الأعمال والسياح، والواقع أن كل ما تقع عليه العين في هذه المدن العربية كان سلبياً ومزرياً.

وكانت هذه الانطباعات تتراوح بين باعة مزيجين يبيعون التذكارات والبطاقات القديمة في عسدن وبورسعيد وأسواق وأزقة، بما فيها من بشاعة ولصوصية وتجار شرقيين ماكرين وأماكن معتمة مريبة تفتح في الليل، وبين رعاك الشارع بعنفهم وعندما يرى رجل الغرب عربياً يصل وسط هذه الأشياء مولياً وجهه شطراً مكة يتذكر كل ما هو سلبى حول الاسلام، ويقارن بينه وبين الصورة المثالية للاسلام وسط الصحراء.

أضف إلى هذا أن نفوذ الحضارة الغربية فرض وجودها في العالم العربي المتحضر بالنات، وكان رجل الغرب العادى يرى النتيجة فيشعر بالاشمئزاز. وهنا كانت الانطباعات كثيرة ومتعددة أيضاً، لقد بدا أن الأثرياء يحاولون منافسة المستويات الغربية دون ذوق أو ضابط، غز أن من الممكن — على الأقل — احتمالهم فمن الواضح أنهم «أفضل الناس سلوكاً وتحضراً وهم يلون في المرتبة تلك المنازل النبيلة لارستقراطية الصحراء» (الذين يتمتعون ببيئة كبيرة. وإن كانوا أقل تعليماً) وبعد الأثرياء جداً نجد عدى الأثراء، ثم تليهم الطبقات الوسطى من التجار والموظفين. ولم يكن هناك مفر من أن ينظر البريطاني إلى هذه الطبقة

باحتمار — وهو متأثر في هذا بأيام الامبراطورية ، حين كان الوطنيون من ذوى الياقات البيضاء في المستعمرات ، أشد الناس عداء ، وعبودية في نفس الوقت . ومن هذه الطبقة الوسطى وجد الغربي قوايين حضارته تصرخ في وجهه ، وادعج وهو يرى حكومته لا تنطبق في العالم العربي ما تنادى به . وما تطبقه في بلادها .

وكان من الطبيعي أن يخرج ، متطرفو ، الثلاثين عاما ضد الحكام الاسترطاطيين الذين أعجب بهم البريطانيون وأيدوهم ، وكانوا ضد بريطانيا وكاوا د يحرضون دائماً على الفتنة والشغب ، ومن بين هذه الطائفة الطلاب الذين تحدثنا عنهم في الفصل الماضي والزعماء السياسيون الذين يعارضون أو يقضون أيامهم في السجون ، والذين يحركون دائماً والغرضاء ، ( الذين يتألفون من العربي المقيم جداً ، الساخط ، المتطلع إلى هذه الأجيال الشابة ) .

وموجز القول أن الغرب رأى في العربي الشاب الذي يعيش في المدن شخصاً سيئاً ، أما شيوخه المحافظون و فصالحون ، — خاصة إذا كانوا ينحدرون من الارسترطاطيين الذين يقطنون الصحراء — ويجب تأييدهم وحمايتهم بما يتفق ومصالح الغرب ، وأخذ هذا الميل الطبيعي ينطبق — باطراد — على الواقع السياسي .

فالعربي « الصالح » هو الذي يسمح لدول الغرب — عن طواعية — بإقامة القواعد ، والعربي « الصالح » هو الذي يوقع على الأحلاف ، وهكذا أصبح العربي « الصالح » مالياً للغرب ، أما الذين يعارضونه ، أما العرب

« الأشرار ، فعادون للغرب ، وليس من المستبعد أن يكونوا شيوعيين ،  
 فاذا حدثت مظاهرة في بغداد ، قال نوري السعيد للسلطات البريطانية :  
 إنها من صنع « الشيوعيين » ، وبرر بهذا لقيام قمع قفرضه دولة بوليسية  
 أخذ سلطانها يمتد بمرور السنين .

وأخيراً ، يجدر بنا أن نهم بعاملين آخرين من العوامل التي أثرت  
 في فكرة الغرب عن العالم العربي ، فهناك كراهية عميقة لـ « المصري » ،  
 متأصلة في حضارتنا ، ولهذا الكراهية أسباب عدة ، يتصل أحدها  
 بكتبتنا المقدسة ، أما الآخر فيتصل بالاشتمزاز الذي تشعر به مدينة غربية  
 متفوقة جداً لإزاء شعب انحدر من أول مجتمع منظم ، ومع ذلك تردى  
 إلى هذه المهوة ، وتردى في مثل هذا الفقر والمرض ، ومع ذلك فهناك  
 سبب آخر لهذه الكراهية للصريين ، ويكمن في تنوع التيارات الحضارية  
 التي مرت بمصر وخاصة ذلك الطابع « التركي » للطبقة الحاكمة ، وهي  
 الطبقة التي اتصل بها الأوروبيين حتى القرن العشرين .

والمصري الحديث المثقف أكثر « سفسطة » من أخيه في العالم العربي  
 ولكن بطريقة بحيرة مراوغة ، تزعم كثيراً من الغربيين ، أضف إلى هذا  
 أن عبداً كبيراً من الغربيين ، وبخاصة البريطانيين ، قد مروا في مصر  
 بتجربة سيئة لم يمروا بها في أى جزء آخر من أجزاء العالم العربي فالكثيرون  
 من البريطانيين العاديين - الجنود - قد عرفوا الاخطار والأمراض أثناء  
 احتلالهم لمصر ، وتسربت من مصر إلى الغرب ، المزيد من القصص عن  
 الهجمات العدائية . مثلاً كان يحدث في قبرص ، وعن التعصب الديني .

فإذا كان لكلمة « مصرى » استجابة سلبية خاصة في ذهن الغربي فإن هناك عاملاً آخر أيضاً ، ان المصريين من أقدم شعوب الأرض . وإذا طبقنا الشعور بالجنس العميق اقترضنا بصفة عامة ، أنهم « جنس منفصل عن العرب (١) » ، ( بالرغم من أننا رأينا كيف أن الجنس لا يتصل بمن هو العربي ) . ظلت مصر عربية - في الثقافة واللغة ، زهاء ألف عام ، غير أن طبيعة القومية المصرية نفسها دعمت الرأي القائل بأن « مصر ليست عربية » إلى وقت قريب ، فلقد ظلت هذه القومية حتى الخمسينيات تركز جهودها في مشا كلها مع بريطانيا ، ومشاكلها في الداخل ومع السودان .

وكان من نتيجة هذه المؤثرات مجتمعة أنه عندما رأى الغرب ضابطاً مصرياً شاباً يزعم حركة قومية « متطرفة » أخذت تنتشر بمرور الأعوام لتشمل العالم العربي بأكمله ، كان من السهل عليه أن ينتهي إلى استنتاج واحد . لابد أن هذا التيار القومى مصطنع ، وازداد استنتاج الغرب تدعيماً حين رأى أن العرب الذين أخذوا يرحبون به باعتباره زعيمهم كانوا من شباب المدن العرب الذين يعارضون شيوخهم عرب « سيئون » يعارضون عرباً « صالحين » ، وعندما سارت المظاهرات ضد المستر سلوين لويدي عند زيارته للبحرين عام ١٩٥٦ ، سارع تابعوه ( وأمراء البحرين الكبار ) يؤكدون له أن « ناصراً » هو السبب في هذا كله . وبدا هذا الرأي مقولاً وجيهاً .

---

(١) هذه مزاعم الغرب التي دحضها علماءهم ..

وفي خلال الصفحات التالية سنرى كيف أن خرافات الغرب وتحيزه ومخاوفه ومغالطاته عن « العرب » كانت تعمل عملها المرة بعد الأخرى وليس من الغريب على شعب يعيش في منطقة - أو داخل حضارة معينة أن تكون لديه أفكار خاطئة عن شعب آخر - والواقع أن قسطاً كبيراً من التوتر العالمى ينشأ عن هذا السبب وقد كانت لدى الغرب أفكار خاطئة عن شعوب أخرى غير غربية، و« غير بيضاء ». والعكس بالعكس غير أن الحقيقة التي لها دلالتها أن « الصور » التي تكونت لدى الغرب عن العرب كانت مستمرة وملحة وسلبية أكثر من أى صور تكونت لدى الغرب عن جماعات حضارية تتحداه ، وفي اللحظة التي اشتدت فيها الحاجة إلى فهم صحيح للعرب عززت مؤثرات جديدة ( كآسطورة لورانس ) المؤثرات التي تكونت في القرون الأولى ، وظل طابع الحكومات التي ألفتها الدول الغربية هناك يعزز هذا الانطباع الخاطيء .

ونحن بحاجة إلى أن نسلط الأضواء على ما ينطوى عليه الوضع من تناقض مضحك ، إن الغرب نفسه هو الذى قدم له « العروبة الفتية » الكثير من ايدولوجيتها - وبخاصة النزعة الحديثة لتكوين أمة ذات طابع ، والرغبة الجامحة في الإصلاح الاجتماعى . . وظل هؤلاء الشباب من الفتية والفتيات يتعلون في جامعات الغرب ومعاهد الشرق الأوسط المتأثرة بالغرب ، زهاء ثلاثين عاماً ، وعرفوا هناك تلك الأهداف التي أنكرها عليهم ساسة الغرب و« أصدقاؤهم » من العرب ، وخلال كل

أزمة حدثت في العشر سنوات الأخيرة تلح هذا الموقف المضحك ، إن الغرب عاجز عن فهم قومية العرب المتحضرين ، والوصول إلى تفاهم معهم .

وما زالت الخرافات القديمة مستمرة إلى اليوم ، بصورها المختلفة - ذلك لأن خرافات كهذه يندر أن تكون لها صورة واحدة وحتى لو سألنا اليوم مائة شخص عاды في الغرب ، ما هي فكرتك عن العربي الحقيقي ، ؟ لكنت الصورة التي ترسمها الغالبية صورة بدوي من القبائل في رداءه العربي الفضفاض وعقاله ، وقد امتطى صهوة جواد أو ركب جملا ، ومعه بندقيته ، ووراءه الرمال والنخيل النامي في الواحات ( وربما يثر من ( البترول ) ومع ذلك لا يزيد عدد رجال القبائل الرحل أو ماشاهم عن ٣٥٠٠٠٠ نسمة من بين ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة في الشرق الأوسط ، وفي أكبر المدن ( التي يبلغ عددها عشرين مدينة ) يعيش خمس سكان الجزء الأوسط والشرق من العالم العربي ، وليست هذه الظاهرة مجرد تطور مفاجيء حدث في السنوات القليلة الماضية . فالمجتمع العربي في تطوره خلال القرن قد تميز بالتحضر ، خطأ أسطورة البدو في مصر منذ قيام الدولة الحديثة بعد محمد علي .

( ومع ذلك حدث في عام ١٩٥٥ ان كان أحد ضباط البحرية الأمريكية المثقفين يتحدث مع ضابط مصري في إيطاليا ، فلما عرف منه أنه يعيش في القاهرة سأله في لهجة حادة : « صحيح ؟ وهل تضرب خيمتك بالقرب من النيل ؟ »



وفي التطبيق العام لخرافة البدو ، نجد أنها موجودة بالفعل في كل صورة كاريكاتورية سياسية ، وفي معظم قصص الاطمال الحديثة في حكاياتها عن مغامرات الصحراء .

وبنفس الطريقة أدت مخاوف المسيحية القديمة إلى رد فعل سلبي من جانب الغرب تجاه « الوحدة العربية » ، وتجاه ذلك الشبح ، شبح « امبراطورية ناصر » ، التي تعتبر في حد ذاتها ثمرة من ثمار الآراء التي تبينها في هذا الفصل . ان العقل الغربي يشعر بالضيق حين يفكر في العرب الذين يتحدثون في حركة ضخمة موحدة ، وأن عبارة « القومية العربية من المحيط الاطلسي إلى الخليج العربي » ، لتثير قلقاً يبالغ من العمر قروناً عدة بينما ترسب في اللاشعور صورة لمسلمين متوحشين يقطعون رؤوس المسيحيين بسيف معقوفة . وفي عام ١٩٥٨ نشرت « لايف » مقالا عن دعوة ناصر إلى إقامة امبراطورية ، ونشرت معه صورة ضخمة لناصر ملأت صفحة كاملة وفيها يتحدث أمام الميكروفونات وأمامه علم ضخم عليه سيف معقوف . وتحت الصورة « جمال عبدالناصر » . يمجّد مفاخر الجمهورية العربية تحت راية تحمل الاسلام ، ( لم يكن التناقض دقيقاً بالمرّة : فالجمهورية العربية المتحدة أول دولة في العالم العربي تضع دستوراً دنيوياً ، والعلم المشار اليه لم يكن سوى علم اليمن ) .

يهمنا اذن . ونحن نستعرض التاريخ الحديث للصراع بين العرب والغرب ، أن نضع في اعتبارنا هذه المؤثرات الحضارية ، وتلك الصور الخيئة الخاطئة . والمكسرة القائلة بأن كافة العرب من البدو الرحل في

الصحراء قد تحولت بمهارة إلى فكرة تجزم بأن كافة العرب «الصالحين» يتحذرون من «أرستقراطية الصحراء» وكانت النتيجة أن عميت أبصار العرب عن رؤية جميل حضري جديد يعبر عن قومية عربية متحضرة شاملة ، يقف بها في وجه شيوخه الارستقراطيين والمحافظين ، وفي وجه الدول الغربية . ولأن سياسة الغرب أرادوا قواعد استراتيجية واستطاعوا أن يحصلوا عليها من الشيوخ الارستقراطيين ، ولأن الشباب العربي رفض مثل هذه الأحلاف ، ولأن زعيمهم لم يكن «عربياً» في نظر الغرب «اندفعت سياسة الغرب نحو الكارثة» . واستمر هذا الاجراء الكتيب حتى ذلك اليوم من عام ١٩٥٨ عندما مات كل «أصدقائنا» أو قضت عليهم الثورة أو حتمهم أساطيل الغرب ومظلاته من سطح الجماهير . وعندما بدأ الغرب يفوق من هذه الصدمة بدأت حركة شيوعية حقة في نفس البلد العربي الذي تركزت الحرافات والافراضات العنيفة على سادته الاقطاعيين والارستقراطيين .

---

# الفصل السادس

## العروبة القتية — ثور

لم تبسط « العروبة القتية » سلطانها في أى بلد عربى إلا بعد مرور ثلاث سنوات على « القشة الأخيرة » ، في أحداث فلسطين . وفي السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد ثورة بيهض ، أبحر فاروق بعيداً ، إلى منفاه ، وبدأ ضباط الجيش الشباب يحاولون تدعيم هذا التحول التاريخى الذى حدث في مصر ، وكان البكباشى جمال عبد الناصر هو الذى تزعمهم في جميع المراحل .

وبمجرد أن نجحت الثورة برز السؤال التالى : أى شكل من أشكال الحكم يصلح لمصر ؟ وحزب البكباشى فكرة إعادة الديمقراطية البرلمانية وعارض زملاؤه الضباط في ذلك . غير أنهم وافقوا في النهاية ، وطلب من حزب الوفد أن يؤلف حكومة على شريطة أن تجري هذه الحكومات الإصلاحات الأساسية وبخاصة الإصلاح الزراعى . ورفض الوفد ، ومن هنا بدأت شكوك ناصر في جدوى التعجيل بالديمقراطية الغربية في مصر . وصدر قانون الإصلاح الزراعى . وخلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ تكالبت على مصر الثائرة أزمة تلو أزمة ، ذلك لأن الجماعات المختلفة — من الشباب المسلمين ، والشيوعيين ، وأحزاب العهد البائد —

كانت تحاول الإمساك بزمام السلطة ، وتأجلت الانتخابات . لقد اقترض الضباط الشبان أن الجيش سيلعب دور المراقب فقط ، غير أنهم تأكدوا بمرور الوقت أن انسحابهم من ميدان السياسة أمر مستحيل .

وخلال هذه الفترة كان الوطنيون العرب يراقبون مصر عن كثب ولم يكونوا على يقين من طابع الثورة التي قامت بها ، أو نوع القيادة التي ستظهر في النهاية . وكان اهتمامهم شديداً ، ومستمرأ ، ذلك لأن مصر كانت أكبر البلدان العربية وأكثرها تقدماً ، وهي تقع في قلب العالم العربي ، وفي قلب الحضارة العربية ، وهي أول من ثار على الحكومة الرجعية المنهارة . وما الذي ستفعله مصر الجديدة في ميدان الشؤون الخارجية ؟

كانت هناك أربع مسائل كبرى :

- ١ - جلاء الجيوش البريطانية ٢ - مستقبل السودان .
  - ٣ - دور مصر في العالم العربي ٤ - علاقتها بالدول الكبرى .
- وبدأ الوطنيون ، يختبرون ، مصر في هذه المسائل - كما بدأوا أيضاً يختبرون اهتمام ضباطها - الواضح - بالاصلاحات الاجتماعية .
- وتم الاتفاق أولاً فيما يخص السودان ، فقد اقترحت حكومة الثورة على بريطانيا أن يتاح للسودان الاختيار بين الاتحاد مع مصر أو الاستقلال . ووافقت بريطانيا ، وسار السودان سريعاً نحو حكم نفسه بنفسه . غير أن قلق مصر التقليدي على بلد يسيطر على شريان حياتها

(مياه النيل) ظهر مرة أخرى في صورة تدخل كبيرة في شئون السودان. ولكن البرلمان السوداني اختار الاستقلال في النهاية، وقبلت مصر اختياره. وكان الاتفاق الانجلو مصرى حول السودان بمثابة تعييد للطريق أمام محادثات الجلاء، وهى أكبر مشكلة شائكة، ورأى ساسة الغرب أن هذه المسألة مرتبطة ارتباطا تاما بالمشاكل الاستراتيجية للحرب الباردة. وفي عام ١٩٥٣، وقبل اتفاقية الجلاء، قام دالاس، وزير الخارجية الأمريكية، بزيارة القاهرة للتباحث مع حكومة الثورة (التي رحبت بها أمريكا في البداية) وأوضح للبكباشى ناصر مدى الحاجة إلى حلف دفاعى جديد عن الشرق الأوسط، وبهذه الطريقة، وبطرق أخرى صغيرة وكثيرة، تضغط أمريكا على بريطانيا لكي تنسحب من مصر، ورد ناصر عليه قائلا إنه يعارض أية أحلاف بين دول كبرى وأى جزء من أجزاء العالم العربى. واستطرد متسائلا: ما جدوى استراتيجية الخطوط، عندما يكون الخطر الحقيقى هو وجود هجوم من الداخل؟ وقال ناصر لوزير الخارجية الأمريكية إن الدفاع السليم عن العالم العربى ضد أى سيطرة خارجية يجب أن يتمثل فى «قوة تجمع شمل العرب»، وهم يبنون مجتمعهم الحديث - انها قوة القومية. وعاد المستر دالاس وهو غير مقتنع، وقد أحس بخيبة أمل، غير أنه استمر يضغط على انجلترا لكي توقع على اتفاقية الجلاء.

وأخيرا تم الاتفاق فى عام ١٩٥٤، وتضمن الاتفاق تسوية من جانب مصر، تسمح للمدنيين البريطانيين أن يحتفظوا بقاعدة منطقة القتال الضخمة لمدة سبع سنوات، كما تسمح للبريطانيين بالرجوع اذا ما تعرضت تركيا، أو أى بلد فى الجامعة العربية، لهجوم من دولة أجنبية. ووقع

ناصر على هذه التسوية التي لم تجد ترحيباً (إن تسوية مع بريطانيا بعد ٧٢ عاماً كان لابد ألا تجد ترحيباً) . وأكد أمام الجميع أن مصر حيادية في زمن السلم ، وعارض كافة الاحلاف غير العربية . غير أن سياسته لم تثبت ، واستغل الاخوان المسلمون الاتفاقية التي لم تلق ترحيباً ، وفي صيف عام ١٩٤٥ ، وبعد أحداث متكررة ، منها محاولة اغتيال ناصر في مؤتمر شعبي عقد بالاسكندرية ، تم قمع الاخوان المسلمين بصفة نهائية .

وفي هذا العام نفسه ظهرت دلائل تصميم جديد بين صفوف الوطنيين العرب في أنحاء المنطقة . وتضاعفت المقاومة ضد الحكم الفرنسي في مراكش . وكانت هناك مقاومة عاثلة في تونس ، مما أجبر مندس فرانس على التفاوض مع التونسيين لكي يحكموا بلدهم بأنفسهم . وفي نوفمبر سنة ١٩٤٥ بدأت ثورة الوطنيين الجزائريين التاريخية . وأبدت مصر تعاطفاً كبيراً مع هذا التوتر في المغرب العربي ، وفي مايو من عام ١٩٥٤ ألف الوطنيون في بلدان شمالي افريقية الثلاثة لجنة التحرير التي انعقدت في القاهرة . وفي أقصى الشرق وفي الاردن ظهرت بوادر ضغط قوى على النظام السياسي القديم الذي أقرته بريطانيا . لقد تغير طابع السياسة الاردنية بأكمله منذ عام ١٩٤٩ ، عندما ألحقت الضفة العربية - البقية الباقية من فلسطين (الواقعة بين خط الهدنة الشرقي لاسرائيل ونهر الاردن) ألحقت بما كان يسمى شرق الاردن . وأصبح ثلثا السكان من العرب الفلسطينيين ، وكانوا يمثلون القومية العربية المتحضرة ، ونصفهم من اللاجئين ، غير أن لهم حق التصويت . وفي عام ١٩٥٤ كان هناك تصويت عام تم تنظيمه بمهارة لكي يخفي مطالب نفسه الغالبية العظمى . وكانت له دلالة كبيرة .

في سورية ، في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤ أعادت الانتخابات إلى البرلمان عدداً كبيراً من نواب حزب البعث ، الذي ألفه المثقون والناسة الذين تعلموا على يد الغرب ، والذين نادوا بالحياد ، والاشتراكية والوحدة العربية العاجلة للمماسكة . . وفي العراق ، رأى نوري السعيد حل جميع الأحزاب السياسية ، وتعطيل البرلمان الذي تم اختياره في الماضي للمحافظة على الوضع الراهن .

موجز القول أن علينا أن نلاحظ وضوح الدلائل التي تشير إلى قيام عروبة قنية وازدياد نفوذها في كل منطقة حساسة بالعالم العربي .

حدث هذا عام ١٩٥٤ والبكباشي ناصر قد برز كزعيم للعروبة القنية ورمزها الشعبي . . وإذا لم تكن قومية المغرب داعية إلى الوحدة بالصورة الموجودة في الشرق الأوسط ، إلا أنه كان من الواضح أن المغرب وصل إلى مرحلة جديدة عنيفة وكانت هذه المرحلة تحرك وتتحرك بالأحداث الدائرة في الوسط والشرق . .

ومع ذلك كانت دول الغرب مشغولة بنظرة مغايرة تجاه مشاكل المنطقة . . لقد انتهت الحرب في الهند الصينية ، وتم الوصول إلى الحل الأخير في جنيف ، وفتح هذا مرحلة جديدة في سياسة الحرب الباردة .

وصارم الغرب الأول ربط حلف الاطلنطي في أوروبا بمواقع الغرب الاستراتيجية في آسيا . . وفي اليابان والفلبين وأستراليا . . وألح المسترد الاس على تكوين منظمة حلف جنوبي شرقي آسيا ، وسارعت باكستان بالانضمام إلى هذا الحلف ، وهي التي كانت تتلقى معونة عسكرية من الولايات المتحدة

وظلت هناك بعد ذلك حاجة إلى استكمال هذه الشبكة الاستراتيجية بين  
باكستان وتركيا (في منظمة حلف شمال الاطلسي) وفي الشرق الأوسط  
وفي أواخر عام ١٩٥٤. كانت تركيا وباكستان قد عقدتا معاهدة، ووقعت  
العراق على اتفاقية تتلقى بمقتضاها معونة عسكرية من الولايات المتحدة .  
وارتأى الغرب مد شبكة الاتفاق إلى العراق وإلى حقول البترول الهامة  
هناك ، وكان يأمل أيضاً أن تؤدي عضوية العراق إلى تشجيع الدول العربية  
الأخرى على الانضمام .

وعند التطلع إلى الوراء ( ذلك لأن الغرب لم يفهم تلك النقطة في  
حينها ) نجد أن دول الغرب الثلاث جوبهت في نهاية ١٩٥٤ بقرارات قد  
تؤثر على العلاقات بين الغرب والعرب لسنين عدة .

ولقد كانت الدلائل واضحة (لولا أن الساسة لم يلتفتوا إليها) على أن  
النظام السياسي بأكمله كان يمر في العالم العربي باهتمام جديد من القاعدة .  
وفي قلب العالم العربي ، في مصر ، كانت القيادة الثورية قد عقدت مع  
بريطانيا اتفاقات فتحت الباب أمام تحسين العلاقات، غير أنها كانت تخضع  
للاتجاهات المصرية التي لا يمكن أن يكون هناك شك كبير فيها . وإذا  
كان المسئولون في لندن قد مالوا إلى التشكك في جدية ادعاءات ناصر  
الحياذية ، إلا أن أحداث عام ١٩٥٤ أكدت أن حكومته لن تصبر  
بأية حال من الأحوال على سياسة غير حيادية .

أما في المغرب العربي ، فقد كانت القومية تتحدى - بصراحة - سلطات  
فرنسا في الأقاليم الثلاثة . وفي الشرق العربي - محور السياسة البريطانية



التقليدى - كانت حكومة نورى السعيد مكروهة بصورة كبيرة ، بالرغم من أنها لم تدخل فى أحلاف جديدة مع الدول الغربية .

كان من الضروري إذن أن يسأل الغرب نفسه هل سيخدم مصالحه أو يعرضها للخطر ، إذا هو ألح على عقد أحلاف جديدة مع دول المنطقة مع العلم بأن الأحلاف القديمة لا تلقى تأييداً شعبياً ؟ .. ولقد كان من الواضح أن مصالح الدول الغربية تتطلب منها أن تعيد النظر - بصورة عميقة جداً - فى دورها التقليدى بأكله فى هذه المنطقة ، وأن تتفهم أفكار وميول جيل جديد بدأ يصل فعلاً إلى مراتب السلطة .. ولقد كان من الممكن أن يشعر الغرب بحاجته إلى إعادة النظر ، على أن يفصل هذه المسألة عن المصالح السوفيتية فى العالم العربى .. ولقد زادت الدلائل التى تشير إلى اهتمام السوفييت بالمنطقة ، ومن أجل هذا تساءل الغرب : هل يجدر به أن يحتفظ بأحلافه عن طريق التعاون مع الحكام العرب المكروهين ؟ ..

فى ذلك الحين كانت الحكومة الفرنسية برئاسة منديس فرانس ، هى التى وضعت رداً جزئياً على هذه التساؤلات ، فثلا فى قضية مراکش وتونس ، ولكن الفشل كان حليفهما نتيجة لرد فعل الجماهير إزاء ما وصفه بسياسة « الإهمال » فى شمال أفريقية ، بعدما حدث فى إفريقيا ، وعندما حدث فى الهند الصينية من ورمطات ، وفى عام ١٩٥٦ كان لرد الفعل هذا صدى خطير فى بقية أنحاء العالم العربى ، وكان ذلك عن طريق الجزائر .

وفشلت حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا فى مواجهة التحدى

الجديد . وظهر أول دليل واضح على هذا الفشل في أوائل عام ١٩٥٥ ،  
مثلاً في حلف بغداد .

وفي ديسمبر عام ١٩٤٤ أعلن نوري السعيد أنه لن يعقد أى حلف جديد  
مع دولة أجنبية دون أن يستشير أولاً أعضاء الحلف الدقاعى الذى ألقته  
الجامعة العربية . ومع ذلك عقد ، فى يناير عام ١٩٥٥ ، حلفاً مع رئيس  
وزراء تركيا ، وكان ذلك الحلف التركى - العراقى مقدمة لحلف بغداد  
( للدفاع المتبادل وبخاصة ضد السوفيت ) الذى ضم قياً بعد إيران ،  
وباكستان ، وبريطانيا . وأشارت بريطانيا ، على الفور إلى موافقتها . وبعد  
أربعة أيام شنت مصر هجوماً دعائياً مجلجلاً ضد نوري السعيد والحكومة  
البريطانية .

وإذا كان لنا أن ننظر فى صدى الحملة المصرية عند العرب ، وصداها  
فى الغرب ، لرأينا الهوة التى فصلت بين الطرفين نتيجة لوجود سوء فهم  
ولقد كانت معارضة رئيس الوزراء ناصر المصرية لحلف بغداد أول  
دليل ، كبير دامغ ، على أنه الزعيم الذى كانت العروبة الفتية بانتظاره .  
ومنذ تلك اللحظة ارتفعت مكانته بسرعة حتى أصبح رمزاً لهذا الجيل  
الصاعد .

غير أن الغرب شعر بالغضب والسخط . . لقد رأى الوطنيون العرب  
فى هذه الخطوة استئنافاً من جانب مصر لمركزها الكبير فى العالم العربى .  
غير أن الغرب فسر ما على أنها استثمار وليد لدكتاتور عسكرى «غير عربى»  
يريد أن يلفت الأنظار إلى الخارج لكي يسيطر بذلك على مصر الفتنة

وبما أغضب بريطانيا أيضاً أنها ظنت أنها « أحسنت إلى ناصر ، عندما وافقت على الجلاء عن منطقة قناة السويس .

لقد بلغ من اتساع الهوة بين أفكار الغرب السائدة وبين واقع العالم العربي ، أن ظنت بريطانيا أن اتفاقية الجلاء (١٩٥٤) ستجعل الحكومة المصرية تعترف لا بحالة بالجيل . ومن المؤكد أن بريطانيا لم تطلق هجوم حكومة مصر على السياسة البريطانية في الاقطار العربية التي لا يصح لمصر - كما زعمت - أن تتدخل في شئونها .

وتم إعلان حلف بغداد رسمياً في الرابع والعشرين من فبراير عام ١٩٥٥ ، وبعد أربعة أيام وقعت حادثة تاريخية ثانية ، فقد شنت إسرائيل على قطاع غزة ( الذي يضم ٢٠٠.٠٠٠ لاجئاً عربياً فلسطينياً ) هجوماً عنيفاً ، ووصفته بأنه انتقام من جانبها لغازات الحدود . وفقدت مصر أرواحاً كثيرة . وكانت « إغارة غزة » أخطر حادث عربي إسرائيلي منذ عام ١٩٤٩ . ولقد كانت حكومة الثورة ، حتى هذه اللحظة تؤكدها على الأقل - على أنها لا ترغب في استئناف التوتر العربي الإسرائيلي . وبينما استمرت في انتهاج هذه السياسة على الحدود الواقعة بين مصر وإسرائيل ، وفي صورة سلسلة من الاقتراحات للجنرال بيرنر مراقب الهدنة من قبل الأمم المتحدة ) جعلتها إغارة غزة تصمم على تسليح نفسها من جديد . وبعد هجوم إسرائيل الذي وقع في شهر فبراير ، أخذت الحوادث تتزايد بانتظام ، وارتفعت الصيحات تطالب باتخاذ إجراء إجماعي . وفي أغسطس عام ١٩٥٥ ، وبعد أن رفضت إسرائيل عدة مقترحات قدمتها مصر

ولجنة الهدنة لتخفيف حدة التوتر على الحدود ، اتخذت الحكومة المصرية قراراً خطيراً ، يتضمن تأليف وحدات فدائية شبه عسكرية (الفدائيين) للتسلل داخل إسرائيل .

في إبريل عام ١٩٥٥ انضمت بريطانيا إلى حلف بغداد ، وبذلك جلبت على نفسها سخط الوطنيين العرب التام وفي نفس الشهر عززه امرء حماسه العرب لزعامته للدور الذي لعبه - كسياسي كبير- في مؤتمر الشعوب الافريقية والآسيوية التاريخي المنعقد في بانكوك . وفي بانكوك عرض شوان لاي على ناصر تزويده بأسلحة صينية . ومع ذلك استأنف طوال

صيف عام ١٩٥٥ وأوائل الخريف جهوده الاولى من أجل الحصول على كميات من الأسلحة الجديدة من بريطانيا والولايات المتحدة ، دون قيود سياسية او مع ذلك جابهت دول الغرب موقفاً معيماً للغاية ، مثلاً في البيان الثلاثي ( عام ١٩٥٠ ) . فقد حاولت فيه المحافظة على الوضع الراهن للهدنة في فلسطين وذلك بالنأكد من وجود توازن عسكري بين العرب وفلسطين . وعلاوة على ذلك لم تكن الدولتان تميلان إلى التفكير في تصدير الأسلحة إلى حكومة مصرية تعارض سياستهما ( سياسة الحرب الباردة ) في المنطقة بكل اصرار وشدة .

وفي سبتمبر عام ١٩٥٥ بلغ التوتر بين مصر وإسرائيل ، والتنافس على الأسلحة ، ذروته . وفي الحادي والعشرين من شهر سبتمبر غزت قوات إسرائيل الأراضي المثلثة الواقعة حول العوجة واحتلتها ، وكانت هذه المنطقة واقعة على خط الهدنة مع مصر ، وبجملت رسمياً أنها

منطقة منزوعة السلاح. وفي الثامن والعشرين من شهر سبتمبر أعلن ناصر أن مصر تعاقبت مع تشيكوسلوفاكيا على شراء كيانات ضخمة من الأسلحة الجديدة ، بما في ذلك مصانع للذخيرة ، وشاح الفلق في الغرب نتيجة لهذا الارتباط للمال الكبير من جانب مصر ، ونتيجة لدخول الكتلة السوفيتية - على هذه الصورة - إلى الشرق الأوسط . وأكد ناصر أمام الجميع أن هذه الصفقة لا تؤثر على حياد مصر ، وأن القومية العربية لن تعتق المذهب الشيوعي ، وأنه لم يقبل عرض الكتلة السوفيتية - باعتباره عملية تجارية صريحة - إلا بعد جهود كثيرة بذلها لكي يحصل على السلاح من مصادر غربية . غير أن الغرب رأى أن هذا القرار يفتح أبواب الشرق الأوسط ، وبالتالي افريقية ، على مصاريحها أمام التفاعل السوفيتي . وقد افترض الغرب ، بعد ذلك ، أن صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية التي عقدتها مصر قد قلبت ميزان القوى المسلحة مع إسرائيل ، وأن إسرائيل لم تعتمد إلا أخيراً - وأخيراً فقط - إلى إعادة التوازن عن طريق الحصول على أسلحة جديدة من فرنسا . غير أن ناصر ذكر لمراسل مجلة «لايف» في أوائل عام ١٩٥٥ ، أن مصر لم تقرر شراء الأسلحة التشيكوسلوفاكية بناء على قوة إسرائيل في ذلك الحين ، وإنما بناء على قوتها عندما تكمل اتفاقيتها السرية مع فرنسا لشراء السلاح منها . وذكر بالتفصيل أنواع وكميات الأسلحة الفرنسية التي ستصدرها فرنسا إلى إسرائيل . وفي اليوم التالي أنكر متحدث إسرائيلي وجود أية اتفاقية لشراء الأسلحة من فرنسا ولكن عندما أُميط اللثام في عام ١٩٥٦ ، عن الأسلحة المرسلة من فرنسا كان من الغريب أنها مشابهة ، في الكم والنوع ، للتفاصيل التي ذكر ناصر أنه يعرفها عام ١٩٥٥ .

وفي عام ١٩٥٦ تفاقم الصراع بين سياسة الغرب القديمة والحديثة . والقومية الجديدة القوية التي يتزعمها ناصر . ووصل الجزائر تمبل إلى عمان في ديسمبر عام ١٩٥٥ ، ليحث الأردن على الانضمام إلى حلف بغداد . وعم الاحتجاج والفوضى واضطر إلى التخلي عن محاولاته . وتم استخدام جيش الأردن - الفيلق العربي الذي يقوده السير جون جلوب - لقمع الاضطرابات ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح جلوب باشا أكبر هدف للحقن الموجه للبريطانيين . ومرة أخرى مال الغرب إلى إرجاع هذه القلائق إلى تدابير القاهرة وحدها . وعزز الزعماء السياسيون ، الكبار ، المحافظون في الأردن والعراق وغيرهما - أولئك العرب « الطيبون » - عززوا هذا الاتجاه في مناقشاتهم مع الدبلوماسيين الغربيين والصحفيين .

وفي نفس الشهر أيضاً ، في ديسمبر من عام ١٩٥٥ ، صممت الولايات المتحدة وبريطانيا على الوقوف أمام مركز الكتلة السوفيتية الجديد في مصر بأن وافقتا على النظر في تقديم قرضين كبيرين لبناء مشروع السد العالي الضخم في أسوان .

وكانت النية متجهة إلى جعل القرض الأول عبارة عن عرض انجلو أمريكي مشترك ، أما القرض الثاني فيقدم من البنك الدولي الذي قال خبراءه إن مشروع السد سليم . وبدأت محادثات تفصيلية مع مصر ، ووصفها المعلقون المطلعون في الغرب بصراحة قائلين : إنها لعبة تلعبها الولايات المتحدة وبريطانيا لتخسرا شيئاً في مقابل كسب أشياء ، بالرغم من أنهما يلعبانها مع حكام تزداد كراهيتهما لهم .

. وجلب شهر مارس من عام ١٩٥٦ ، جلب معه سلسلة من الأحداث في أرجاء العالم العربي ، وكانت هذه الأحداث انعكاساً درامياً للأشواط السريعة التي تقطعها القومية . كانت هناك ، في مراکش وتونس ، احتفالات تقام ابتهاجاً بحصول هاتين الدولتين على الاستقلال ، بعد أن كانتا تابعتين لفرنسا . ولقد ازداد تصميم فرنسا على الاحتفاظ بالجزيرة نتيجة لفقدانها تونس ومراكش ، بالرغم من عدم وجود دليل يثبت أنها قررت ذلك عن عمد . كما ازداد سخط فرنسا على مصر التي تساند الثورة الوطنية في الجزائر . ومن ناحية أخرى . كان لا بد أن ترتفع روح القومية المعنوية في جميع ربوع العالم العربي نتيجة لاستقلال مراکش وتونس .

وفي الشرق العربي نسقت مصر وسورية والعربية السعودية سياستها الحيادية بصورة رسمية ، وذلك في الاجتماع الذي عقد بالقاهرة ، وهكذا ازداد التحدي السافر لحلف بغداد العربي غير أن أكبر أحداث مارس وأكثرها نتائج إنما وقعت في الأردن ، فبعد مظاهرات تبمر ، لم يكن هناك أمل جدى في انضمام الأردن إلى حلف بغداد . غير أن الوطنيين بالأردنيين — الذين ظلوا مدة عامين يحاولون إقناع الملك حسين الصبي بانتهاء ارتباطات الأردن ببريطانيا . قد ازدادوا اليوم إلحاحاً .

ولم يعد في مقدور هذا الشاب — الذى يعد جزء منه ارستقراطية لانه ينحدر من الهاشميين العربيين في الصحراء ، والذى يعد جزء منه بريطانيا لانه تعلم في هارو ، وساند هيرست وخضعت بلاده لوصاية بريطانيا

الطويلة — لم يعد في مقدور هذا الشاب أن يتجاهل وجهة نظر القوميين الذين يكرهون عرشه لأنهم يكرهون بريطانيا .

غير أنه وقف متردداً ، في يناير وفبراير ومارس ، بين الحاح القوميين المتصلين به ، والالحاح المضاد من جانب جلوب باشا ، والدبلوماسيين البريطانيين ، ودائرة ساسة الأردن القديمة . ولجأه ، وفي نهاية شهر فبراير قرأ حسين في إحدى المجلات البريطانية أن جلوب هو « ملك الأردن غير المتوج » حقاً . وفي أول مارس عام ١٩٥٦ سارع إلى طرد ذلك الجندي البريطاني الشهير الذي وهب معظم حياته لبلد قد تغير الآن بحيث لم يعد يعرفه .

طار جلوب باشا إلى لندن ، وقال لآنتوني أيدن : إن طرده جاء نتيجة لتدبير مصر وحفنة من « المتطرفين » في الأردن ، غير أنه التزم جانب النعقل ونصح بعدم اتخاذ أى إجراء مفاجيء عنيف وفي نفس الوقت كان سلوين لويد ، وزير الخارجية ، يقوم بجولة في الشرق الأوسط وكان يتناول العشاء مع ناصر عندما جاءت أنباء طرد جلوب إلى رئيس الوزراء المصري وهو على المائدة . ونقل ناصر النبأ للمستر لويد الذى استنبح على الفور أن ناصر قد اختار ، وهو في القاهرة ، المثرة التي يطرد فيها جلوب لكي يذل بريطانيا عن طريق وزير خارجيتها .

وبينما كان هناك بركان من الاحتفالات في الأردن ، طار المستر لويد إلى البحرين حيث وجد المزيد من مظاهرات الاحتجاج ، واستنبح ، وقال



له مستشاروه وأصدقاء بريطانيا القدامى من العرب ، إن هذه المظاهرات حدثت في ذلك الوقت بالذات بناء على أوامر من القاهرة . وشيئاً فشيئاً رسم الغرب صورة لعالم عربي يعيش في هياج نتيجة لتدابير أوامر زعيم مصرى ، وأنه لولا تدخله البشع لما تعرضت للخطر مصالح فرنسا التقليدية في المغرب العربى ، ومصالح بريطانيا التقليدية في الشرق ، ولما تعرضت للتحدى سياسة دول الغرب الثلاث في الحرب الباردة .

ولقد كان من سوء حظ عام ١٩٥٦ أن تدخل كل دولة من دول الغرب الثلاث في هذا الصراع عبر طرق منفصلة ولو جزئياً : فرنسا عن طريق الجزائر ، بريطانيا عن طريق حلف بغداد وطرده جلوب وما تعرضت له من التحدى لوضعها التقليدى في المنطقة ، والولايات المتحدة عن المشاكل الشاملة المتعلقة بحياد العرب ( الذى اعتبره مستر دالاس منافياً للاخلاق ) وعن طريق الغنغل السوفييتى .

وفي منتصف شهر يوليو قررت حكومة الثورة قبول عرض الغرب الخاص بشمول السد العالى ، وطار السفير عائداً إلى واشنطن ومعه هذا القرار ، وأذاعه لدى وصوله إلى نيويورك .

وأكد البنك الدولى من جديد موافقته على مشروع السد وعلى العرض الذى تقدم به منذ أيام . وفي التاسع عشر من شهر يوليو ، عندما قابل السفير المصرى المستر دالاس ليبحث معه القرار أكد متحدث بلسان وزارة الخارجية البريطانية أن بريطانيا على استعداد لتحويل المشروع .

ومع ذلك حدث في مساء ذلك اليوم، بعد أن ترك المبعوث المصرى المستر دالاس، أن أذاعت وزارة الخارجية الأمريكية على الصحفيين بياناً تسحب فيه عرضها بتمويل السد، زاعمة أن أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت .

ومن المفروض أن الحكومة البريطانية لم تبلغ بهذا النبأ قبل ذلك ، وإذا بها تنتهج نفس الطريقة ، كذلك فعل البنك الدولى . إن حقيقة الدور الذى لعبته بريطانيا ما زال يلفه الشك والغموض ..

ولم يعرف بعد - بصورة كاملة - حقيقة الدوافع التى حدث بالمستر دالاس إلى إذاعة هذا القرار الذى لم يسبق له مثيل فى إيجازه وإذلاله . والاعتقاد العام هو أن دالاس ، بصرف النظر عن معارضة الكونجرس للقرض ، أراد أن يوجه صدمة قاسية ، عنيفة للحياض العربى . وأشارت التعليقات الصحفية المسئولة إلى أن ناصرا يلعب بالشرق ضد الغرب فى مسألة القروض لىكى يستفيد هو ، ذلك لأن الاتحاد السوفيتى قد أذاع فيما مضى أنه قد يشترك فى التنافس من أجل تقديم العروض . وكان الهدف من العروض الغربية الاولى ، بطبيعة الحال ، أن تتنافس بنفس الطريقة ..

وفى الحادى والعشرين من شهر يوليو ، وبلهجة غاضبة واضحة ، قال الرئيس ناصر للجماهير المحتشدة : إن مصر ستبنى السد العالى برغم كل شئ ( كانت موسكو قد أومأت إلى أن عرضها ليس فى الطريق ) .

وأورد آية قرآنية وهو يتحدث عن الولايات المتحدة ، وصدمت هذه الآية الأمريكيين . وعندما تم ترجمة هذه الآية دون مراعاة للاختلاف في دلالة الالفاظ بين لغات الغرب والمبالغة التي تقوم عليها اللغة العربية وصلت إلى الأمريكيين على هذا النحو فليختقروا إلى أن يموتوا

والواقع أن مضمون الآية القرآنية : قل موتوا بغيظكم ، . بالنسبة للمستمعين العرب لا يمدرو في وقعه وقع العبارة التالية على الأمريكيين : « فليقفزوا إلى البحيرة سفستأنف نحن ماشرعنا فيه . » وكانت هذه الحادثة دليلا على تفاهق مشكلة دلالة اللفظ في الصراع بين الغرب والعرب . وفي هذه المرة كانت تنذر بأزمة خطيرة . .

وفي السادس والعشرين من شهر يوليو ، عندما كان السير أنتوني لايدن والمستر سلوين لويد يتناولان طعام العشاء مع نوري السعيد في لندن وصلت إليهما أنباء قرار ناصر . ستؤم شركة قناة السويس ، وسيتم تعويض المساهمين ، وستستخدم مصر رسوم القناة من العملات الأجنبية في بناء السد العالي . .

ودعش الكثيرون من العرب ولم يصدقوا . هاهو زعيم وطني جديد شاب ( كان ناصر في الثامنة والثلاثين فقط ) سبق غيره ورد على إهانة غربية كبرى عن طريق تأميم قناة ارتبطت طويلا بسيطرة الغرب . لم يكن العرب قد اعتادوا هذا الطراز من الشجاعة ، وعلى هذا التصميم الأكيد ، والسلطة الباقية ، وفي مجتمع يتأثر بسرعة بالقيادة القوية أكل هذا الإجراء الفاصل صورة ناصر ، صورة كانت تتضمن ،

قبل هذا الإجراء الفضائل النادرة الرئيسية التقليدية من عيشة بسيطة ، وبعد عن الفساد ، وكلام بسيط مباشر ، وقدرة على التعبير عن مشاعر الشعب .. وحتى المثقفون العرب - الكثيرون - الذين فسروا إجراء ناصر المفاجيء الغاضب على أنه إجراء غير حكيم أعجبوا به ، وشعروا بالعزة والكرامة ..

أما رد فعل الغرب فقد كان على عكس هذا تماماً . إن قناة السويس عر مائى دولى ، حيوى ، والشركة التى كانت تديرها كانت متعاقدة مع مصر . وقارن إيدن بين ذلك الاستيلاء المفاجيء الذى تم فى ظرف واحد وأعقب أحداثاً ماضية .. فسرها الغرب ببشاعة ، قارن إيدن بين هذا وبين هتلر وميونيخ . وكان لزاماً أن يجزم موليه بضرورة خلع ناصر ، فلقد كانت فرنسا تشعر جيداً بأنها هى التى حفرت القناة ، وكانت غاضبة من أجل مصالحها المالية والإدارية فى الشركة ، وكانت مراحل الغضب مازالت تغلى لأن القاهرة تؤيد الوطنيين الجزائريين . وفى بريطانيا وصل السير أنتونى إيدن إلى نفس النتيجة ، وهو الذى اعتاد على العرب فى عهدهم الارستقراطى القديم ، والذى اعتاد أن يرى القناة د جزءاً من انجلترا تقريباً . وفى واشنطن لم يكن دالاس بأقل منهم دهشة إذاء ما اعتبره انتهاكاً طائشاً للأخلاق والقانون الدوليين . وبالرغم من أنه وصف غضب الرئيس ناصر من أجل سحب العرض على أنه د حق مقتعل ، إلا أنه ألزم جانب التعقل وعارض منذ البداية فى استخدام القوة . وبينما أرسلت انجلترا وفرنسا قواتهما إلى شرقي

حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبينما بدأ أركان الحرب يعدون خطط الحملة ، بذل المستر دالاس كل جهد لكي يثنى زملاءه عبر الاطلنطي عن هذه الإجراءات .

ونحن الآن نعرف الكثير من الاتجاهات الرسمية إزاء أزمة السويس ومنها نتيقن من أن هذه الاتجاهات لا ترجع إلى ١٩ من يوليو يوم سميت الولايات المتحدة عرضها بتمويل السد ) أو إلى ٢٦ من يوليو ( يوم أعلن ناصر في خطابه نبأ التأميم ) وإنما ترجع إلى ما قبل ذلك .

لقد رأينا كيف أن الصراع الطاحن بين الغرب والعرب قد وصل حداه . ولكننا قد نقول إنه إذا كان المستر دالاس قد أخطأ ولم يدرك خطورة الرئيس ناصر ، ومدى الدور الذي يلعبه كزعيم لهذا الجيل ، وثمره من ثماره ، ومتحدث باسمه فإن الرئيس ناصرا - بدوره - لم يقدر خطورة الغرب . فهو لم يدرك عظم السخط والانزعاج اللذين أحس بهما الغرب بسبب طابع زعامته ودعايته . وإن السياسة التي رسم خطوطها في أوائل عام ١٩٥٥ قد تحدث الكثير من افتراضات الغرب واتجاهاته التقليدية الراسخة ، وكانت في تحديها للغرب أخطر مما تصور هو وزملاؤه في وضعهم الرفيع .. وإذا كان سوء الفهم المتبادل واضحاً قبل يوليو عام ١٩٥٦ إلا أنه قد أصبح أكثر وضوحاً نتيجة لطابع استجابة ناصر للمستردالاس .

إن فكرة تأميم شركة قناة السويس لم تكن جديدة بأية حال من الأحوال ، فلقد طالب المصريون بهذا حتى قبل الحرب العالمية الأولى ، قبل

أن يولد ناصر .. ويبدو أنه لم يكن هناك مفر من أن تختلف نظرة المصريين عن الغرب فيما يتعلق بالرباط التعاقدى الذى تدير به الشركة القناة .. ولكن لو كان هناك زعيم مصرى أكثر تعقلا ورزاقا لأدرك قيمة هذا الممر المائى أمر حساس جداً لاجلنا وفرنسا وأن إلغاء العقد مع الشركة فى ظل الظروف السياسية التى كانت سائدة آنذاك يثير انزعاجاً كبيراً ، ويتيح لإيدن عذراً ينتحله لكى يشن هجومه .

لقد كان من الواضح ، فى بيانات الإنجليز والفرنسيين الرسمية ، أن هناك بحثاً وراء عذر ينتحل ، وأقل ما يمكن أن يقال إنها كانت خداعة فى الثلاثة أشهر التى مضت فى المفاوضات .. ولقد كان الضمان القانونى الأساسى الذى يضمن حرية المرور فى القناة موجوداً فى اتفاقية عام ١٨٨٨ التى وقعت عليها مصر ، وأن هناك ضماناً آخر بالنسبة لبريطانيا يتمثل فى حقيقة ملبوسة .. حقيقة احتلالها لمصر ( حتى عام ١٩٣٦ ) ومنطقة قناة السويس ( حتى عام ١٩٥٦ ) وفى ذلك اليوم من شهر مايو عام ١٩٥٦ الذى غادر فيه آخر بريطانى منطقة قناة السويس ، أصبح الضمان الوحيد لحرية المرور فى القناة كامناً فى اتفاقية ١٨٨٨ ، واحترام مصر لهذه الاتفاقية ( فى ظل أية حكومة ) .. وقدرة الدول البحرية على تأكيد هذا الاحترام عن طريق محكمة العدل الدولية ، وميثاق الأمم المتحدة .

ولم يؤثر تأميم الشركة على هذا الوضع .. غير أنه أثار مع ذلك أسئلة قانونية فى ذهن الدول المستنظمة للممر المائى :

- ١ - هل ستؤكد مصر من جديد احترامها لاتفاقية عام ١٨٨٨؟
- ٢ - هل ستحصل على الرسوم على أساس المساواة وعدم التمييز؟
- ٣ - هل ستدير القناة وتصونها بما يتفق وأهميتها المعروفة بالنسبة لتجارة العالم البحرية؟

٤ - هل ستعتمد إلى تحسينها حتى تجارى البواخر التي تزايد بانتظام؟  
والواقع أن الحكومة المصرية في الفترة من ٢٧ يوليو - ٢٤ أكتوبر ١٩٥٦ قد قدمت إجابات مرضية عن كل سؤال من هذه الأسئلة القانونية، ومنها العرض السابق الرئيس ناصر بعقد معاهدة جديدة لحرية المرور وإيداعها في الأمم المتحدة ..

وإذا كان التاسع والعشرون من شهر أكتوبر قد شهد هجوم سيناء الذي أعقبه الهجوم العسكري الانجلو فرنسي على مصر فإنه كان أيضاً اليوم المقرر لاجتماع أطراف النزاع الرئيسية في جنيف تحت إشراف الأمم المتحدة .. في ذلك اليوم كانت هناك دلائل وافرة تثبت أنه من الممكن حل مطالب المنتفعين العالميين عن طريق التفاوض السليبي مع مصر .

لم تحقق الحرب القصيرة الأمد ما كانت ترمى إليه .. لم تقض على حكومة ناصر ، وإنما وضعت حدا لعهد من العلاقات بين الانجليز والفرنسيين من جانب ، والعالم العربي من جانب آخر .. لقد كان من الواضح أن خطط انجلترا وفرنسا العسكرية وضعت في اعتبارها الهجوم الاسرائيلي ، وأكد هذا الهجوم في أذهان العرب خوفاً ( الذي استمر أربعين عاماً ) من الصهيونية ، والدولة اليهودية « كقوة معتدية توسعية » .

تستغل الدول الاستعمارية وتستغلها هذه الدول .

وحظي الاتحاد السوفيتي بهيبة في نفوس العرب للدور الذي لعبه في وقف الهجوم الثلاثي ، ومن المؤكد أننا لا نغالي حين نقول إنها هيبة لم يكن الزعماء السوفيت ليحصلوا عليها إذا بذلوا الجهد وحدهم لعدة سنين ، وشعر العرب بعرفان مماثل للولايات المتحدة ، لمدة قصيرة جداً ، وأصبح هناك رصيد هائل من الآمال العربية ، لا لأن الولايات المتحدة نددت باستخدام القوة من جانب انجلترا وفرنسا لحسب ، وإنما لأن الرئيس الأمريكي عارض أيضاً الإجراء الصهيوني ، بالرغم من أنه كان في آتون حملة انتخابية .

ولم يتزعزع الدور الذي يلعبه الرئيس ناصر ، بوصفه زعيماً للقومية العربية ، لم يتزعزع هذا الدور نتيجة للهجوم الثلاثي أو هزيمة مصر المزعومة في سيناء ، أو القول بأن الحرب إنما أوقفت لتدخل دولة أجنبية .. وثبت خطأ السلطات الانجليا الفرنسية حين توقعت أنه سيستقيل أو يتم خلع : لقد أعلن عن نيته في البقاء بالقاهرة ، ووزع البنادق على المدنيين ، وسار في حرية وسط الشوارع المكتظة بالجمهير ، ولم تعترف حكومته بأنها هزمت في سيناء ، غير أن الحقائق سرعان ما شاعت في العالم العربي .

وإذا كان الكثيرون من معاني الغرب قد دهشوا حين رأوا أن هذا لم يضعف من هيبة مصر إلى حد كبير ، فإن الأمر لا يدعو إلى كل هذه



الدهشة . . والواقع أن المصريين لم يهزموا ، وإنما صدرت إليهم  
الأوامر في النهاية بأن ينسحبوا من الصحراء ليواجهوا الخطر الانجلو  
فرنسي القادم من الحلف عند منطقة القناة .

لم يكن من الغريب على الإطلاق أن تخرج الحركة الوطنية من  
الازمة كلها وقد حققت انتصاراً أدبياً ، وأن يخرج ناصر وقد ازدادت  
مكانته بصورة كبيرة .

والواقع أننا قد نستطيع وصف الازمة والحرب بأنهما فلسطين  
أخرى . . لقد حركت هذه الحادثة كل الآمال الأساسية : التحرر الكامل  
من كل نفوذ خارجي اصلاح اجتماعي عاجل ، مزيد من الوحدة العربية  
وحياذ يشمل المنطقة بأكملها ، والاختلاف الوحيد الذي ظهر في أعقاب  
الازمة له لم يبق غير دولة غربية وحيدة تستطيع أن تتفاهم مع العروبة  
الفتية . . فعلى كاهل الولايات المتحدة وقع عبء الدبلوماسية الخلاقة  
التي تسعى إلى الوقوف أمام هيبة السوفييت الجديدة وتعيد بناء الروابط  
بين الغرب والعرب على أساس جديد .

## مبدأ أيزنهاور

في يناير عام ١٩٥٧ صاغت الولايات المتحدة « مبدأ أيزنهاور » في ذلك  
الفراخ ، الذي لم يكن فراغاً من « النفوذ » . . بل فراغاً من آمال العرب  
وفي الوقت الذي ظل فيه هذا المبدأ مستعصياً على التعريف الواضح ،

لما اتخذت السياسة الأمريكية، سريعا شكلين، وهى التى أعلنت أنها تتبجح مبدأ أيزنهاور.

فهناك من ناحية، ما يمكن وصفه بأنه «تذكرة دواء» ضد الشيوعية الدولية، والحكومات العربية التى توقع عليها ستلقى معونات الولايات المتحدة الاقتصادية والعسكرية وانسجمت هذه السياسة الأمريكية التى ظهرت فى أعقاب السويس - انسجمت والبيانات المتكررة التى تقول: إن هناك بالفعل «فراغا» فى الشرق الاوسط، وكانت ترمى إلى أن أمريكا أو روسيا هى التى قد تملأ هذا الفراغ.

واعتبر الوطنيون هذه القضية اهانة ومعاداة لهم، فالوطنيون، فى العالم العربى وفى أى مكان آخر، يستمدون آمالهم من ايمانهم بأن فى مقدورهم، ومن واجهم أن يحلوا محل أى قوذ أجنبي، فإذا أضفنا إلى هذه القضية الأمريكية طابع «تذكرة الدواء» التى جعلتها الولايات المتحدة شرطا لمساعداتها الاقتصادية والعسكرية، وجدنا أن الوطنيين العرب سرعان ما اقتنعوا بأن مبدأ أيزنهاور أداة للضغط فى الحرب الباردة.

أما الوجه الآخر لسياسة الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط بعد أزمة السويس، فيتلخص فى بذل الجهد من أجل تحقيق ما وصف بعد ذلك بأنه «عزل ناصر» لقد أكدت الولايات المتحدة - من جديد - تأييدها لحلف بغداد وكان موقف حكومة نوري السعيد العراقية من

الحكومة المصرية ومؤيديها واضحاً جلياً ، وفرضت سياسة « العزل » هذه وبصورة قوية على العربية السعودية ولبنان والاردن .

وفي أوائل عام ١٩٥٧ استقبلت واشنطن الملك سعود ، وشمعون بوبلي العهد عبد الإله ، أما أسلوب أمريكا في الأردن فكان ، بالضرورة ذا طابع آخر ، وسنرى هذا بعد لحظات ، لقد كان الهدف العام هو تأييد الحكام العرب الراغبين في قبول المبدأ ، على أمل خلق قوة معضادة تقف في وجه « الناصرية » .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن هؤلاء الحكام كانوا ملوكاً وأونوقراطيين وأقليات ، ذلك النظام السياسي القديم المفرق في المحافظة ، لقد كانوا من العرب الذين كانوا يعارضون دعاوى الإصلاح والوحدة ، وهي الدعاوى التي عبرت عنها الحركة التي يتزعمها « ناصر » ، وكان هؤلاء الحكام غير محبوبين ، غير أنهم عرفوا في تعليقات الغرب ، « بالموالين للغرب » ، وهكذا اعتبروا محبوبين عن طريق تكوين صور مثالية من هذه العبارة وهكذا ورثت حكومة الولايات المتحدة من بريطانيا جميع العلاقات التقليدية والتفسيرات التي أدى قدمها إلى أزمات عام ١٩٥٦

وأخيراً أضيف إلى السياسة الأمريكية خارج مصر سياسة احتكاك داخلي ، وكان من الواضح أنها تهدف إلى إضعاف حكومة ناصر في الداخل . لقد ظلت أرصدة مصر ، من الدولارات بمحدة (إلى جانب تجميد أرصدها من الفرنك والاسترليني ) ولم تستأنف الولايات المتحدة مساعداتها الاقتصادية والفنية .

وفي يناير من عام ١٩٥٧ تعرضت مصر لأزمة خطيرة، لم يكن لدى مصر من التمتع ما يكفي لأكثر من أسبوعين، ومن البترول لا أكثر من أربعة أيام، وكانت مصر قد استنفدت كل ما لديها من البنسلين وغيره من المواد الطبية الهامة. وطلبت الحكومة المصرية من واشنطن مساعدة عاجلة، غير أن واشنطن رفضت طلبها، فطلبت الإفراج عن أرصدها المجمدة هناك، لكي تستطيع شراء هذه الموارد، ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض أيضاً، وحينئذ اتجهت مصر إلى روسيا وحصلت منها على مساعدة عاجلة غير مشروطة.

وفي نهاية شهر فبراير كان المصريون قد عرفوا أن روسيا قد أثبتت مرة أخرى أنها صديق في الشدة.

وفي الشهور التالية وما بعدها، حتى أوائل عام ١٩٥٨، اضطرت مصر إلى قلب ميزان تجارتها الخارجية نظراً لاستمرار تجميد دولاراتها، وتجميد الاسترليني والفرنك، وبعد أن كانت نسبة تجارتها الخارجية مع الغرب ٧٥٪ قبل السويس، أصبحت هذه النسبة مع الكتلة الصينية السوفيتية. وطوال هذا الاجراء كان ساسة الغرب يعارضون من وقت إلى آخر هذا الإجراء في تعليقاتهم، ولكن لم تتضح الطريقة التي يحاول الغرب بها إصلاح هذا الخطأ.

بصرف النظر عن تيار الآراء العام في العالم العربي (والذي يبدو أن واضعي السياسة الأمريكية لم يعرفوه) كان التعبير الرسمي عن هذه السياسة - في أوائل ١٩٥٧ - صادراً من مصر وسورية والأردن. وسرعان

ما تدهورت علاقة أمريكا بالحكومة السورية بعد مضي أسابيع قليلة من حرب السويس ، نتيجة لموجة عاملة ، خاطئة ، من التوجس خارج سورية فقد قيل : إن عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني ، شيوعي وإنه ينوي تحويل سورية إلى بلد يسير في الفلك السوفييتي . وكانت النتيجة ضياع أية فرصة لتحسين العلاقات بين الولايات المتحدة والوطنيين السوريين .

لم يبق إلا مملكة الأردن هدفا للأغراض الأمريكية السالف ذكرها وقبيل حرب سيناء والسويس أدت أول انتخابات نزيهة في الأردن إلى أن عادت إلى البرلمان أغلبية تعبر عن المبادئ الأساسية العربية الفتية . وسرعان ما أعلن سليمان النابلسي ، رئيس الوزراء الجديد ، عن اجراءات سياسية متعددة ، لتنفيذ هذه الآراء ، وحظى بموافقة البرلمان وكانت هذه الاجراءات تتضمن الاعتراف بالاتحاد السوفييتي والصين ، وقد كان ذلك محرما من قبل ، وعدم الانحياز في الحرب الباردة ، والغاء المعاهدة الانجليزية الاردنية التي تكفل لبريطانيا قاعدة عسكرية في الأردن واحلال معونات مالية من مصر وسورية والعربية السعودية محل المعونة البريطانية ، والتفاوض من أجل التحالف الميدراالى مع سورية ( الذي كان سيتضمن مصر لأن الحكومة السورية رغبت في الاتحاد الميدراالى مع مصر ) .

وأكد رئيس وزراء الأردن أن الأردن لن يسمح لنفوذ بلد أجنبي آخر أن يحمل محل النفوذ البريطاني .

وعبر عن أمله في أن تقدم الولايات المتحدة مساعدة غير مشروطة

إلى الأردن ، وأعلن أن حكومته ستسعى إلى شراء أسلحة جديدة ، وأنه يفضل شراءها من الغرب ومهما بلغت المخاوف من عقد روابط دبلوماسية بين موسكو وبيكين ودولة عربية أخرى ، إلا أن وزارة التابلسي لم تكن شيوعية أو موالية للشيوعية ، سواء من حيث تكوينها أم من حيث سياستها .

غير أنه لم يكن من الغريب أن يشعر الملك الصغير حسين بضيق وهو يفكر في احتمال اتحاد الأردن مع سورية « الجمهورية » ، واحتمال اتحادها مع « مصر » الجمهورية .

وإذا تذكرنا الاطار الذي عاش فيه ، وتفشفته ، كان من الطبيعي أن يخشى على عرشه ، وكان لا يفرق بين عرشه وبين مصير شعب الأردن وكان مخلصاً في عدم التفرقة هذه .

وكان من الطبيعي أيضاً أن يشجعه في آرائه الزعماء السياسيون القدامى زعماء العهد البائد ، غير أن شعبية « حسين » بين مواطنيه ، وهى الشعبية التى حصل عليها منذ رحيل جلوب باشا إنما كان مرجحاً أنه أيدى تأييداً لآمال شعبه .

لقد سمح بإجراء أول انتخابات حرة ، وأقر الوزارة التى جاءت بعد هذه الانتخابات ، ويبدو أنه وافق على سياستها ، بما فى ذلك الاتحاد مع سورية ، وإلغاء الارتباط الخاص مع بريطانيا .

وموجز القول فإن الملك الصغير أطلق العنان للأهداف الشعبية

واعتبره شعبه ممثلاً لها ، غير أن خوفه أخذ يتزايد نتيجة لتأثر مركزه بهذا الاتحاد .

من أجل هذا الموقف الذي لا يحسد عليه وجد حسين ومستشاروه الكبار - وجدوا في مبدأ ايزنهاور حلاً - لم يكن الملك يستطيع أن يعارض في إلغاء المعاهدة مع بريطانيا ، وانتهاء المعونات البريطانية .

وما لم يجد الأردن مصدراً آخر يساند اقتصاده الصوري ، فستضطر البلاد إلى الاقتراب أكثر وأكثر من الوحدة مع الجمهوريتين اللتين وافقتا على تعويض المعونات البريطانية .

وفي يناير عام ١٩٥٧ ، رفضت حكومة الولايات المتحدة طلب النابلسي بشأن تقديم معونة غير مشروطة . غير أنها أشارت إلى القصر على انفراد بأن الأردن يستطيع الحصول على مساعدة أمريكية إذا هو ابتعد عن الارتباط بموسكو ويكفي ، وظل بعيداً عن فلك مصر وسورية الحيادي ،

وأكثر من هذا فإن حكومة الولايات المتحدة أكدت أنه ليس من الضروري أن يعلن الأردن عن قبوله لمبدأ ايزنهاور صراحة ( وكان المبدأ قد فقد سمعته بسرعة بين صفوف الوطنيين ) طالما أن أمم الكونجرس الأمريكي ما يقنعه بأن هناك إشرافاً قوياً - معادياً للشيوعية على الأردن .

وفي الأسابيع التالية تدهورت علاقات الملك حسين بمجلس وزرائه

تدهوراً متزايداً - ومن بين الأسباب التي أدت إلى ذلك إذاعة الملك  
للخطاب الذي مغزى بعث به لرئيس الوزراء ، وحنره فيه من « الشيوعية  
الدولية » .

وقد أذيع هذا الخطاب دون مراقبة سابقة ، ودستورية ، من جانب  
الوزارة الأردنية . . ومع ذلك ، كان هذا الصراع المتزايد - بين القصر  
والوزارة - طي السكتان .

وظل الملك حسين محبوباً ، وكذلك ظلت وزارته ، وعززت  
احتفالات البلاد بإلغاء المعاهدة الاتجلاو أردنية . . عززت أوهام الناس  
في وجود أهداف وطنية مشتركة بين الملك والوزارة .

وما أن حل شهر مارس من عام ١٩٥٧ ، حتى وصلت السياسة الأردنية  
إلى نقطة يتمتر حلها .

لقد كان لدى الملك تأكيدات أمريكية خاصة ، تعده فيها أمريكا  
بمساعده ماليه ، لكي يحافظ على استقلاله ، غير أن مجلس وزرائه كان  
يستعد للاعتراف بموسكو ويكيين ، والاتجاه نحو الوحدة مع سورية ،  
ولم يكن بمقدور الملك أن يعارض هذه السياسة علانية . . كذلك لم يكن  
بمقدور مجلس الوزراء - إذا رغب - أن يخلع الملك الصغير المحبوب .

وفي أبريل عام ١٩٥٧ وصل الصراع بين القصر والوزارة ذروته  
وذلك عندما أذع حسين نبأ وجود « مؤامرات » ضده وضد عرشه  
وعندما أقال حكومة النابلسي ، ويتأييد من ساسة العهد البائد اتهم



النابلسي والأحزاب الوطنية المختلفة ، ومصر وسورية ، بأنهم جلبوا الشيوعية ، ومبدأ أيزنهاور ، والسيطرة المصرية ، بل والخطر الاسرائيلي إلى الأردن . وكان في مقدور الملك الصغير أن يعتمد على ولاء وحدات البدو الموجودة في الجيش ، وانتشر هؤلاء في البلاد . . وألقي القبض على الوطنيين ، وغاوا في السجون أو أجبروا على النفي .. وأسرعت الولايات المتحدة بارسال الأسطول الخامس إلى شرق حوض البحر الايض المتوسط ، وحذرت من أنها قد تستخدم رجال المظلات لتحاظ على استقلال الأردن وكيانه .

وفي نهاية شهر أبريل ، والمملكة الصغيرة خاضعة لأحكام عرقية صارمة انتهت أزمة الأردن ، . . وتلقى الملك حسين معونة عاجلة من واشنطن مقدارها ١٠ ملايين دولار .

وقبلت أوساط الغرب المتطرفة تصوير الملك للنؤامرات ، ويكفي هنا أن نقول : إن التحريات الدقيقة تشير إلى أنه من الجائز أن الملك نفسه هو الذي اصطنع هذه المؤامرات لكي يثبت زيف وزارة النابلسي ويوجه إليها تهمة تثير عطف الجماهير ، غير أنها لم تثر فيهم هذا .. والأمر الذي له دلالة ( بالرغم من أن الغرب لم يلحظ هذا ) أن راديو القاهرة لم يهاجم الملك طوال الأزمة ، إن هذا الصمت وحده يجعل المؤامرات ، أمراً مشكوكاً فيه .

ومنذ ذلك الحين ظل الأردن خاضعاً للأحكام العرقية ، واستمر هذا لمدة عامين تقريباً . وعندما بدأت مصر وسورية تشنان حملة دعائية

رئاسة ضده وضد الولايات المتحدة ، فسر الغرب اجراء حسين بأنه اجراء قام به ملك شاب شجاع من أجل انقاذ بلده من السيطرة الموالية للشيوعية... غير أن انتصار القوى الموالية للغرب والمعادية لناصر - وهو الانتصار الذي رحب به الغرب أكبر ترحيب - أكد للوطنيين العرب في كل مكان أن الولايات المتحدة قد انتهجت سياسة أمريكية: سياسة الدبلوماسية المسلحة. وإذا نظرنا إلى الامور في ظل أزمة سوء الفهم التي نتابها هنا ، وجدنا أن الذي يلفت النظر هو أن الدولة الغربية الوحيدة التي كانت تستطيع آنذاك تبديد شكوك العرب في الغرب : قد ساعدت في الواقع على خلق أول وزارة في تاريخ الاردن نحظى بشعبية وتتألف بعد انتخابات نزيهة. أما الصدى الثاني الكبير لسياسة الولايات المتحدة التي انتهجت باسم مبدأ أينهاور ، فقد وقع في لبنان . ان نصف هذه الجمهورية ( ١٤٥٠.٠٠٠ نسمة ) مسيحي ، ونصفها مسلم ، ومعظم المسيحيين من اتباع الكنيسة المارونية ( وهي تتمتع باستقلال ذاتي ، غير أنها تتصل بكنيسة الرومان الكاثوليك ) .. وظهر اللبنانيون المسيحيون هناك منذ ظهور المسيحية نفسها .. وهكذا يشعرون بأن جذورهم ضاربة في الشرق الاوسط ، وليكنهم - منذ أول مذبحة للمسيحيين في عام ١٨٦٠ - يتطلعون إلى الغرب ، يشدون عنده الثقافة والحماية .. أما اللبنانيون المسلمون ، فليسوا بأقل من المسيحيين شعوراً بوجود رباط وثيق من الثقافة والمشاعر السياسية وهو رباط يجمعهم بجيرانهم العرب .

وفي عام ١٩٤٣ ، عندما تحرر لبنان من سيطرة حكومة فيشي ، ولاح

الاستقلال في الافق، عقد الزعماء المسيحيون والمسلمون اتفاقية الجنتلمان، والتي عرفت باسم حلف ١٩٤٣، وتنص هذه الاتفاقية - في جوهرها - على قيام جمهورية مستقلة تتفق طوائفها الدينية على التوفيق بين مشاعر كل طائفة، والعيش معاً في وئام .. ويجب أن يكون رئيس جمهورية لبنان مسيحياً، أما رئيس الوزراء فمسلم .. وكان هناك تقسيم بمائل أصبح بعد ذلك تقايذاً لشكل الحياة السياسية والادارية برمتها، مع استمتاع بالتحالف مع الغرب، وفي مقابل ذلك يوافق المسلمون على أن يكون لبنان بعيداً - بسيادته - عن جيرانه العرب .

وسببت حرب سيناء والسويس عام ١٩٥٦ توتر احاداً في الجمهورية .. فالوطنيون الساخطون من المسلمين ( وبعض المسيحيين ) طالبوا بأن يقطع لبنان - على الأقل - علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا .. وعارض الزعماء المسيحيون الموجودون هذه الخطوة معارضة عنيفة .. ولحسن الحظ تم انقاذ البلاد من كارثة داخلية نتيجة لقصر فترة الهجوم على مصر، وما صاحبها من ضبط أعصاب متبادل داخل لبنان، واجراءات للامن العام غير متحيزة بصورة صارخة .. وتم تأليف مجلس وزراء جديد.

تم تأليف مجلس الوزراء اللبناني الجديد وسط شعور بالارتياح لأن « حلف عام ١٩٤٣، مازال صامداً، كما قالت الصحف اللبنانية . غير أن الرئيس كميل شمعون الذي يؤيده محافظون أثرياء ونسبة كبيرة من المسيحيين . قد ظل معادياً للدور الذي يلعبه ناصر كزعيم لقومية عربية تزدد حيوية وانتشاراً وخشى أن تؤدي مغريات هذه الحركة

إلى أن يطالب اللبنانيون المسلمون بمزيد من الوحدة مع جيرانهم . بل وخشى أن تؤثر على الوضع الاجتماعي والاقتصادي داخل لبنان نفسه .

وعندما صاغت الولايات المتحدة سياسة ما بعد السويس . تم اتخاذ قرار خطير . لقد احست واشنطن ان زعامة شمعون ووزير خارجية لبنان الجديد . الدكتور شارل مالك « صديق أمريكا الحميم » ، تتيح فرصا ممتازة أمام لبنان لكي يصنع المعقل الرئيسي لمبدأ أيزنهاور . . وسرعان ما بذلت جهود عاجلة لكي تصدق الحكومة اللبنانية الجديدة على مبدأ أيزنهاور أمام الجميع وتحقق النتيجة المطلوبة بناء على رغبة الرئيس شمعون والدكتور مالك . وتأثر الرأي العام المسيحي في لبنان بالتحذير الحرفي من وجود شيوعية في سوريا والامل في الحصول على معونات اقتصادية وعسكرية هائلة بمقتضى مبدأ أيزنهاور .

وبدأت مساعدات الولايات المتحدة تتدفق إلى لبنان، وزارات بوارج الولايات المتحدة ميناء بيروت وزيارات ودية . وأجريت انتخابات عامة في ربيع عام ١٩٥٧ ، وكانت النتيجة المتوقعة : أغلبية موالية للغرب . غير أن التوتر أخذ يزداد بانتظام ، قبل الانتخابات وبعدها ، لأن المعارضة نددت بارتباط الحكومة بمبدأ أيزنهاور واعتبرته انتهاكا لحياة لبنان المنفق عليه من قديم الزمان . ومن سوء الحظ ، مرة أخرى . أن يعتبر الغرب هذه المعارضة « موالية للشيوعية » ، أو مدبرة من قبل الهدامين في مصر وسورية ، وتذكر أن أدرك الغرب أن الكثيرين من المسيحيين البارزين عارضوا مبدأ أيزنهاور - بما فهم أول رئيس جمهورية في لبنان -

وهو الذي أعلن حلف عام ١٩٤٣ وبطريك الكنيسة المارونية (لا يمكن لاحد أن ينكر بشدة ان حلف عام ١٩٤٣ قد تخلى عن كثير من التزاماته، اذ ان من أسس الحلف، والتقاليد التي وضعها، الا تسبب سياسة لبنان الخارجية في أن يرى الجيران ان هذه الجمهورية قاعدة لضغط الدول الكبرى).

وفي شتاء عامي ١٩٥٧ - ١٩٥٨ تزايدت الانباء القائلة بوجود فساد خطير، ونهب للأسلحة واسع النطاق، بما في ذلك - لسوء الحظ - أسلحة حصل عليها حزب فاشستي جديد كان منحلًا منذ زمان بعيد. وفي ربيع عام ١٩٥٨ وصلت الأزمة ذروتها عندما أعلن الرئيس شمعون أنه ينوي تجديد مدة رئاسته. ونظرا لأن هذا القرار غير دستوري، حاول مؤيدوه تعديل الدستور. اما المعارضة فصرعان ما فسرت هذا النبا بأنه محاولة لاستمرار سياسة مبدأ ايزنهاور، والعهد الموجود. وفي غمرة الاحتجاج اغتيل صحفي مسيحي مناهض لمبدأ ايزنهاور، وبذلك وصلت الامور ذروتها. وكان هناك اضراب عام عبر فيه المضربون عن احتجاجهم ثم سرعان ما اندلع وأصبح حربا أهلية. لم تكن حربا طائفية، ولكن ما أن تقاوم الصراع حتى باب الخطر واضحا في الأفق.

في ذلك الحين كانت حرب سيناء والسويس قد جعلت الوطنيين السوريين يلحون في المطالبة بالاصلاح الاجتماعي، وشراء أسلحة جديدة، ومزيد من الوحدة مع مصر. وفي عام ١٩٥٧ بدأت المباحثات مع مصر، وتركز الاهتمام على الوحدة الوظيفية في ميادين الضرائب والتعريفات

البحرنية والمقررات الدراسية، وجوازات السفر، والتنسيق الاقتصادي. وفيما يتعلق بالمساعدات الخارجية، كانت الفرصة متاحة أمام الولايات المتحدة عقب السويس فوراً، غير أنها سرعان ما ضاعت. لقد كانت سورية منذ زمن طويل، اكبر الدول العربية شكاً في الغرب. ومع ذلك فإن حرص الوزارة الجديدة، البعثية، على تنمية الاقتصاد السوري جعلت سورية تفكر في طلب معونه من البنك الدولي. وكان لهذه الحادثة أقوى دلالة، فلم يسبق لحكومة سورية ان قبلت مساعدة رسمية من أية مصدر أجنبي. غير ان غرض البنك الدولي كان مشروطاً إلى حد بالغ. ولقد كان من الممكن أن تظل الفرصة متاحة أمام مساعدة أمريكية حذرة غير مشروطة، غير أن طابع مبدأ ايزنهاور - الذي أخذ يتكشف حينذاك - جعل السوريين يتعدون. وبناء على ذلك اتجه مجلس الوزراء، في عام ١٩٥٧ إلى الكتلة السوفيتية يطلب منها معونة غير مشروطة، ومع ذلك ضاعت فرصة أخرى كبرى من الولايات المتحدة.

وكما يحدث في أماكن أخرى من العالم تحين الشيوعيون العرب - وبخاصة، على ما يبدو، في سورية حتى عام ١٩٥٨ - تحينوا الفرص طويلاً لكي يحصلوا على مطالب سياسية بفضل أحلاف تكتيكية مع مناصر غير الشيوعية. وعندما اتجهت سورية إلى موسكو طالبة معونة غير مشروطة، وعندما تعزز مركز روسيا بعد السويس بدأ الشيوعيون من جانب، وبمجموعة الساسة المحافظين من أتباع المدرسة القديمة في تأليف مثل هذا التحالف. وكان خالد العظم من أغني رجالات الشرق العربي، ورأى في مركز السوفييت المتزايد فرصته التي طال انتظاره لها،

والتي خاب أملة فيها في الماضي ، وهي أن يصبح رئيساً للجمهورية السورية . وكان وزيراً للدفاع في مجلس الوزراء عندما وقع في موسكو في أغسطس عام ١٩٥٧ اتفاقية معونة كبرى بين سورية والسوفييت . وعندما عاد إلى دمشق أحل مجلس رئيس هيئة أركان الحرب ضابطاً أكثر النفاقاً باتجاهاته والاتجاهات الشيوعية .

وعندما أشرف عام ١٩٥٧ على نهايته اتضح للبعثيين والضباط اللاشيوعيين أن خالد العظم يتنوى استغلال مركز السوفييت لكي ينتصر في الانتخابات النيابية القادمة التي ستجرى في عام ١٩٥٨ .

لقد ظلت سورية ، منذ عهد طويل ، مركز الاتجاه نحو مزيد من الوحدة العربية ، وكانت المصدر الرئيسي لهذا الاتجاه : وكان البعثيون - بصفة خاصة - يؤمنون أن الانقسامات التي يعاني منها العالم العربي هي انقسامات بلغ من رسوخها وتدخل دول الغرب في خلقها أنه لا يمكن إلزاتها إلا باتهاز فرص تاريخية نادرة .

واليوم حانت هذه الفرصة ، ولاح الخطر الكبير .

وفي يناير من عام ١٩٥٨ طار الزعماء البعثيون والضباط الوطنيون إلى القاهرة ، وشرحوا لتناصر خطورة خالد العظم وخطورة الشيوعية ، وطلبوا منه أن يوافق على إعلان الوحدة العاجلة الكاملة للبلدين باعتبارها الحل الوحيد الأكيد المطلوب من الجميع .

كان اقتراحاً جديداً كل الجدة على ناصر . لم تكن لديه أية خطة

لتحقيق وحدة عضوية مع الدول الأخرى . وفي الظروف المعاصرة ، في تلك الثورة المستمرة ، كانت الوحدة العربية في نظره معناها قبل كل شيء « التضامن » - إنها وحدة في أهم خطوط السياسة مثل الحياد ، ووحدة في الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي سيحرم الدول الكبرى من تأييد العهد البائد لهم . وكانت هناك مباحثات بشأن الاتحاد الفيدرالي مع سورية . وحتى هذا الاتحاد الناقص كان سيتم ببطء وبأناة .

موجز القول - وهذا شيء لم يدركه الغرب - أن الرئيس كان محافظاً فيما يتعلق بهذا الهدف الحيوي ، هدف الوحدة . غير أن الخطر الذي يمثله السوريون لم يكن غريباً عليه وعلى زملائه . وأدرك أيضاً أن اتجاه سورية نحو الشيوعية قد يؤدي إلى تدخل من جانب نوري السعيد والدول الغربية .

من أجل هذا كله أثمرت المباحثات التي أجريت في القاهرة . وبدأ ناصر وزملاؤه الخطة بأن حثوا الثوريين على تحقيق ثورة حق ، وأن « يعودوا إلى ترتيب بينهم » .

غير أن السوريين ظلوا على صلابتهم فيما يتعلق بالخطر . وعندئذ وضع ناصر شروطاً حاسمة ، وبمقتضى هذه الشروط ، وهذه الشروط وحدها ، توافق مصر على تحمل مسؤولية اتحاد حاسم كالذي تطالب به سورية . وكانت مصر تأمل أن تكون هذه الشروط بمثابة « قرملة » للتفكير السوري .



غير أن الوفد السوري عاد إلى القاهرة في ظرف أسبوعين وقد قبل كافة الشروط - وأمرها حل جميع الأحزاب ، بما فيها حزب البعث - وحل معه أيضاً دعوات الرئيس المريض شكرى القوتلى الذى دعا من قديم إلى الوحدة العربية .

وفي الرابع من شهر فبراير عام ١٩٥٨ تم إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة - وكانت أول وحدة عضوية لبلدين عربيين في التاريخ الحديث . واهتز العالم العربى للنبا ، لقد كانت الوحدة أول تعبير ملموس عن حلم « القومية »<sup>(١)</sup> وعن مفهوم الشعب الواحد ، والامة الواحدة . وكانت المجموع التى ملأت للحادث في مصر وسورية أضخم جرع سيجها للتاريخ : ومع ذلك ظل الرمز الشعبي لهذا الحادث التاريخى وزعيمه ، ظل متشككا من السرعة التى تمت بها الوحدة ، ومن افتقارها إلى التخطيط .

وفي الخامس من فبراير أعلن ناصر أمام مجلس الامة المصرى : أن قرار الوحدة يجب أن يثير الحرص لا البهجة وحدها . وقال : إنه ربما أثبتت أحلامنا الجاسحة أنها أعظم خطر علينا مواجهته ، فلقد انطلقت كالفيضان بدافع من الكبت الطويل . . . ومن واجبتنا الاول أن نلتزم جانب الحكمة ، ونقيم سداً أمام هذه اللطامح . . . يجب التحكم في هذا التدفق ، وإلا فإنه سيكتسحنا .

---

(١) كتبها المؤلف بحروف لاتينية .

والواقع أن الغرب لم يلتفت إلى هذا البيان الهام ، وإنما قسر الوحدة على أنها تمت في سورية على يد ناصر ، وعلى الطريقة الألمانية .

( وقد نصيف أيضاً قائلين : إن العالم العربي نفسه لم يلتفت في غمرة ابتهاجه إلى أهمية هذه العبارات - ومن بين الأسباب أنها جاءت في ثنائي خطية الرئيس التي تسم بالطول ، والتي لولا هذه العبارات لكانت جدلية ) ، لقد كان اهتمام الغرب مركزاً في النقطة التالية : أثر الوحدة في البلدان الأخرى بالمنطقة فالحكومات التي تخضع لذلك النظام السياسي القديم الذي سبق أن عرفناه في الكتاب بأنه نظام « العرب الصالحين » ، هذه الحكومات كانت تتوجس خيفة من أثر الوحدة الكبير . وسرعان ما أكدت لمبعوثي الغرب ومراسليه تفسير الغرب الغريزي لهذه الوحدة : إنها وحدة على الطريقة الألمانية . وسرعان ما ألف نوري السعيد والملايك حسين اتحاداً هاشمياً - منافساً - يجمع بين ملكة العراق وملكه الاردن التي تجمعهما صلات أسرية . وكان من الواضح أن الولايات المتحدة وبريطانيا وافقتا على هذا الاجراء .

وفي غمرة هذه الازمة السياسية الجديدة في العالم العربي ، دخلت سياسة العربية السعودية مسرح الأحداث ، وبالرغم من أن ملكة العاهل سعود - الغنية بالبرول - كانت تقتصر إلى الكثير من أبسط نظم الدولة والمجتمع الحديث ، إلا أنه أصبح يواجه تدمراً متزايداً في المدن والقرى المستقرة . وكانت الفلاقل ذات طابع اقتصادي واجتماعي - وسياسي ، ولم يكن من قبيل المصادفات أن زعامة ناصر الرمزية أثرت في شبه الجزيرة العربية

بمكثا أثرت في غازيها . ولم يرحب الشعب بارتباط الملك سعود المبدئي .  
 بمبدأ ايزنهاور عام ١٩٦٧ ، كذلك لم يرحب الشعب بتأييده السافر ،  
 بعد ذلك ، للملك حسين ابان أزمة الأردن عام ١٩٥٧ . ولم يكن  
 التذمر وفقاً على المتعطين وأنصاف المتعطين الذين أخذ عددهم ، على  
 قلتهم ، يزداد .

لقد سافر فيصل ، ولي العهد وشقيق الملك ، إلى بلاد كثيرة ، وازداد  
 اطلاعاً ، على مفاهيم الغرب الحديثة للمجتمع . وازداد تعاطفه مع أهداف  
 الحركة الوطنية العربية السائدة .

وبينما كانت مصر وسورية تحتفلان بالوحدة ، أعلنت حكومة  
 الجمهورية العربية المتحدة الجديدة نبأ اكتشاف مؤامرة سعودية للحيولة  
 دون قيام الوحدة واغتيال الرئيس ناصر . ولم يصدق الغرب هذه التهمة  
 واعتبرها خبراً مفتعلاً المهدف منه صرف الانتظار عن الضيق الناجم عن  
 ذلك ، الحاق ، سورية بمصر . غير أن التحريات الدقيقة التي قام بها عدد ضئيل  
 من مراسلي الغرب بعد شهور أثبتت وجود مؤامرة سعودية بالفعل ( من  
 بين الأدلة الأخرى استقالة خال الملك من اللجنة السعودية الملكية التي  
 ألفت للتحقيق في التهمة ، والتي لم تمط اللثام عن نتائج التحقيق ) . وفي  
 أبريل عام ١٩٥٨ ، أعلن في الرياض ، العاصمة السعودية ، أن ولي العهد  
 فيصل سيضطلع بمعظم مهام الحكم التي كان يضطلع بها الملك . وبالرغم من  
 أن السياسة السعودية الخارجية لم تتحول بصورة ملحوظة إلا أنه كان من  
 الواضح أن السعودية تصالحت مع القاهرة ودمشق .

وفي الشهور التالية، بات من الواضح أن ولي العهد مصمم على إحداث ثورة في نظم الحكم العتيقة، ومحاربة توسيع رقعة التوزيع الآن من دخل البرول بقدر الامكان، وداخل نطاق القانون، مع استمرار نفوذ الأسرة المالكة (كان هناك ألف أمير وأميرة يستنفدون خمس الدخل السنوي ٢٠ مليون دولار، في صورة نفقات شخصية) .

ومن بين الدلائل الملوسة التي أثبتت وجود انقلاب داخلي، هادي كديجي، تكوين أول خزانة منظمة للمملكة، وتكوين بنوك مركزية، ووضع ميزانية سنوية .

سبق أن ذكرنا أن حرب لبنان الأهلية اندلعت في مايو عام ١٩٥٨. ووجه الرئيس شمعون والدكتور شارل مالك، أمام الأمم المتحدة، التهمة إلى الجمهورية العربية المتحدة قائلين: إنها تدخلت في شئون لبنان بصورة ضخمة، وإنها تهدف إلى هدم هذا البلد وادماجه بالوحدة المضرة السورية. وأيدت أمريكا وبريطانيا هذه التهمة، ونتيجة لهذا تألفت هيئة المراقبين الدوليين في لبنان للتحقق مما إذا كان هناك تسرب للرجال أو الأسلحة أو كليهما معاً، والعمل على الحيولة دون مزيد من التسرب في المستقبل. وأصبحت هذه الهيئة تضم في النهاية أكثر من ٥٥٠ ضابطاً من بلاد كثيرة، وفي سلسلة من التقارير التي بعثت بها الهيئة من لبنان إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، قفت تهمة وجود أي تدخل كبير. وليس هناك ما يؤكد أن الثوار المعارضين في لبنان حصلوا على السلاح من الخارج. غير أن زعماء المعارضة قالوا: إن هذه الأسلحة ما هي إلا

صفقات تجارية ، وروروا شراء أسلحة من الخارج بأن الحكومة نفسها وزعت أسلحة حكومية على الطوائف غير الرسمية التي تؤيدها ، وأن بعض هذه الأسلحة من المعونة الأمريكية . ومن السمات الخاصة المميزة لتلك الحرب الأهلية أن جيش لبنان الرسمي ، الذي يرأسه الجنرال فؤاد شهاب المحايذ رفض أوامر الحكومة الخاصة بسحق الثوار ، وهي مهمة كان الجيش يستطيع تحقيقها .

وبالرغم من عدم ثبوت تهمة التدخل الجماعي الضخم ، إلا أنه لم يكن هناك شك في وجود دعاية مضادة تؤيدها القاهرة ودمشق ، ضد مبدأ ايزنهاور في لبنان ، وهو جانب الثوار المعارضين . هذه الدعاية بالذات هي التي مهدت لظهور القضية الانجلو أمريكية الرسمية ، هذه القضية القائلة بوجود «عدوان غير مباشر» من جانب الجمهورية العربية المتحدة - لاضد لبنان وحده ، وإنما ضد الأردن ، والعراق و عدن ، وغيرها من الدول العربية . ولقد لخص ظهور هذه القضية مشكله القومية العربية كلها ، وافتقار الغرب إلى موقف شامل تجاهها .

لقد كان العرب ينصتون الى إذاعات القاهرة ودمشق ( وكثيراً ما يطلبون من متهمدى بيع الاجهزة أن يضبطوا جهازهم الجديد على « صوت العرب » حتى يلتقط الراديو هذه المحطة بصورة كاملة منذ البداية ) .

هكذا كانوا ينصتون ، وبلغ عددهم الملايين ، بالرغم من أن لحكوماتهم محطات إذاعية ناجحة ، وبالرغم من أن بعض الحكومات تهدد بسجن كل من يستمع إلى «صوت العرب» .

وكانت الآراء والنداءات التي يسمعونها من القاهرة ودمشق تتجاوب إلى حد كبير مع مشاعرهم وآلامهم ، ومن أقوى هذه الآراء ، رأى كان يتحدث في ذاته قضية العدوان المباشر بأكملها . فهذا الرأي يطالب بأمة عربية ، وبشعب عربي يتخطى الحدود الرسمية التي . كثيراً ما اعتبرت من صنع الأجنبي ( أى الغرب ) .

وهكذا إذا سمع الأردنيون معقل راديو القاهرة يشير إلى الملك حسين بعد مايو عام ١٩٥٧ ، على أنه « يخون رسالة العرب » فانهم يضبطون مؤثر أجهزتهم على محطة القاهرة في اليوم التالي ذلك لأن هذا الوصف يعكس مشاعرهم تجاه ملك خلع وزارة محبوبة وأخذ يحكم في ظل الأحكام العرفية . ولم يكونوا يعتبرون راديو القاهرة محطة « أجنبية » بالمعنى الذي يفهمه الغربي من الكلمة .

لنعد ، مع ذلك ، إلى الحرب الأهلية في لبنان : بقي أن نشير إلى أن زعماء المعارضة أنكروا مراراً وتكراراً - مثلاً فعلوا قبل الصراع - أية رغبة من جانبهم لضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة . ولقد تجسد هذا الانكار خير تجسيد في طابع الثوار من المعارضين . فلقد كانت قوائهم تضم جماعات مسيحية وجماعات من الدروز الذين يعارض زعمائهم بكل تأكيد ، أى إجراء كهذا . ومن الدلائل الهامة أيضاً أن كل وزير خارجية لبناني ، منذ عام ١٩٤٣ . كان يرفض - علانية - التهمة التي رفعها - شمعون وشارل مالك إلى الأمم المتحدة ضد الجمهورية العربية المتحدة . ولسوء الحظ أهمل العرب هذه الدلائل الهامة .

وبينا استمرت الحرب الاهلية في لبنان ، ازداد التوتر في الشرق الأوسط بصورة سريعة . لقد اقتنع ساسة أمريكا وبريطانيا بصحة تفسيرهم للأحداث فظنوا يهتمون مصر بالعدوان غير المباشر وبالاستعمار وازدادت الجماهير حقناً لانها تأثرت بالوحدة بين مصر وسورية، والحرب اللبنانية ، وتأيد انجلترا وأمريكا ، الواضح ، للرئيس شمعون ، والملك حسين ، ونوري السعيد . وفي ظل هذه الظروف بالذات وصل نوري السعيد ( الذي كان اتفاهه مع شمعون وثيقاً منذ آمد ) وصل إلى القرار الحاسم . ويتلخص هذا القرار في دخول قوة عسكرية عن طريق الأردن؛ وانهاء الوحدة مع مصر ، والعمل على سحق الثورة في لبنان .

( لم يذع هذا القرار في حينه بطبيعة الحال ، وإنما أبط عنه التام فيما بعد ، وذكره اللورد بيردود الذي كتب سيرة نوري السعيد بعد مقتله ، وأشار إلى أن بريطانيا كانت تعلم ، رسمياً بنبا الخطه ) .

ظلت المعارضة بالعراق مستمرة لعدة سنين ، وكانت تستهدف الثالث الذي يمسك بأزمة الحكم : عبد الإله ولي عهد العراق ، ونوري السعيد ، وشيوخ القبائل الاقطاعيين ، غير أن الخصوم من المدنيين كانوا عاجزين عن اتخاذ أى إجراء نتيجة للاجراءات البوليسية التي اتخذها نوري السعيد وحملات التطهير في الجيش ، كما لم يستطع ضباط الجيش والوطنيون أن ينظموا أنفسهم . وكان نوري السعيد يحتفظ بالوحدات التي يشك فيها بعيدة عن بغداد . ولكن حدث في ٨ مايو عام ١٩٥٨ أن وصل عدد من الضباط العراقيين ، برتبة لواء ، إلى اتفاق سرى من أجل اتخاذ اجراءات

عنفية ، فأيهم يجد نفسه في بغداد أو بالقرب منها مع وجود الذخيرة والعتاد المطلوبين فعليه أن يضرب ضربه ضد الحكومة .

وفي مساء اليوم الثالث عشر من شهر يوليو أصدر نوري السعيد أوامره إلى اللواء عبد الكريم قاسم وتابعه عبد السلام عارف . وتقضى هذه الأوامر بأن يتوجها ، بوحدهما إلى الأردن عن طريق بغداد . وفي الرابع عشر من شهر يوليو قاد عبد السلام عارف طوابيره إلى المدينة ، وكان لهذه المسيرة نتائجها الحاسمة التي عرفها العالم الغربي بعد ذلك بعدة ساعات ففوجيء وذعر . وعندما حارلت إحدى الفرق الماء القبض على الملك الصغير فيصل ، وعلى ولي العهد عبد الإله ، أطلق الأخير الرصاص وأعقب ذلك معركة بالبنادق . قتل فيها معظم أفراد الأسرة المالكة العراقية ، وقتل نوري السعيد وهو يحاول الهرب ومثل بجثته .

( لم تثبت بعد - بصورة كاملة - نيات ضباط الثورة الحقيقية ، غير أننا لا نعالى إذ افترضنا أن الملك الصغير كان موضع الرثاء أكثر مما كان موضع الكراهية ، أما ولي العهد عبد الإله ، الذى ظل الملك الفعلي قرابة عشرين عاما ، فلاشك أنه كان سيلقى حقه بأى حال من الأحوال ، ومن المؤكد أنه كان سيحاكم ) .

ومرت ساعات من النهار وظروف بغداد تعيد إلى الأذهان سقوط الباستيل عندما اندلعت نيران الثورة الفرنسية .

لقد سيطر فقراء المدينة على الشوارع ، وقد أعمتهم شهوة الغضب الذى انطلق من عقاله ، والرغبة البشعة فى الانتقام . وفى هذه الساعات



بالذات ، وقبل أن ينجح الجيش في إعادة النظام ، وقعت أشياء بشعة ، واختفى الكثيرون من الأرياء ، اختفوا إلى الأبد . كانت أنباء الثورة ، من حيث تأثيرها النفسي في الجماهير ، أشبه باطاحة النظام عن بركان كان يغلي منذ زمن طويل ، ما أشبع الظروف التي كان يعيش فيها فقراء بغداد ، وما أعنف معارضتهم لحكم عبد الله وفوري .

وعندما تم اعلان قيام الجمهورية العراقية ، و انتاج سياسة حيادية جديدة ، ذهب النائب عبد السلام عارف ، نائب رئيس الوزراء إلى دمشق ليحيي الرئيس ناصر ، باسم الثورة . كانت عواصم الغرب قد شعرت على التو بالازعاج لانباء الثورة التي كانت غامضة في البداية . وطالب الرئيس أيزنهاور بانعقاد مجلس الأمن ، غير أنه أمر قوات الأمم المتحدة بالنزول لبنان قبل أن يتعقد مجلس الأمن . وبالمثل أمرت الحكومة البريطانية جنود مظلانها بالمحوط في الأردن وما زالت النيات الحقيقية وراء هذه الاجراءات غامضة ، ولكن يبدو أن الغرب ظن أن الثورة العراقية تمت بتدبير من القاهرة ( وأضافت مخابرات الولايات المتحدة اسم موسكو ) وأنه سيتم « الحاق » العراق بالجمهورية العربية المتحدة بعد خلع الملك حسين وحكومة شمعون ومالك في لبنان . وفي الساعات التي أعقبت ذلك كانت الأزمة الدولية الحادة قد وصلت بالعالم إلى « شفاء الهاوية » وفي الأيام التالية قالت حكومة اسرائيل ، مخذرة ، انها ستعتبر أي تغير للوضع الراهن بالأردن تهديداً يعطى اسرائيل « حرية التصرف كاملة » .

وبعد ذلك أخذت الأزمة تخف في الشرق الأوسط رويداً رويداً

لقد انتهت الحرب الاهلية في لبنان، بعد أن أبدت قوات الولايات المتحدة تعقلا ونظاما يحدديهما، ولكنها لم تقم بأى وظيفة أخرى. وتخل السيد شمعون عن نيته في تجديد مدة رئاسته. ووافق الطرفان على رئاسة الجنرال شهاب الذى يلتزم - بحرص - بجانب الحياد، وفي ظل قيادته غير المتحيزة. تسلم مجلس وزراء صغير زمائم الحكم، وكان يمثل الطرفين .

وانسحبت القوات الأمريكية . أما مشكلة وجود القوات البريطانية في الاردن فكانت أكثر تعقيدا ، نظراً لتحذيرات بريطانيا له وأخيراً صار انسحاب القوات البريطانية ممكناً بعد قرار صوت عليه كافة العرب في الجمعية العامة ، وتمهدوا فيه بعدم التدخل بين دولة عربية وأخرى .

وعندما استعاد الجيش العراقي النظام ، واجهت عبد الكريم قاسم وزملاءه مسألتان هامتان . فالمسألة الأولى الحيوية ، هى كيفية تأليف الحكومة الجديدة ، أما المسألة الأخرى فهى : علاقة الجمهورية الجديدة بالجمهورية العربية المتحدة والرئيس ناصر . وأثبتت الأيام أن هاتين المشكلتين متشابكتان ، وأدت قرارات قاسم بصددهما إلى نتائج خطيرة في العام الاول للجمهورية .

وقبما يتعلق بالمشكلة الأولى ، انحصر الاختيار بين تأليف حكومة من العسكريين فقط ، أو ادخال بعض زعماء الاحزاب المدنية التى كانت مضطهدة في الماضى . ولم يكن قاسم سياسياً محنكاً ، كما لم يكن من الممكن في ظل عهد نوري ، تنظيم جماعة متماسكة للضباط لها مجلس يضطلع بهمهم الحكم ، ولو مؤقتاً ونتيجة لهذا كله ، وبناء على مشورة الموثوق بهم الذين

لم تكن ميولهم السياسية واضحة بادية الأمر ، تم تأليف وزارة معظم وزرائها من المدنيين .

وعلى الفور مست مسألة علاقة العراق بالعرب جوهر السلطة نفسها في العهد الجديد. وفي يوليو من عام ١٩٥٨ كانت مشاعر الشعب المناهية بالوحدة العربية ترتفع بشدة . وكانت السكينة الغالبة من العراقيين تؤمن بأن نوري السعيد قد عزل العراقيين عن إخوانهم العرب ، ومن أجل هذا اعتبروا الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ضرورة لا غنى عنها . وكان من الواضح أن على المسؤولين أحد أمرين : تلبية أمل المواطنين ، المبكر ، في الوحدة أو رفض الوحدة ، وتخفيف وقع ذلك على الجماهير بأن يشرح المسؤولون لهم لماذا لا تعتبر الوحدة أمراً غير مرغوب فيه .

ولكى نفهم الأحداث التي وقعت بعد ذلك ، علينا أن نصف بإيجاز الاتجاهات المختلفة التي ولدت الصراع حول هذه المشكلة . ونستطيع أن نبدأ بالرئيس ناصر لقد تزايدت شكوكه ، السابقة ، بشأن الاتحاد بين مصر وسورية ، ذلك الاتحاد الذي تم بسرعة .

وفي الثاني والعشرين من شهر يوليو ، وفي نفس اللحظة التي ارتفعت فيها آمال العراقيين في الوحدة إلى الذروة ، أشار بصراحة ، في خطاب كبير له ، إلى المثالب الخطيرة التي نجمت عن هذه السرعة ، مشيراً إلى المتاعب التي تعاني منها الميراثية السورية التي لم تتكشف إلا بعد تنفيذ الوحدة ، لأنها كانت تفقر - سابقاً - إلى دراسة ملائمة . ولم يكن رغباً في تحقيق وحدة العراق العضوية بالجمهورية العربية المتحدة في القريب

العاجل ، وأرسل إلى رئيس الوزراء سرّاً يذمّه بذلك .

أما السياسة التي اتفقا عليها فتقتضى بأن تكون الوحدة وظيفية فقط ، لأجل غير معلوم . وكثيراً ما قال قاسم إنه بالرغم من أن العراق « جزء لا يتجزأ من الأمة العربية » ، إلا أنه سيجرى استفتاء في موعد غير محدود يحدد فيه الشعب طبيعة علاقاته بالعرب .

وفي العراق نفسه كانت هناك قوتان تحديان سياسته تحدياً سافراً . أولاهما القيادة الرمزية ، المحبوبة للغاية ، والتي يزعمها عبد السلام عارف نائب رئيس الوزراء والذي قام بتنفيذ الانقلاب بنفسه . كان عبد السلام عارف متحمساً جامعاً ، ولم يكن يلتزم جانب الاتزان في تصريحاته السياسية .

وكان حيادياً للغاية ، ولذلك كان معادياً للشيوعية عداء سافراً ، كما كان يتدد في الوقت نفسه بالدول الغربية . ونظراً لأن عبد الكريم قاسم كان متحفظاً بطبيعته - بل وخجولاً أمام الجرع الثائرة في الشهور الأولى لحكمته - انتقل دور خطيب الثورة إلى عبد السلام عارف بالريف وبطل بغداد . وطاف الشاب عبد السلام عارف بالريف مطالباً - بل يكاد يكون واعداً - بالاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، وهو الاتحاد الذي كان يتوق إليه .

وفي نفس الوقت قطع على نفسه وعوداً ضخمة في ميدان السياسة الداخلية ، وعوداً لم يصدق عليها مجلس الوزراء ، كما كانت تعبر عن علم

شعور بالمسئولية ( مثال هذا : إلغاء جميع الديون الخاصة التي أبرمت قبل الرابع عشر من شهر يوليو .

أما القوة الأخرى التي كانت تطالب في العراق بالوحدة في صراحة فهي حزب البعث ، وهو الجناح العراقي للحزب العربي الذي ألح زعماءه السوريون على مصر بالاتحاد مع بلدهم . لم يكن حزب البعث يطالب فدرالية ، وإنما وحدة عضوية .

ووقف ضد مطالب عبد السلام عارف وحزب البعث قوتان سياسيتان ذات طابع خاص أطلقتهما أحداث ١٤ يوليو من عقابهما . فالحزب الديمقراطي الوطني الذي يتزعمه الاشتراكي العقيد كامل جادرحي يلتزم بالظرة التاريخية القائلة بأن العراق لم يكن في يوم من الأيام جزءا من السكان العربي العريض، ومن ثم فإن له شخصيته المستقلة . كان الجادرجي يؤمن، هو وزملاؤه من الزعماء الديمقراطيين ، بوجوب تطبيق ديمقراطية حزبية برلمانية على الطراز الغربي ، وأن من الممكن أرساء قواعدهما في الجمهورية الجديدة في الحال .

ونظرا لأن الجمهورية العربية المتحدة ألغت النشاط الحزبي فإن الديمقراطيين الوطنيين صمموا على الوقوف أمام عبد السلام عارف وحزب البعث اللذين يطالبان بوحدة يخشى الديمقراطيون أن تؤدي إلى إلغاء الأحزاب بالعراق . ولم يظفروا أن ثورة تقوم ضد دكتاتور ( نوري السعيد ) يجب أن تكون صورة أخرى من صور الدكتاتورية .

وكان من بين الزعماء والأعضاء الديمقراطيين مثقفون وموظفون ذوو

آراء ماركسية ، وعلى الأخص إبراهيم كبه ، رجل الاقتصاد . وازداد نفوذ هذا الجناح الماركسي للديمقراطيين عندما أُلِفَ الحزب - كما سترى حالا - تحالفاً تكتيكياً فعلياً مع الشيوعيين بالعراق .

لقد رأى الشيوعيون العرب في الثورة العراقية تطوراً هاماً للغاية . لقد مرت الحركة بمراحل كبرى متعددة منذ الحرب العالمية الثانية . ولكن لم تنتج أية مرحلة من هذه المراحل . ولقد كانوا يأملون ، في البداية ، في أن تكون مصر هي مركز النشاط ، غير أن هذا الأمل تبدد . لأن ناصر كان يجمع أي نشاط للحزب الشيوعي منذ زمن طويل .

وكانت هيمنة الاتحاد السوفيتي قد حققت نمواً كبيراً في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٥٥ ، وكانت هذه ميزة واضحة . غير أن الاستفادة من هذه الميزة تتطلب وجود قاعدة داخل المنطقة العربية ، وبفضل هذه القاعدة تستطيع الشيوعية العربية المحلية أن تبرز لنفسها مركزاً شعبياً ضخماً ، تمسك في النهاية بأزمة الحكم . وتبدد هذا الأمل في سورية ، بعد اتحادها مع مصر .

فأشارت كل الدلائل إلى العراق ، باقطاعه البشع ، وارتفاع نسبة التخصير ، وثروته البترولية الكفيلة بتحقيق تطور مذهل . كان العراق يمثل فرصة هائلة ، لا بد من انتهازها على الفور ..

وتم إعداد البرنامج الشيوعي للعراق التأثر في حرص ودقة ، وظهر بصورة واضحة في الخامس عشر من شهر يوليو ، عندما دخل الحزب الميدان وعلق شعاراته على الحوائط ، ونظم المظاهرات ، وأعيد وضع كيات

من المنشورات تدعو إلى « الاتحاد العربي والصدقة السوفيتية » . كانت الإشارة إلى « الاتحاد العربي » قرارا حكيما يواجهون به رغبة الشعب في الوحدة ، ولكن على أساس أبسط صور الوحدة . . .

ولم يكن الحزب بأقل من الديمقراطيين الوطنيين تصميا على عدم تحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة في ظل زعامة ناصر اللاحزية . المعادية للشيوعية ، تلك الوحدة التي يشجعها عارف وحزب البعث . وهكذا نستطيع أن نفهم أن أهداف الشيوعيين والديمقراطيين التقت في نقطتين حيويتين : عدم الوحدة — والحرية الحزبية الكاملة . وكان الحزب الشيوعي ينوى تعزيز مركزه بين صفوف الجماهير بالتدرج ، والتسلل إلى المناصب الرئيسية والمراكز التنظيمية الجماعية ، وفي الوقت نفسه يؤيد ، أمام الناس ، الزعامة الرمزية لعبد الكريم ، تلك الزعامة التي هي « فوق كل حزب » ، وكثير من أصحاب الميول الشيوعية الذين ظهر نشاطهم في الرابع عشر من شهر يوليو ، لم يكن يعرف حتى زملائهم هذه الميول عنهم ، ولم يسيطروا التام ، في البداية ، عن هذه الميول . وهكذا استطاعوا أن يحصلوا على مراكز حساسة بما في ذلك منصب نائب رئيس شرطة بغداد ، ومدير إذاعة بغداد ، والرقيب على الصحف ، ورئيس محكمة الثورة . . .

غير أن التغلب على العقبات الخطيرة التي تعترض هذه الخطة الدقيقة يتطلب كسر شوكة عبد السلام عارف ، وحزب البعث ، وكبار الزعماء السياسيين الذين قد يتعاطفون مع الوحدة العربية والرئيس ناصر . ومن

الفئة الأخيرة وزعماء حزب الاستقلال الذين نستطيع أن نصف سياستهم بأنها تميل إلى الوحدة غير أنها على استعداد للسير في الطريق الذي رسمه ناصر وقاسم . ولكن ، أهم من هذا كله أن الشيوعيين قرروا إزالة عبد السلام عارف ، كانت خطبه المنادية بالوحدة خطرا في حد ذاتها وشعر الشيوعيون والديمقراطيون بأن شعبيته وطبعه الخاد قد يهددان رئيس الوزراء قاسم المطيع . وإلى جانب هذه الاعتبارات ، كان هناك قلق كبير بشأن وعود عارف في الداخل ، التي تم عن عدم تحمل للمسئولية ..

وهكذا تم إبعاد نائب رئيس الوزراء الشاب عن مراكز النفوذ شيئا فشيئا ، وفي النهاية تم إبعاده إلى بون ، وعندما عاد إلى بغداد في ظروف مازالت غامضة ، ثم إلغاء القبض عليه بتهمة الخيانة . وسرعان ما أعقب ذلك إبعاد أعضاء حزب البعث وزعماء حزب الاستقلال من وظائفهم ومن كل نشاط عام . وهناك من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أن الحزب الشيوعي سارع إلى تنفيذ خطته الأصلية في غمرة إحساسه الرائد بالثقة . والمسؤولون الذين لم يكونوا منحازين من قبل قد أخذوا يسيطرون التام عن ميولهم الشيوعية بصورة متزايدة ، وذلك في رقابتهم للضخف ، ودعائهم في الاذاعة ، وطريقتهم الشاذة في المحكمة وازدادت سطوة المحاربين الذين يترسمهم الشيوعيون ، والموجودين في قوات المقاومة الشعبية (أصار السلام) ..

وأم من هذا كله أن مرحلة أخرى من مراحل الخطة قد سبقت



موعداً على ما يبدو، فتم تنفيذها في ديسمبر عام ١٩٥٨. كان من الواضح أن النية متجهة إلى شن حملة دعاية تاريخية ضد زعامة ناصر لحركة القومية العربية، والإيحاء - بصورة متزايدة - بأن رئيس الجمهورية العربية المتحدة « ميوله غربية »، والعمل بصورة منتظمة على خلق رأى في سورية يناهض الوحدة مع مصر ويحذ « مصير سورية الطبيعي في اتحادها مع العراق »، ورأوا أن من الممكن مد حركة الشيوعية لتشمل الهلال الخصيب، بعد تضامن العراق كعاعدة شيوعية قوية ومعرض للديمقراطية الشعبية، العربية، مع انعزال سورية عن مصر وارتباطها شيئاً فشيئاً بالعراق.

وفي ديسمبر عام ١٩٥٨ بدأ الهجوم العائلي على ناصر - سواء من طريق أجهزة الدول المراقبة أو الصحافة الخاضعة - وأوحوا بأنه « صديق واشنطن الجديد ».

ونتيجة لهذه التطورات بدأ رئيس الجمهورية العربية المتحدة هجموه المضاد، ووجهه في البداية إلى الشيوعيين العرب عامة وإلى الشيوعيين في مصر وسورية بصفة خاصة، ثم وجه هجموه بعد ذلك إلى حكم عبد الكريم قاسم بالعراق.

وفي الشهور الأولى لعام ١٩٥٩ تطور الصراع بين القومية العربية التي يزعها ناصر، والشيوعية التي يرتبط بها قاسم.

وفي مارس عام ١٩٥٩ تم إرسال قطار يحمل « بأنصار السلام » الذين يقودهم الشيوعيون لكي يتظاهروا في الموصل، شمال العراق. وعندما

اشتبكوا بالوطنيين في شوارع المدينة اتصل قائد حامية الموصل -تليفونيا-  
برئيس الوزراء في بغداد ، وطلب منه أن يأمر أنصار السلام بالعودة  
إلى بغداد .

ولم يتلق أى رد من رئيس الوزراء . وعندئذ بدأ قائد الموصل في شن  
ثورة تلقائية تفتقر إلى الاعداد ، وفشلت بالطبع لأن الضباط المعادين  
للشيوعية في مناطق العراق الأخرى لم يكونوا منظمين أو على استعداد  
للاضطلاع إليه ..

وفي الفترة من مارس حتى سبتمبر عام ١٩٥٩ ، بدأ من قاسم -بعد قوات  
الآوان - أنه أدرك أن الشيوعيين سيسيظرون على العراق سيطرة كاملة  
ورفض طلباً للشيوعيين والديمقراطيين الماركسيين بأن يكون للشيوعيين  
تمثيل قوى في مجلس الوزراء .

وفي العيد الأول للثورة ( يوليو ١٩٥٩ ) أعلن قاسم عن إيقاف  
أى نشاط حزبي سياسي حتى عام ١٩٦٠ . ولكن في نهاية شهر سبتمبر  
وقع حادث هز الشرق الأوسط العربي وأغضبه ، وغطى هذا الحادث  
على بوادر التعقل من جانب قاسم ، وادراكه للخطر الشيوعي ..

لقد تم الحكم بإعدام ١٢ ضابطاً عراقياً بتهمة التواطؤ مع ثوار  
الموصل ، بعد محاكمة علنية خرج فيها ممثلوا الاتهام بأدلة مزيفة قالوا إنهم  
حصلوا عليها بعد تغذيب المتهمين ، ورأى العرب من غير الشيوعيين ،  
داخل العراق وخارجه ، أن هذا الحادث دليل دامغ على أن قاسم مازال  
يخضع لمطالب الشيوعيين ..

وبعد ذلك بدأ رشيد رئيس الوزراء الغريب في الهبوط المنتظم هـ  
حرفي أكتوبر ، ووسط الدلائل السافرة التي تم عن القلاقل داخل العراق  
جرح قائم أثناء محاولة لاغتياله . وخرج من المستشفى بعد فترة طويلة  
من النقاهة التي خضع فيها لحراسة قوية . وفي يناير ١٩٦٠ أعلن استئناف  
الاحزاب المشروعة لنشاطها . غير أن الجناح القوي والمعادي للشيوعية  
في ميدان السياسة العاتية كان قد قد حماسه ونظامه ، يعد أن نفي معظم  
زعيماته البارزين ثم أو أشكالهم . ومن بين هؤلاء البعثيون الذين حاولوا  
الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ( بصرف النظر عن رغبات ناصر )  
والقوميون العرب المعتدلون مثال ذلك أن عميد الحقوق في جامعة بغداد  
وهو شخصية محترمة للغاية ، كان قد عانى من السجن في ظل نوري السعيد ،  
ولكنه هرب من البلاد بعد ذلك وعبر علانيه ، عن قلقه لزام سير  
الامور في ظل قاسم .

أما دور رئيس الوزراء نفسه طوال هذه الشهور الأولى الحرجة .  
من تاريخ الجمهورية العراقية ، فما زال لغزا . وهناك دلائل كثيرة تثبت  
أن تسيير قائم لدقة الأمور تأثر جداً بمشكلتين تنبعان من شخصيته :  
تعبه حول موضوع واحد - وقد أخذ هذا التعب يتطور منذ زمن  
طويل - وعقدة الاضطهاد .

فإذا أضفنا إلى هذا علم درايته السياسية وسداجته ، وجدنا أن :  
نواحي الضعف هذه جعلته فريسة لمشورات الشيوعيين والموالين لهم .

الذين وصلوا إلى المراكز الحساسة في الحكومة الجديدة غلب ثورة عام ١٩٨٨ مباشرة. لقد استطاعوا أن يقتنعوه بأن يظلوا فوق كل حرب، ( وهذا ما يكرره المرة بعد المرة ) ، وأكثر من هذا أهم اقتنعوه بأن كل زعيم أو طائفة غير شيوعية يدبرون مؤامرة لاغتياله ، ومن ثم يجب تصفيتهم .

ولقد صور له عقله أنه خاق ليكون « زعيم العراق الاوحد » - وهو اصطلاح لم يسبق له مثيل في لغة الوطنيين العرب الحديثة، ومن ثم حاول من حين لآخر استنفاد طاقة كافة الاحزاب السياسية الموجودة تحت امرته ، وذلك بتشجيعها على الصراع السافر فيما بينها. غير أن الشيوعيين استفادوا من الامتيازات الممنوحة لهم منذ البداية في موجة القمع الاولى التي تعرضت لها العناصر الاخرى من غير الشيوعيين .

ويبدو - من واقع الدلائل الموجودة - أن هذا يفسر لنا لماذا تدهورت ثورة كهنه. ثورة تدفعها آمال القومية العربية بأهدافها المألوفة وميولها اللاشيوعية ، لتصل إلى درجة يخشى عندها أن يصبح العراق أبول دولة عربية - في العالم العربي - تسيطر عليها الشيوعية . وأهم من هذا كله أن خضوع قاسم لنداءات الشيوعيين وحدها يفسر لنا لماذا لم يتهز الفرصة المبكرة للاجتماع بناصر . ليعلمنا عن سياسة تعاون معتدلة . ومن حقائق عام ١٩٥٨ الساخرة أنه لو كان قاسم قد وافق على رسائل ناصر الاربع المتتالية والتي يقترح فيها على قاسم عقد اجتماع في أى مكان يختاره قاسم ، ووفقا لاية شروط ، لو فعل هذا لحصل من زعيم الجمهورية

العربية المتحدة على تأييد عام سواء لنفسه أو لسياسة الحنر ازام أية  
اجراءات نحو الوحدة.

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب ( • ) لا أستطيع أن أنبأ  
بنتيجة تلك الشهور التراجيدية الدموية في العراق . إن البلد يمر بانتفاضة  
شاملة ، انتفاضة اجتماعية واقتصادية ، وكان لابد أن يمر بها ، وإذا وضعنا  
في اعتبارنا تلك القوى التي إنطلقت من عقالمها بعد هذه السنوات العديدة  
من الاقطاع الصارخ ولكننا مع ذلك ، نستطيع أن نقبأ بأن الأمل  
ضعيف في أن تستقر الجمهورية العراقية الجديدة ، بعيداً عن الشيوعية ،  
في ظل قاسم ما لم يقدم على القرارات الايدولوجية الجوهرية التي يتجاهلها  
مبدؤه بصورة خطيرة ، مبدأ ، الارتفاع عن الأحزاب .

## تغير في السودان

وفي نفس الوقت ، وفي أماكن أخرى من العالم العربي ، تلاشت  
الثورة السياسية والاجتماعية - ويرجع هذا ، إلى حد كبير لشورة العراقية  
وأثرها الكهربى . في نوفمبر عام ١٩٥٨ ، قاد عبود انقلاباً عسكرياً في السودان ،  
وخلع الحكومة المدنية وعطل الدستور والأحزاب نظراً لحال الانحلال ،  
والعوضى ، وعدم الاستقرار القومى ... الذى اتسمت به الحكومات  
الحزبية المتوالية . . وأعلن عبود عن اتهاجه لسياسة الحياد في الخارج ،

---

• نشر هذا الكتاب عام ١٩٦٠ ( المترجم )

واعترافه بالصين الشعبية ، والتعاون مع الدول العربية ، والعزم على توثيق العلاقات ، بصفة خاصة ، مع الحبشة والجمهورية العربية المتحدة . وقاله رئيس الوزراء العسكرى : إن وجود «توتر مصطنع» مع الجمهورية العربية المتحدة هو من بين الأسباب الكبرى التى جعلتهم يقومون بهذا الانقلاب . ومع ذلك لم يشر عبود إلى أنه ينتوى ما هو أكثر من التعاون مع القاهرة . وكان من الواضح أنه حريص على أن يصل البلدان إلى اتفاق فى المستقبل أزاء مشكلة مياه النيل ( وتم توقيع الاتفاق بالفعل فى أواخر عام ١٩٥٩ ) .

والأمر الذى له دلالة ، والذى يشير إلى ميل أعرض ، أن عبود أكد أن السودان لم يكن مهيأ - فيما يبدو - للديموقراطية الغربية عندما غادره البريطانيون ، . وكما هو الحال فى أى مكان آخر يتسلم فيه الضباط زمام الأمور ، رحب الشعب السودانى بقائد منفذ قوى ، بعيد عن الفساد ، غير متحيز .

## ثورة فى اليمن ؟

وفى منتصف عام ١٩٥٩ ، كانت هناك أيضاً دلائل تشير إلى وجود انتفاضات سياسية ضخمة فى اليمن ، ذلك البلد القديم الذى ينتمى بحق إلى العصور الوسطى ، والواقع فى جنوب غربى شبه الجزيرة العربية . وبالرغم من أن إمام اليمن المجوز ، البالغ من العمر سبعين عاماً ، كان أقل تموراً حتى من عاهل المملكة العربية السعودية ، إلا أن ابنه ، الأمير البدر ، تشبع بأراء القومية العربية الحديثة . وبينما كان الإمام المريض

في إيطاليا للعلاج — وبصحبة زوجته وجواريه وعييده ، شرع ولي العهد في حملة تطهير ضخمة في سلك الوظائف العامة الكبرى ، وأعلن أنه مصمم « على الارتقاء بهذه الأمة » .

ولقد كان لولي العهد دخل كبير في تحقيق الاتحاد الفدرالي لليمن مع الجمهورية العربية المتحدة في أوائل عام ١٩٥٨ . وليس الأمير البدر عصريا بالمعنى الكامل على الإطلاق ، غير أنه معجب بالرئيس ناصر . وتتضمن اصلاحاته تأليف مجلس نيابي ، وخزانة مركزية وميزانية مركزية وقد كانت هذه الأجهزة الثلاثة غير موجودة من قبل ، ولم يكن هناك مايدل على أن ولي العهد ينوى الاستيلاء على سلطان أبيه . والاختلال الأكبر أن هذه الاصلاحات جاءت استجابة لموجة من عدم الرضا ، وهي الموجة التي عبرت عن نفسها بمزيد من الحرية أثناء غيبة الامام ، والتي قد تتحدى النظام الملكي بأكمله . لقد فتح هذا الركن من الجزيرة العربية ، فتح بابا على العالم الحديث عن طريق اتحاد اليمن مع الجمهورية العربية المتحدة ، وتأثره بالاذاعات الخارجية ، ووصول فنيين من الكتلة السوفيتية لتنفيذ برامج المعونة ، وذلك في عام ١٩٥٧ .

## دول عربية أخرى

كان للثورة في البلدان العربية المتقدمة صداها أيضاً في سلسلة الامارات التي تحف بشبه الجزيرة العربية شرق اليمن وحولها حتى الخليج العربي . إن القومية العربية موجودة وآخذة في النمو في اتحاد

عدن ، المتاخم لليمن والخاضع لروابط خاصة مع بريطانيا طبعاً للمعاهدة ومن الأمثلة البارزة على هذا الاتجاه ما حدث عام ١٩٥٨ عندما أبعدت الحكومة البريطانية - بالقوة - سلطان لحج الشباب ، وساحم إحدى الامارات الأربع والعشرين التابعة لمحمية عدن آنذاك ، والسلطان الأكبر اسماً . لقد التهب السلطان على عبد الكريم حماسة للقومية العربية وزعامة ماصر . ونفذ صبره ازاء الروابط الخاصة التي تربط لحج بريطانيا وأصبح - بصورة متزايدة - مصدراً للنوامرات السياسية ضد ساحم مستعمرة عدن الموقف من حكومة صاحبة الجلالة . وشرع على عبد الكريم في تطوير امارته الصغيرة .

وفي عام ١٩٥٨ ذهب السلطان إلى لندن لإجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية ، وبينما كان في طريق العودة إلى بلاده ، صدر مرسوم بخلعه من قبل بريطانيا وقوات الاحتلال الموجودة في لحج .

وبعد ذلك أنجزت بريطانيا اتحاد امارات عدن ، وذلك لكي تقف أمام تيار القومية . غير أن مستقبل هذه الامارات مازال مستمضياً على الحل - وما يزيد المشكلة تعقيداً أن اليمن ، يطالب بسيادته على جزء من المنطقة الغربية ، وأن بريطانيا تريد الاحتفاظ بمستعمرة عدن الفعلية ( الميناء والقاعدة الجوية ) للأغراض الاستراتيجية . ولقد تضاعفت أهمية عدن بانتظام نظراً لاختفاء القواعد الاستراتيجية البريطانية في أقصى الشمال .

والدليل الثاني على نفوذ القومية الحديثة في تلك المنطقة التي تحف بالجزيرة العربية ، مائل في الكويت ، تلك الامارة ذات الثروة الخيالية



( الدخل السنوى من البترول مائة مليون جنيه استرلينى. وعدد السكان ٢٠٠.٠٠٠ ) والى تقع على الخليج الفارسى جنوب العراق مباشرة وأمير الكويت مرتبط مع بريطانيا بمعاهدة ، غير أنه خصص مبالغ ضخمة جداً لاحداث ثورة فى التعليم ، والاسكان ، والصحة ، والخدمات العامة . غير أن تحضر الكويت السريع لم يخفف من حدة القومية بين سكانها . وبخاصة العرب من غير الكويتيين ( مصريين ، فلسطينيين ، سوريين ، وغيرهم من جاءوا لتوفير المهارات التى يفتقر اليها الكويتيون ) ويمثلون ٥٠٪ من يجرع السكان . وهناك عدم ارتياح كبير - الداخل - ازاء التفاوت بين دخل الكويت والبذخ الذى تعيش فيه أسرة الحاكم ، وما يضاعف من هذا الشعور ولا يخففه استثمارات الحاكم العامة ، وهى ضخمة . وهناك أسباب أخرى للتوتر ، ليس مبعثها سلوك الحاكم نفسه ، وانما سلوك الكثيرين من أقاربه الاوتوقراطيين . وما يضاف من حدة الحق أن الحاكم يشمر فائض رأس المال الكويتى الضخم فى لندن ، وإلى جانب هذا الحق ترتفع المطالبة بتوثيق عرا الوحدة مع بقية بلدان العالم العربى .

وكانت ثورة العراق فى يوليو عام ١٩٥٨ تمثل خطراً مباشراً للحاكم ، الذى قابل الرئيس ناصراً صراحة وأمام الجميع ، فى دمشق ، وعبر عن تعاطفه مع القومية العربية . وقد أحس بفاق كبير أيضاً ازاء النشاط الشيوعى بالعراق . ونستطيع أن تنبأ بحديث تغير كبير فى الكويت ، فى الحكم والعلاقات الخارجية .. وستعرض بريطانيا لازمة

خطيرة نتيجة لتأثر لندن بهذا التغير ( عندما يعاد توجيه رأس المال  
 الكويتي إلى التنمية العربية ) ، وفاق بريطانيا على بترول الكويت ،  
 وتنطبق هذه المشكلة العامة على بقية الامارات العربية في المنطقة ،  
 والاقتراحات المتكررة المنادية باستخدام القوة ليست إلا ضرباً من  
 التكهّنات المألوفة التي لا تحتمل نتائجها التفكير . وقد كان حراً  
 بريطانيا ، منذ أمد طويل ، أن تعيد النظر في سياستها في هذه المنطقة ،  
 ولا يمكن أن توجّل بريطانيا هذه الخطوة إلى أجل غير مسمى .



## الفصل السابع

### الثورة العربية الداخلية

كانت الاضواء مسلطة ، في الفصول السابقة ، على المسائل الخارجية - على الصدام بين القومية العربية والدول الكبرى ، والسعى وراء الوحدة العربية ، والصراع مع اسرائيل . غير أن المبدأ الذي سارت عليه هذه الدراسة هو أن وراء هذه الازمات الدولية تيارات قومية في داخل العالم العربي ، عملة في تغييرات اجتماعية واقتصادية ، ولتألو فهمنا هذه التيارات لكان من الممكن تغادى جزء كبير من العاصفة . لقد غاب عن ذهن العالم أن هناك ثورة عربية عميقة ومستمرة في داخل العالم العربي - ويرجع هذا إلى أن الزعماء الوطنيين أنفسهم كانوا يوجهون تصريحاتهم العامة - على الدوام - نحو المسائل الخارجية ، ومن المؤكد أن هذه المسائل الخارجية كانت تشغلهم ، وهناك سبب آخر ، وهو أن فكرة الغرب عن المجتمع العربي ظلت خاضعة لتصوراته وحریم لیالی بألف ليلة وليلة ، وعن ساسة فاسدين لا يكتفون للفساد والفقر ، وود الرعاع الجهلة .

والواقع أن أسلوب التغير الاجتماعي والاقتصادي في العالم العربي ، والمشاكل التي يثيرها ، إنما يشمل كل مظهر من مظاهر الحياة الانسانية

وعلى مستويات تتراوح بين مستويات عصور وسطى إلى مستويات حديثة. فما زال في اليمن نسوة تنغرز في أذرعهن حلقات حديدية عتبا لمن. وفي مصر نجد أن النقاب التقليدى يخفى بسرعة بحيث نستطيع أن نحس بالنطور عاما بعد عام . وفي العربية السعودية ما زالوا يقطعون يد السارق غير أن الطبيب يستطيع الآن تعقيم الجزء الباقى. والواقع أن النظم القانونية فى كثير من بلدان العالم العربى ، هى نظم حديثة ، وبرامج الصحة العامة والخدمات الطبية قد قطعت أشواطا مذهلة إلى حد أن زيادة السكان صارت مشكلة خطيرة .

ولقد كانت هناك أشواط سريعة فى ميادين التعليم العام ، والصحة ، والمواصلات ، والصناعة ، وذلك فى ظل الانتداب وغيره من الحكومات ، خلال ما عرف قبل الثلاثين سنة الانتعالية من ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢ . غير أن هذه الاجراءات لم تكن كافية ، وبخاصة فى المناطق الريفية ، وكانت الفلسفة السياسية والاقتصادية لتلك العهود فى هذه الفترة تؤمن بمبدأ عدم تدخل الدولة فى شئون الفرد ، وكان الفساد مستشرياً . وبينما تضاعفت ثروات كبار الملاك والشخصيات البارزة ، لم تخف وطأة الفقر التى تعاني منها الكتلة الغالبة فى الدول العربية . وازاء هذه الاوضاع . ونتيجة لتأثير الامكار الغربية الحديثة عاجل الوطنيون ، فى الجيل الجديد . عاجلوا ثورتهم وهم يدركون الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية التى لا يجب أن يرفضها الغربى النافذ الصبر ، على أساس أن المجتمع العربى لم يترك بعد فترة الانتعالي .

فإذا انتقلنا للطابع الاشتراكي للقومية العربية الحديثة ، نعذر علينا وصفه - والواقع أن المراقبين الغربيين كثيراً ما يبدلون جهداً كبيراً لكي يمثروا على أى عقيدة اجتماعية اقتصادية متماثلة في الحركة وهذه العقبة التي تحول دون ظهور مثل هذه العقيدة ليست وفقاً على الجزء العربي من العالم الاقربى الآسيوى . ولكن بما لاشك فيه أن الاهتمام - لعشرات من السنين - للشا كل الخارجية قد حال دون ظهور فكر ناقد صامد بين صفوف القادة العرب . والمشكلة أنه بينما نجد للاشتراكية أغراضاً وأفكاراً واضحة في المجتمع العربي المتطور تاريخياً الصناعى ، المتدرج اقتصادياً ، نجد أن هذه الأشياء ليس لها معنى في العالم العربي ، وأولست ممكنة على الإطلاق . والمعنى المتواضع عليه بالطبع هو استخدام الدولة في توجيه الطاقات البشرية والمادية للأمة ، والسير بها إلى الأمام ولكن بينما تسعى اشتراكية الغرب إلى إعادة توزيع ثروة الموجودة ، يواجه الاشتراكيون العرب المشكلة البالية : باستثناء العنصر - الاقطاعى ، المحدد - نجد أن ، الثروة ، الوحيدة المتبقية هي ثروة الأقلية المثقفة ، هي ثروة الأقلية . والموظفة ، والتجارية ، التي يتوقف عليها ، بالذات ، جهاز الدولة وجهاز الحكم . و ليست هناك مرافق متعددة تغل ثروة . أو صناعات كثيرة يمكن تأميمها . وبينما نجد أن التركيز موجه للاستثمار العام من أجل الصناعة ، إلا أن الاشتراكي العربي يدرك أنه إذا خنق الرأسمالية الخاصة ، فإنه يخنق رقعة حيوية من المهارات التي لا يستطيع أن يجتهد بها ببطالة في السلك المدنى .

واشتراكية الزراعة قد تكون مثلاً أعلى رائعاً ، غير أنها تؤدي - في

ميدان التجربة - إلى صراع مع غريزة تأصلت في الفلاح ، وهي غريزة الامتلاك - وما يعزز هذه الغريزة أن الفلاح أى ويشك إلى حد كبير في « الحكومة » . وإذا أردنا أن نصور هذه المشكلة بطريقة مبسطة ذكرنا حال رجل يشترك مع إخوته الخمسة في ثمار شجرة تين واحدة . وهو يعاني من صعوبات كثيرة من أجل انتزاع ما يمسك رفق أسرته من شريط من الأرض بحرقه بطريقة بدائية ، وتعرضه للسلطة عليه أن هناك ضرائب وإيجارات باهظة ، ومرايين يؤيدهم البوليس . غير أن مثل هذا الرجل لن يرحب ، ببساطة ، بالانضمام إلى جمعية تعاونية .

موجز القول أنه لكي يخفف من حدة الشكوك في دعاوى « المجتمع الاشتراكي التعاوني » الذي تنادى به القومية العربية ، فعلينا أن نذكر أن الوصفة الغريبة لا يمكن أن تحل مشاكل العرب الاجتماعية والاقتصادية والواقع أن الوظيفة الحديثة ( أو الاقتصادية المثقف ) رضع روح الاشتراكية الغربية ولم يتشبع بطريقة التطبيق نفسها وهو يريد تحقيق اشتراكية الغرب هذه في بلده . إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بالتجربة والذكاء إنه لا يستطيع أن يقلد .

إنه يبدأ بتسليط الأضواء على التعليم ، وهو من الخطوات الأولى التي تتم في سرعة وحماسه بعد الحصول على الاستقلال الكامل . ويكفي ، لكي نلقى نظرة على هذا ، أن نقول : إن عدد الطلاب المراكشيين ارتفع من ٢٨٧٠٠٠ في عام ١٩٥٥ إلى أكثر من ٦٢٥٠٠٠ في عام ١٩٥٦ . وفي مصر قطعت الحكومات أشواطاً هائلة في ذلك الميدان في فترة الثلاثين عاماً الانتقالية التي ذكرناها في فصل سابق ، ومن بين النتائج أن نسبة

خارجي الجامعات المصرية عام ١٩٤٦ إلى عدد السكان زاد على النسبة الموجودة في بريطانيا بأحد عشر ضعفاً ، وكان التعليم في فلسطين أيام الانتداب البريطاني جديراً بالاهتمام ، فلقد تخرج على يديه سكان فلسطينيون ( معظمهم لاجئون الآن ) يعدون من أكبر المتقنين سياسياً في المنطقة بأكملها ، وفي ربيع العالم العربي كله كان الهدف من السياسة التعليمية الوطنية هو جعل اللغة العربية اللغة الأساسية إلى جانب جعلها لغة الثقافة .

ومع ذلك فإن الصورة العامة مازالت صورة أمية ترتفع إلى ٧٥٪ ، وتحتاج إلى المهارات الفنية الحديثة ، مما يعرقل سير التطور الاقتصادي السريع ، أضف إلى هذا أن تزايد السكان بصفة دائمة سريعة يثقل كاهل البرامج الخاصة بتشديد المدارس بل إن هناك سباقاً رهيباً من أجل مواجهة هذه الزيادة مستقبلاً بالاكبال الرغبة في تحقيق الهدف العام من جعل التعليم متاحاً للجميع في المستويات الأولية . والعليا في النهاية . وبالإضافة إلى ذلك ليس هناك عدد كاف من المدرسين المؤهلين .

ومنذ عام ١٩٣٦ اضطرت معظم البلدان العربية إلى استعارة المزيد من المدرسين المصريين أو الفلسطينيين والسوريين أو منهم جميعاً .

ومن المقاييس المباشرة التي تدل على وجود حكومات وطنية حديثة الإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الأرض ، وقبل الاستقلال كان الأوروبيون يمتلكون ربع الأرض التونسية ، غير أن الحكومة تشتري الآن هذه العقارات في الوقت الذي يتضاءل فيه عدد هؤلاء الأوروبيين ( ومعظمهم من الفرنسيين ) وستقوم الحكومة بتوزيع هذه الأرض على

المعدين ، وما زالت تلك الأراضي الجزائرية المزروعة ملكاً لحوالي ٢١٠٠٠ أوروبي ، ويعيش ٦ مليون مسلم ( جزائري عربي ) على الجزء الباقي ، منهم ٣ مليون معدم ، لا يشتغلون إلا أياماً قلائل كل عام . وفي مصر قبل ثورة ١٩٥٢ . كان خمس الأرض المزروعة ملكاً لآل في شخص ( من بين ٢٠٧ مليون شخص ) وقد صارت الدولة ذلك ، وأعادت توزيع الأرض على حوالي ١٠٢ مليون مزارع ( كما أصدرت قانوناً بتحديد إيجار الأرض ) وقد وفر هذا على المستأجرين حوالي ٤٠ مليون جنيه سنوياً ( ولقد أقدمت الثورة العراقية على إجراء مبكر مماثل ، فصادرت عقارات شيوخ القبائل الضخمة ، وقبل عام ١٩٥٨ ، في ظل حكم نوري السعيد ، كان ٩٦٪ من المزارعين معدين .

وما اتحدت سورية مع مصر عام ١٩٥٨ حتى بدأ الإصلاح الزراعي في سورية أيضاً . ولم تنفذ الإصلاحات في لبنان بعد ، فنصف الأرض المزروعة في يد حوالي ٢٠٠ مالك كبير من ذوى النفوذ السياسي الضخم .

غير أن النتائج الاقتصادية للإصلاح الزراعي هي نتائج محدودة بالضرورة ، إن الإصلاح الزراعي يعيد توزيع السلطة السياسية ، ويتبع قسراً وفيراً من الكرامة للزارعين المضطهدين وبالنسبة للعراق نجد أن إعادة توزيع الأرض أمر حيوي جداً ، لأن الملكية المديمة كانت ذات طابع اقتصادي تام ، وستكون النتائج الاجتماعية والاقتصادية ذات طابع ثوري تماماً ، غير أن الإصلاح في حد ذاته لا يحل مشكلة تضخم السكان الريفيين .



ونظراً لأن الملاك الجديد غير ملين بضخون الزراعة الحديثة كان من الضروري تنظيمهم داخل جمعيات تعاونية إجبارية ، وجعلهم يزرعون بطريقة موحدة ، ووضح أن التعاونيات الزراعية في حاجة إلى التوسع لكي تشمل جميع الأراضي الزراعية العربية باعتبارها الوسيلة الوحيدة للنجاة للمزارعين بالبذور والسما والآلات ، وتوفير محاصيل عالية لمواجهة تقسيم الأرض ، وضمان تسويق ملائم ، وهذه الأهداف واضحة في مصر وسورية والعراق وتونس والقوميون العرب يكرهون الفكرة الشيوعية للزراع الجماعية ، والتعاون هو الحل البديل ، ويجب نشره عن طريق الاقتناع .

إن المشكلة الكبرى هي توسيع الرقعة المزرعة إلى أقصى حد يمكن أن تسمح به المياه المتوفرة ، والمطر المباشر لا يوفر سوى فرص محدودة . ويحدث في مناطق كثيرة ( في أجزاء من مراکش على سبيل المثال ) أن تتراوح نسبة الأمطار من عام إلى عام بحيث تحول دون استقرار الحضارة . وهناك بضعة عامة مصائد كبيرة للماء في العالم العربي : جبل الأطلس في المغرب . مياه النيل في مصر والسودان . مشروع وادي نهر الأردن الذي يؤثر على لبنان وسورية والأردن وإسرائيل . ونهرا دجلة والفرات في سهل العراق الكبير اللذان يؤثران أيضاً على شمال سورية . ومن آسئ العالم العربي في منتصف القرن العشرين أن الاستغلال السليم للملح لهذه المياه لم يتم في وقت مبكر عاجل .

غير أن هناك مشروعات استغلال عديدة في الطرق في الإفطار المختلفة . ومن أهمها المد العالي ، ويهدف هذا للمشروع العملاق إلى تخزين

مياه النيل أثناء الفيضان، وسيروى المزيد من الأراضي. والفرص المتاحة في السودان لتوسيع الرقعة المزروعة هي فرص أكبر ، وفي مقدور مشروعات الري السورية لتوسيع الرقعة المزروعة إلى النصف ، واليوم يستعيد العراق نظامه في الري ( وهو النظام الذي حطمه غزو المنول في القرن الثالث عشر) عن طريق الحدود والقناطر التي تتحكم في الفيضان ، ومن الممكن زيادة نسبة الأراضي المروية حوالي ٥٥٪ غير أن فائدة مشروع وادي نهر الأردن موقوفة بسبب النزاع مع إسرائيل .

ولذا استخدمت مياه هذا النهر استخداماً صحيحاً أمكن توفير أرض جديدة لحوالي ١٦٠.٠٠٠ أردني ( بخلاف ما يظنه البعض من أن كافة اللاجئين (٥٠٠.٠٠٠) هم مستفيدون ) .

وتختلف قدرة هذه المشروعات على حل مشكلة السكان من بلد لآخر إلى بلد آخر، وهي لا تدعو إلى كبير الأمل كما قد يتبادر إلى الذهن . وحتى لو زادت نسبة الأرض المزروعة في الجزائر بمقدار ١٠٠٪ / ووزعت توزيعاً عادلاً واستغلت استغلالاً كاملاً ، فإن هذا لن يحل مشكلة تزايد السكان .

وفي مصر يزايد السكان كل عام بمقدار ٥٠٠.٠٠٠ نسمة ، ولا يمكن أن يحل السد هذه المشكلة في المستقبل ، والواقع أنه عندما تتحقق الزيادة في الأراضي بعد تنفيذ المشروع ، فإنها ستعود بنا إلى النسبة الموجودة حالياً بين عدد السكان والرقعة المزروعة .

هذه هي الاحتمالات التي تواجه المنطقة كلها بصفة عامة . وهي تؤكد

لنا أن الحل الكامل الوحيد هو التصنيع الضخم أيضاً . على أمل الوصول إلى مستوى معيشي رغم تضخم عدد السكان ، وسيؤدي هذا إلى انخفاض نسبة المواليد الأبر الذي حدث في الغرب .

غير أننا إنما نرسم المثل الأعلى هنا . فالتصنيع في حاجة إلى الطاقة ، والطاقة الكهربائية المتولدة من وحدة السد العالي مثلاً تتطلب استثمار رؤوس أموال ضخمة .

وبما يميز المناطق المتأخرة عادة أن نسبة تكوين رأس المال في الداخل منخفضة : أما العراق فيتمتع بمركز ممتاز بين البلاد التي تقدر على التصنيع ؛ وذلك بفضل الدخل الذي يأتيه من البترول .

وإذا استقلت الجزائر واغتنت ثروات بترول الصحراء فإنها ستتمتع بدورها بمركز ممتاز . وبخلاف هذا لا بد من جلب رأس المال من الخارج ومن المناطق العربية المنتجة للبترول عند الخليج العربي ، والتي يقل فيها عدد السكان ، ويزيد فائض رأس المال ( وبخاصة الكويت الذي يبلغ تعداد سكانها ٢٠٠.٠٠٠ ، ويبلغ دخلها السنوي من البترول ما يزيد على ١٠٠ مليون جنيه ) .

### الأنظمة السياسية

إن العالم العربي الذي يعاني آلام أزمة خارجية ، ويواجه هذه المشاكل الاقتصادية الخطيرة يجد نفسه أيضاً هدفاً لثورة سياسية داخلية ضخمة . وكما هو الحال بالنسبة للمركة الاقتصادية لا نجد اختياراً واضحاً المعالم بين الأنظمة السياسية المتفق عليها .

ومن أعتقد الدروس التي يجب أن يتعلمها الغرب من أحداث أفريقية وآسيا في العشر سنوات الأخيرة أنه يتعلم حين يظل أن هناك اختياراً واضحاً بين الديمقراطية ، أو الشيوعية ، ولقد فهم من الديمقراطية ، أنها حكم برلماني حزبي على الطراز الغربي .

ولقد كانت هناك دساتير سليمة على الطراز الغربي في مصر والسودان وسورية والعراق وباكستان وغانا وبورما ، وغيرها من البلدان الأفريقية والآسيوية .

وفي العالم العربي كانت ديمقراطية الغرب هي التراث الغالب للبادئ السياسية بين أوساط المثلمين الذين تعلموا في مدارس الغرب وكلياته ، أو في المدارس والكليات المنارة به . وفي الثورات المتلاحقة التي قامت بها الحركات القومية الحديثة ، كان هذا النوع من الديمقراطية هو الهدف الأساسي . سواء في ذلك الثورة التي قادها ناصر أو الثورات الأخرى .

غير أن الحقيقة المألمة هي أن الديمقراطية النيابية ذات الطابع الغربي أخذت تنهار بصورة متزايدة ، ولقد اختفت أو تم تعطيلها في أنحاء هذه المنظمة الضخمة .

وبالنسبة للعالم العربي نجد أن أكبر وآخر صدمة للأمل التقليدي الحر ذلك الانقلاب الذي قام به ضباط الجيش في السودان .

وفي الوقت الذي أدون فيه هذا الكتاب أستطيع أن أصف الاشكال السياسية في البلاد العربية في إيجاز على النحو التالي :

### مراكش :

نص الميثاق الملكي الذي أصدره الملك محمد الخامس عام ١٩٥٨ على أن يحتفظ الملك بالسلطة التشريعية. ويجب إجراء انتخابات للمجالس البلدية والقروية، وتقوم هذه المجالس باختيار ممثلها في مجلس أمة يصوت على الميزانية. وفيما عدا ذلك يكون رأيه استشارياً ، وفي النهاية ، وفي تاريخ لم يحدد سيتم انتخاب نواب المجلس عن طريق التصويت العام للجميع .

### الجزائر :

ما زالت الجزائر فرنسية حتى الوقت الذي أكتب فيه ، ولهذا لا تكاد أنظمتها السياسية تتصل بهذه الدراسة .

### تونس :

تم انتخاب الرئيس بورقيبة دون معارضة في نوفمبر ١٩٥٩ وهو يمارس سلطات ضخمة للغاية ، وليست هناك حرية صحافة بالمرّة . ويحتفل أن يوفر الدستور الذي يعد الآن سلطة تنفيذية قوية ياتجهها الشعب ، وأقل لفترة محدودة ، ومجلساً نيابياً تدل الظروف الراهنة على أن سلطانه ستكون محدودة للغاية .

### ليبيا :

يشرع الملك إدريس الأول عن طريق المراسيم الملكية إلى حد كبير بالرغم من وجود برلمان ، وإجراء انتخابات عامة مرتين ، ولا مفر في هذه المرحلة المبكرة للغاية من حدوث صراع بين مصر والبرلمان .

السودان :

منذ نوفمبر من عام ١٩٥٨ أخذت ثلة من ضباط الجيش تحكم بمرسوم، وعطلت الدستور النيابي ، وحظرت قيام الأحزاب . ولم تتضح نيات عبود في الصورة السياسية للمستقبل ، غير أنه أشار إلى أن السودان لا يعتبر « مهياً للديمقراطية الغربية » .

الأردن :

في أبريل ١٩٥٧ خلع الملك حسين الوزارة التي انتخبها أول برلمان أردني ، والتي كانت قد عادت بانتخابات حرة في أكتوبر ١٩٥٦ وبعد حضي أكثر من عام على الأحكام العرفية أصبح النشاط السياسي قاصراً على الأشخاص والأحزاب الذين يوافق عليهم الملك وهو يعتمد على جيش تم تطهيره من الضباط الوطنيين ، ويعتمد بصفة خاصة على البدو المخلصين له .

لبنان :

كانت آخر انتخابات منظمة هي انتخابات عام ١٩٥٧ ، وفي أعقاب الحرب الأهلية يلعب الرئيس المحايد شهاب دور الحكم في مجلس وزراء أعضاؤه من الطرفين المتناحرين والانتخابات البرلمانية في حاجة إلى قسط مجعول من الثقة والهدوء .

## العراق :

منذ عام ثورة يوليو عام ١٩٥٨ تولى قاسم سلطات رئيس الوزراء .  
وفي يناير ١٩٦٠ صرح بقيام نشاط سياسي للثلاثة أحزاب الشيوعية  
أو الحاضمة للشيوعيين ( ومنهم طائفة كردية ) والحزب الوطني  
الديمقراطي . ووعده بإجراء انتخابات للبرلمان الجديد في يوليو سنة ١٩٦٠

## البحرية السعودية :

ملكية إسلامية مهيمنة دون مجلس تشريعي ، يقوم فيها بالدور  
الاستشاري مجلس وزراء يتألف أعضاؤه من الأسرة المالكة ، أما السلطة  
القضائية الوحيدة فتتمثل في السلطة الإسلامية ( طائفة الوهابيين المتزمتين )  
أما البلدان الأخرى ، ومنها اليمن ، فتسير على نظام أوتوقراطي إلى  
حد كبير ، في ظل أسرها حاكمه خاضعة أو غير خاضعة لإشراف بريطاني  
بحقنضى معاهدات .

وموجز القول أننا لا نستطيع أن نجد في أي مكان بالعالم العربي أمراً  
لديمقراطية كما يفهمها الغرب في النظرية والتطبيق .

ولكن من الخطأ الفاحش أن نظل عند الافتراض القديم القائل بأن  
انعدام الديمقراطية سببه مطامع شخصية تسعى وراء السلطان أو أن انعدام  
الديمقراطية راجع إلى عيوب ، كامنة في العرب . إن المشكلة ليست بهذه  
البساطة مطلقاً ، كما أن الزعامة القومية المتسلطة لا تخضع لمجرد الانانية .  
فهناك شعور متزايد بأن نظام الديمقراطية الغربية القائم على حرية النشاط

للأحزاب ، لا يمكن نقله إلى المجتمع العربي بكل بساطة ، وأن المحاولات السابقة لتفايد النظم الغربية فشلت لا بسبب طابع الزعمامة السياسية وحدها وإنما ظروف المجتمع العربي تختلف كثيراً عن الظروف التي تعيش فيها الديمقراطية الغربية .

وجدبر بنا أن نقول إن الذين عبروا عن شكوكهم لم يقدموا بعد تفسيراً واضحاً أو فلسفة جديدة مناسكة للديمقراطية . ومرة أخرى نرحم بعض هذا الضعف إلى الانشغال - في الماضي - بالمشاكل والازمات الخارجية ، ونرجعه أيضاً إلى أن الكثيرين من المنشككين ليسوا من المفكرين المثقفين وإنما من الضباط "نشطيين المثقفين" .

ومن بين الأسباب أيضاً عدم وجود نظام أجنبي بديل غير شيوعي ، يسترشدون به ، وعدم خضوع "لديكتاتوريين" لما يجعلهم يداقون غن هذه الشكوك أو يبحثونها . غير أن الدراسة المتفحصة لمجرى السياسة العربية الحقيقي ، إلى جانب المناقشة الدقيقة مع المنشككين ، تستطيع أن تفضي بنا إلى مجموعة من الاستنتاجات .

إن الغالبية العظمى من اللاحقين العرب أمية ( ولبنان هو الاستثناء الوحيد ) وهي فقيرة للغاية ، ولا تشعر - كما يشعر المواطنون الغربيون - بأنها جزء من دولة تتألف من أمة . كما أن معظم العرب يفتقرون إلى تنظيم اجتماعي يشعرهم بأهم مواطنون في أمة . وليس هناك وجه للفارقة المجدية بين الحكم التركي النعالي ( أو السلطات القبلية المحلية الممصلة ) ونظام الحكم الذي ظهر في أوروبا خلال نفس القرون . كما أن العالم العربي



لم يعرف الروابط بين الفرد ومجتمعه ممثلة في البرلمان أو الحكم الذاتي المحلي ، أو النقابات ، أو غيرها من الهيئات التي تقوم بوظيفة أو الكائنات - هذه الروابط التي كانت لها أهميتها في ظهور الديمقراطية الغربية .

والذي حدث أن النلة العربية المتفتحة استوردت إطار الدولة الغربية المؤلفة من أمة ، واستوردت نص الدستور وروح الديمقراطية الغربية ومبادئها ، وأدخلت هذا كله على مجتمع مشلول سياسياً . وما زالت هناك أغلبية زراعية تعيش في فراغ اجتماعي حقيقي . والروابط والالتزامات التي يعرف بها المزارع العربي موجهة إلى رئيس الأسرة ( وقد تضم الأسرة الآلاف ) والأقرباء ، والعلماء ، وصاحب الأرض . وإذا كان مسلماً فإنه يشعر بأنه جزء من الأمة ، أو المجتمع الإسلامي ، ولكنه بالرغم من أنه قد يبجل شيخ الأزهر أو الملك سعوداً ، فإنه يفتقر إلى التدرج الوظيفي الذي يشعر به أنه جزء عامل من مجتمع أكبر .

ومن المؤكد أن أفق المزارع العربي أنفع نتيجة لظهور القومية وفكرة إمكان تحقيق التقدم . إنه يعجب بزعيم مثل بورقيبة ، أو ناصر ، أو قاسم غير أنه يعجب به كبطل لا كرئيس لدولة ديمقراطية مؤلفة من أمة هو فيها مواطن له حقوق وعليه واجبات والقومية قد قربته من فكرة ديمقراطية تتصل بالكرامة والرخاء المادي أكثر مما تتصل بالمسؤولية في الحكم . والواقع أنه لن يرحب كثيراً بفكرة كون زعيمة حكومة ، - بالمعنى الغربي - لأن الحكومة ترتبط في ذهنه برجل يحمي ليجمع للضرائب ويصدر الأوامر .

وعلى هذا النوع من الناخبين تعتمد الديمقراطية الغربية ، غير أن النظام في حاجة إلى أقلية المتعلمة . ولهذه الأقلية مستوى معيشي تريد الاحتفاظ به وتؤدي إلى تضارب مع مطالب الجماهير . وقد يتطلب الأمر استصدار قانون الإصلاح الزراعي وبذلك تشرع الأقلية ضد نفسها . . .

والأحزاب السياسية لا تستطيع أن تكون تمثيلية في عضويتها وزعامتها . ولا يمكن تقسيمها طبقاً للطبقات . والتقسيم طبقاً للدخل يحول دون التقدم والوحدة : والأحزاب تميل إلى التعبير عن قوى تقليدية وجماعات مثقفة ليس هناك فائدة من نظرياتها .

وإزاء هذه الأوضاع ، وإزاء الحاجة إلى سلطة تنفيذية قوية مستقرة غير فاسدة ، لا يمكن أن نطعن إلى جدوى ديمقراطية على الطراز الغربي . ولقد دلت التجربة على عدم جدوى الديمقراطية النيابية الحزبية . وليس هناك دليل واضح لتحديد المعالم .

والمشهد الذي يصور هذا السعي هو مشهد ضابط وطني عربي تحيط به كتب الغرب عن السياسة في النظرية والتطبيق ، إذ ينحى هذه الكتب جانباً ويقول : لا أستطيع أن أسترشد بهذه الكتب في حل مشاكلنا ، لأنه متشبع بأراء ديمقراطية ، ومشكلته هي ترجمتها إلى نظام سياسي متطور أبداً ، نظام يكفل وجود حكومة مستقرة ونظام داخلي ، ووحدة قومية ، واضطلاع المزارعين بالمسؤوليات الديمقراطية .

والواقع أن الاتجاهات التجريبية الجديدة نحو الديمقراطية في العالم العربي متصل بأراء ثلاثة : أولاً أنه يجب انتخاب السلطة التنفيذية

في انتخاباً شعبياً — لفترة محددة، ويجب ألا تتعرض هذه السلطة لخطر برلمان حزبي، موجز القول أن النظام الدستوري البريطاني أقل الأنظمة ملائمة، والرأي الثاني أن الديمقراطية لا يمكن أن تنمو من القمة وإنما من القاعدة، من مزارعين عرفوا ما تقرضه الديمقراطية من حقوق وواجبات، ومعنى هذا أنه إلى أن يتم تدريب هؤلاء المزارعين على الديمقراطية، فإن حرية الأحزاب السياسية الوطنية غير مرغوب فيها، ولا تؤدي في الواقع إلى الديمقراطية، والواقع، في غمرة الشك المعاصر، أن الأضواء تسلط على مخاطر ديمقراطية قائمة على الأحزاب وعدم إمكانية ذلك، ويرجع هذا إلى نقاد صبر ضباط الجيش بالسياسة المدنيين في وقت يتطلب تقدماً صريحاً، غير أن المدنيين المثقفين أنفسهم لا يفتقون الآن في الدور الذي يمكن أن تلعبه الأحزاب.

أما الأسلوب الثالث، فهو أسلوب الرئيس جمال عبد الناصر وزملائه لم يتخل ناصر لحظة عن مثله الأعلى القديم المتفائل الذي يدور حول أمة متحررة من الاستعمار والاستغلال الداخلي، أمة تتجه — وهي متحدة صامدة — نحو مجتمع عادل يسوده الرخاء، وهو يعترف بأن هذه الصورة الوردية كانت لديه قبل ثورة ١٩٥٢ وأنه أصيب بخيبة أمل عندما رأى تناحر الأحزاب القديمة واليوم يعتمد على اللاحزبية.

ولقد تم انتخاب لجان القرية لتدريب الفلاحين على الديمقراطية، كما تم أيضاً انتخاب لجان المركز والمديرية.

وإذا قامت هذه اللجان بوظائف نافعة ملبوسة فإن هذا سيكون  
 — في حد ذاته — خطوة ضخمة إلى الأمام ، ذلك لأن الجماهير — في  
 مصر وسورية وغيرهما — لم تعرف معنى الارتباط بالحكومة عن طريق  
 المسئولية المحلية .

ويعلن الاتحاد القومى أنه من هذه التاعدة في الحرم الاجتماعى يمكن  
 إضافة دوائر التمثيل الديمقراطى حتى نصل إلى السلطة التنفيذية عن  
 طريق المرحلة التشريعية الاستشارية ، إلى أن تظهر فى تاريخ لم يحدد  
 أحزاب جديدة نيابية ، وإلى أن يبين ذلك ليس من شك فى أن السلطة  
 التنفيذية ستظل قوية ، وستثبت شعبيتها عن طريق الانتخابات فقط ،  
 ولن تكون هذه الانتخابات ديمقراطية إلا فى ظل جو معقول من  
 المناقشة وحرية اختيار المرشح والتصويت السرى .

وختاماً نقول إنه سيكون هناك انتقال تدريجى جديد من ناحية الديمقراطية  
 ما دامت السلطة التنفيذية متوفرة .. وما دامت تتسامح وتهم بالنقد فى  
 الصحافة وغيرها ، وتقدر على كسب ثقة الأقلية المثمنه التى تعلمت من  
 الغرب ، ومن المؤكد أن هذا العنصر الأخير هام جداً . يجب استغلال  
 المطامع الشخصية ، والاهتمامات الحرة والرغبة المخلصة فى تقديم الآراء  
 والطاقت المتوفرة لدى الأقلية المتعلمة فى العالم العربى ، يجب استغلالها  
 كاملة فى الحكم والتنمية .

وما زال البحث مستمراً عن أشكال جديدة للديمقراطية الأفريقية  
 والعربية والآسيوية ، وليس الحكم السابق سوى حكم تجريبي للغاية ،

ومن الواضح ، وأما أكتب هذا الفصل ، أن القومية العربية قد دخلت مرحلة جديدة من الصراع ضد الشيوعية في الداخل ، والشيوعي العربي ليس بالضرورة مقلداً أعمى للنظام السياسي السوفيتي ، أو بالتجربة الصينية مع الكوميون .

ولكن من الممكن أن تتنبأ بأن وصول حزب شيوعي عربي إلى السلطة سيفرعن أشكال بشعة (ووحشية إذا نظرنا إلى أحداث العراق) من الضغط السياسي ، بصورة لم يسبق لها مثيل حتى في ظل الدكتاتورية العسكرية المصرية .

والواقع أن المعركة الداخلية في العالم العربي في العشر سنوات القادمة ستأثر بمدى قدرة القيادة اللاشيوعية على توفير أنظمة سياسية جديدة تنضج بسرعة ، إلى جانب التقدم الاقتصادي ، لكي تنافس بذلك المثل الصيني السوفيتي . وهذا المثل أكثر اتصالاً بالظروف العربية من ظروف الغرب .

موجز القول أنه جدير بالغربي أن يدرك أن الاتحاد السوفيتي والصين يستطيعان الوقوف موقف « الصديق ، الأجنبي . . . » والامر الأخير شيء لا يستطيع الغرب أن يفعله ، فهو لا يستطيع أن يقدم ببساطة أنظمة عربية جاهزة ، والغرب لا يستطيع أيضاً أن يضع نفسه بسرعة موضع الصديق ، نظراً لسياسته في الماضي ، غير أن الغرب يستطيع أن يساعد المثقفين والساسة العرب في سعيهم وراء أيديولوجية ديمقراطية جديدة نابعة من أرضهم .

وهناك حاجة إلى البحث الأكاديمي على الأساس التالي: إن الدستور العربي المثالي قد لا يكون الشكل الوحيد للديمقراطية .

وفي نفس الوقت ، من الواضح أن جواً من الحرية في العالم العربي خلال فترات الانتقال، سيتوقف على اختفاء الضغط والمؤامرات الغريبة فالتخوف من هذه الأشياء يقف حجر عثرة أمام توفير هذا الجو، وسيظل الأمر كذلك طالما ظل الصراع مستمراً بشأن الجزائر و عدن وإمارات الخليج العربي والقواعد الغريبة في المنطقة .

وأخيراً هناك حاجة ملحة واضحة إلى رأس المال والمعونة الفنية الأجنبية . ولن يمكن التغلب بسرعة على آثار السنوات الماضية ، حين كانت مساعدات الغرب مرتبطة إلى حد كبير بظروف الحرب الباردة . وسواء أَرْضِيَتْ الكتلة الصينية السوفيتية أم لم ترضَ يجب أن تصل معونة الغرب للعالم ولبنية دول آسيا وإفريقية من طريق الأمم المتحدة .



## الفصل الثامن

### العرب واسرائيل

---

سبق أن ذكرنا مدى تأثير القومية العربية ، منذ عام ١٩١٧ ، بهجرة اليهود إلى فلسطين ، وهي التي بلغت ذروتها في ظهور دولة اسرائيل ، ولقد أضاف العاملان إلى القومية العربية شعوراً بالمرارة والخوف بصورة لم تعرفها أية حركة أفريقية أو آسيوية ، كما أنهما ضاعفا من عنف العداء الوطني تجاه دول الغرب الثلاث فالحكومة البريطانية هي التي أذاعت وعد بلفور ، والهجرة تمت وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ( بالرغم من الجهود التي بذلت بعد ذلك لتخفيف حدة الهجرة ) والولايات المتحدة أيدت هجرة اليهود من مصكرات النفي بعد الحرب العالمية الثانية وبعد قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ . وقد سارع الرئيس ترومان إلى الاعتراف الفعلي بدولة اسرائيل . ويشعر العرب بالكراهية تجاه فرنسا لأنها توأطأت مع إسرائيل في معركة سيناء عام ١٩٥٦ ، إلى جانب دورها في الحرب الجزائرية .

ولقد عجلت أحداث فلسطين بدخول الاتحاد السوفيتي إلى العالم العربي كدولة في الشرق الأوسط ، وذلك بعد أن عدل الاتحاد السوفيتي .

من سياسته عن عهد بعد أن كان يؤيد قيام دولة اسرائيل ، وأصح الآن يتبنى - صراحة - قضية العرب ضد اسرائيل ، ونجد أيضاً أن الصراع بين العرب واسرائيل كان سبباً في اتفاقية الأسلحة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا ( أى الكتلة السوفيتية ) وذلك في أواخر عام ١٩٥٥ وهو أول نجاح من نوعه تحرزه كتلة سوفيتية ، ومع ذلك ، ليس من شك في أن ظهور الاتحاد السوفيتي كدولة تهتم مباشرة بمسائل الشرق الأوسط كان أمراً لا بد منه . وكانت الاحتمالات تشير إلى دخولها إلى المنطقة كمنصر آخر للأسلحة ، غير ان سرعة هذا الاتجاه ، وطابع الحرب الباردة الذي اتسم به ، إنما ظهرا بسبب الاهتمام بمستقبل فلسطين ، ومن بين نتائج هذا التطور تلك العلاقات الدبلوماسية والسياسية الوثيقة بين وضع اليهود في بلدان الكتلة السوفيتية وعلاقة الاتحاد السوفيتي بالعرب أن الشيوعية السوفيتية تعادى الصهيونية كحركة دولية تنادى بالولاء لدولة غير الدولة التي يجد فيها اليهودى نفسه . فاذا أضفنا إلى هذا العداء المعاداة المحلية للجنس السامى ، رأينا اليهود الموجودين في بلدان الكتلة السوفيتية يفتقرون إلى الأمن ، فيما ترغب الحكومة الاسرائيلية في جلبهم إلى اسرائيل ، غير أن قرارا يتخذه الاتحاد السوفيتي للسماح بهجرتهم يجب أن يأخذ في اعتباره العلاقات بين روسيا والعرب ، وذلك لأن العرب يخشون أن تتوسع دولة اسرائيل الصغيرة بعد هجرة اليهود إليها .

والدور الذى لعبته فلسطين في السياسة السوفيتية لم يضاف سوى



عوامل جديدة في تصارع القوى ، لقد وقعت الدول الغربية في حيرة ،  
أزاء سياستها تجاه الصهيونية ، ومبعث هذه الحيرة مقتضيات المصالح  
الاستراتيجية والتجارية لبريطانيا وفرنسا في العالم العربي ، ومصالح أمريكا  
البتولية .

وفي عام ١٩٥٦ لمست حكومة موليه ضرورة هجوم إسرائيل على  
مصر ، نظرا لأن مصر تؤيد الوطنيين الجزائريين ، وفي نفس الوقت لم  
ترد حكومة السير انطون ايدن ( المستعرب المـرب ) أن تربط علانية  
بالمهجوم الاسرائيلي . وبصفة عامة ، كانت حكومات الغرب موزعة بين  
ضرورة الإبقاء على روابطها مع العرب ، والرضوخ لضغط الرأي العام  
الغربي المؤيد لهجرة اليهود إلى فلسطين . وفي المرحلة الحاسمة ، بعد الحرب  
العالمية الثانية مباشرة ، ظهر عامل آخر ، هو عدم ترحيب الدول الغربية  
باليهود المنتسبين الذين تبعوا من مذابح النازي التي تعرض لها مليون يهودي  
وكانت المنظمات الصهيونية تعارض أيضاً مثل هذا الاجراء ، حتى لا يؤثر  
على هدفها في بعث دولة يهودية قوية حافلة بالسكان في فلسطين ، وما أن  
أعلن قيام دولة إسرائيل ، وأيدتها الولايات المتحدة حتى استعصت حيرة  
الغرب على الحل .

إن هذا المأزق كامن في البيان الثلاثي لعام ١٩٥٠ ( بين أمريكا  
وبريطانيا وفرنسا ) الذي يسعى إلى ضمان الوضع الراهن في فلسطين ،  
أي الهدنة ، إلى أن يتم صلح نهائي ، وإلى جانب ضمان التوازن بين الأسلحة  
التي توصل إلى إسرائيل والأسلحة التي تتلقاها الدول العربية . غير أن

هذا البيان ظل ممكناً طالما أن الاتحاد السوفيتي لم يكن مهتماً بالامر...  
وعما ضاعف من بطلانه الاجراءات التي أقدمت عليها إنجلترا وفرنسا  
بالاشتراك مع الحكومة الاسرائيلية في حرب سيناء والسويس .

وهناك أسباب متنوعة لذلك التأييد الدولي لحنين الصهيونيين (وهو  
حنين اجماعى بين صفوف اليهود بأكملهم ) إلى العودة إلى وطن يدعون  
أنه ظل يهودياً ٢٠٠٠ عام . ولقد تأثرت الآراء والآمال التي تقف وراء  
هذا التأييد ، تأثرت بنتيجة هذا الصراع .. وكثيرون في العالم الغربي  
ومن بينهم كبار الساسة البريطانيين في الفترة ( ١٩٠٠ - ١٩١٧ ) جعلتهم  
مشاعرهم الدينية يؤيدون حلم الصهيونيين في وطن يهودى في الأرض  
المقدسة . وكانت هناك دعوى صهيونية أخرى ذات نفوذ كبير فخاها  
أن وجود مجتمع يهودى قوى في فلسطين يجعل من الممكن حماية الاماكن  
المقدسة لغير المسلمين وتزويد بريطانيا بقوات صديقة بالقرب من  
قناة السويس .

ومن بين أسباب التأييد الدولي الحر احتمال قيام مجتمع يهودى تقدمى  
حتى في فلسطين ، مجتمع ينقل آراء الغرب الديمقراطية إلى عالم  
عربى منهار .

أما الاهداف الاشتراكية الصهيونية فقد جعلت هذا المفهوم جذاباً  
للاشتركين البريطانيين .. وأخيراً ، كان هناك تعاطف انسانى واسع  
النطاق إزاء ضحايا مرض المعادة للجنس السامى، ذلك المرض الذى وصل  
إلى ذروته عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة عندما أُميط اللثام عن

بشاعة المذبح النازية ، كان هناك شعور لا واعى ، بالذنب بين صفوف كثير من المسيحيين إزاء اليهود وساعد هذا على نجاح الجهود الصهيونية . وفي مقابل هذه الآراء والآمال الايجابية ، كان القمري يحمل الكثير عن العرب وعن فلسطين ، وهو الجهل الذى تحكم فى الكثير من مواقف الغرب إزاء العالم العربى طوال هذا القرن . لقد تدخل فى هذا الامر الكثير من الاساطير والمغالطات التى أشرنا إليها فى فصل سابق . وما أيد دعوى الصيونييين فى أن فلسطين كانت يهودية على الدوام ، ذلك الاعتقاد السائد بأن هذه المنطقة لم تكن جزءا من العالم العربى بكل تأكيد وأن العرب الموجودين بها من الرحل الذين لا يزرعون أو يستقرون . والواقع أن ١٠٪ فقط ( بين ٦٤٠٠٠٠ عربى مسلم ومسيحى فى فلسطين ) من البدو الرحل أما الباقون فإن ٢/٣ منهم زراع مستقرون واثبت الباقى من سكان المدن . ولم يفهم الغرب مشاعر العرب الوطنية ، ولقد تم ابرام اتفاقيات الصلح بعد الحرب العالمية الاولى دون التعرف على مطالب سكان فلسطين أو جيرانها ، وقد أكدت هذه الاتفاقيات عزل فلسطين عن سورية الكبرى ، واعتبارها بلداً يخضع للانتداب البريطانى ليصبح بعد ذلك وطناً قومياً لليهود . والمتدربون الوحيدون الذين أرسلوا إلى المنطقة هم المتدربون الأمريكيون الذى أكد تقريرهم وجود معاداة قوية للصهيونية ، ووجود حركة قومية عربية ، غير أن الدول التى وقعت على دفرساي ، لم تتم بهذا التقرير . ولم يعلن عن هذا التقرير إلا فى وقت متأخر ، عن طريق أحد المتدربين .

وكانت النتيجة مأساة ، مأساة لا مناص منها ، رثستت الآمال

الاستراتيجية والسياسية والاجتماعية التي تمناها مؤيدو الصهيونية في الغرب وذلك نتيجة للعداء العربي. ولم يكن من الممكن التوفيق بين مبدأ الانتداب في حق تقرير المصير للأهالي واستمرار هجرة الاعداء الذين يريدون دعم دولة بتزعما يهود ومن حين لآخر كانت بريطانيا تأمل في وجود اسرائيل موالية للبريطانيين، وحامية للجناح الشرقي لقناة السويس. ولكن، لم تستطع حكومة بريطانيا تعزيز هذا الامل خوفاً من اثاره المزيد من الحق العربي خارج فلسطين، أما الحلم السياسي والاجتماعي الذي يشترك فيه كثير من اليهود، في ايجاد بلد يهودية تكون قدوة للعرب - تخضع تماماً لمساءلة الفلانات الودية والتبائل الحريين الدول العزمية واسرائيل. غير أن العكس هو الذي ساد وكثير من النماذج الباجحة في الاظمة الاسرائيلية - كاتحاد هتادروت المهالي - موصومة لاهلها صهيونية ولقد تبدد الامل في حماية الاماكن المقدسة لا بسبب تهديم فلسطين لحسب، وانما لأن الصهيونيين رفضوا التفكير في تدويل القدس وأخيراً فإن الدافع الانساني الذي أدى إلى هذا التأيد الدولي الكبير لاسيطان اللاجئين اليهود قد ساعد على خلق صراع أدى إلى تشريد ونفي حوالي مليون عربي.

ولكن بالرغم من هذا الفشل الذريع، فإن هناك، في فلسطين دولة حية<sup>(١)</sup>، تقدمية بصورة ملحوظة، دولة يبلغ تعداد سكانها اليهود حوالي ٢ مليون في مقابل ٥٥٠٠٠ عام ١٩١٧. والاتصارات التي حققتها اسرائيل

(١) ليس لاسرائيل مقومات الدولة حتى الآن.

في الداخل تشهد بروح مواطنيها ونشاطهم. ولم تتمكن إسرائيل من تحقيق هذه الانتصارات إلا لأنها كانت تستورد رأس المال بانتظام من يهود العالم وغيرهم من المصادر، وقد بلغ مقداره ١٠٠٠ مليون جنيه منذ ١٩٤٩. غير أن حياتهم، وهذا الاستثمار الضخم، معرضان باستمرار، وبصورة متزايدة، للخطر طالما أن العرب يخشون بما يتبرونه توسعاً معادياً دينياً، في أرضهم. والمآزق الذي تعرض له إسرائيل هو أن ماضيها وايدولوجيتها الصهيونية لا يشيران إلى السلام. وإنما يمثلان خطراً كبيراً لجيرانها العرب. وإلى جانب هذا الماضي الذي يقصره العرب على أنه توسع وطرده لأصحاب البلاد، هناك ذلك المستقبل الذي تتعهد فيه إسرائيل، قانونياً، بل شعت كافة يهود العالم الذين يربو عددهم على ١٠ مليون يهودي والأمداء القريبة لزعماء إسرائيل تتصور وجود ٤٠ مليون ساكن يهودي على الأقل.

عندما هاجمت إسرائيل سيناء أدعى المسؤولون الاسرائيليون أن شبه جزيرة سيناء ليست جزءاً من «مصر» وتحدوا عن «تحرير الوطن» وهكذا، بالنظر إلى الماضي، لا بد أن يصل العرب إلى استنتاجهم سواه كان صحيحاً أو خطأ.

كيف تستطيع إسرائيل تغيير هذه الصور الخفية التي تثير عداء عربياً يرسم للاسرائيليين مستقبلاً مخيفاً أيضاً؟ سؤال من أضخم الأسئلة التي تواجه العالم العربي في هذه الفترة الجديدة والنتيجة الواضحة التي نستخلصها من العشر سنوات الأخيرة المأزومة أن الخطوة الأولى يجب أن تكون من جانب إسرائيل.

## الفصل التاسع الوحدة العربية

كان موضوع الوحدة العربية، والدعوة إليها، والمناداة به العروبة، يترددان كثيراً في التاريخ الذي سردناه في الفصول الأولى . ولقد رأينا كيف أن التراث الدائم للتعريب المشترك، والثقافة والعادات ، قد امتزج في القرنين التاسع عشر والعشرين بفكرة الغرب عن وجود أمة ، ودولة تتألف من أمة .

وحتى في العقد السادس من القرن التاسع عشر فكر قلة من المفكرين العرب في أمة عربية تحتضن كافة الشعوب التي تتكلم العربية ، بصرف النظر عن العقيدة . غير أن الاستجابة الأولى العامة لآراء الغربية لم تكن منظمة واعية ، ولم يندمج ادماجها بالتراث العربي إلا في حوالى العقد الرابع من القرن الحالى . ولقد سبق أن ذكرنا السبب في ذلك الاقتدار قديماً إلى الاتصال سواء الاتصال الشخصي أو الاتصال بالكلمة المكتوبة بين أجزاء العالم العربى المختلفة ، وانشغال مصر بقومية مصرية خالصة ، وذلك بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، واستمرار وجود حاكم مستبد آخر ، ممثلاً في الحاكم التركى ، وتشبث الشرق العربى بعد فرساي إلى بلدان متعددة ذات سيادة ، لكل منها مصالحها المحلية التي تستفيد من التقسيم .

ولكن بالرغم من هذه الأحداث وآثارها ظلل هناك احساس  
« بالعربية » ، وأخذ هذا الاحساس ينمو . وفي مصر ، وفي كافة أنحاء العالم  
العربي ، أصبحت العربية الوسيلة التي تستخدم في الصحافة ، لأخذة في النمو  
السريع ، وفي ميادين النشر والتعليم .

وفي القرن العشرين تضاعفت وسائل المواصلات - من كافة الأنواع -  
بين أجزاء العالم العربي . وبعد الحرب العالمية الأولى ازداد الاتجاه نحو  
قومية عربية ، تختفي وراء ما يعتبره العالم الخارجي قومية « سورية » ،  
أو قومية « مصرية » ، ، وما ساعد على هذا الاتجاه الأحداث السياسية  
والتيارات الايديولوجية . واند رأينا الدور الذي لعبه الكفاح ضد الدول  
الغربية في المنطقة كلها ، من مراکش إلى العراق ، وذلك الحق والخوف  
المشتركين إزاء مشكلة فلسطين ( غير أنه لم يظهر بصورة قوية في المغرب )  
ولكن كان هناك إلى جانب ذلك هذا البحث المستمر ، من جانب المفكرين  
السياسيين والمثقفين وراء معادل - محلي - لمعهوم الغرب عن الأمة ،  
واحتضن البحث الآن عدداً متزايداً من الرجال والنساء الذين ازداد  
إتصالهم فيما بينهم . وانتشرت بينهم مؤثرات إيديولوجية ، جديدة ، قوية ،  
قادمة من الغرب والشرق ، ومنها على الأخص فكرة الألمان الصوفية  
عن « فولك » أو « شعب » . وظهور القومية الحديثة في الهند التي لم تكن  
تسكلم لغة واحدة وإنما ٢٠٠ لغة .

ونستطيع أن نلص التعمج في نفس الكلمة العربية التي استخدمت  
لتصف القومية ، قالي العقد الرابع من القرن ، كانت كلمة « وطنية » هي

الكلمة السائدة ، ومنها ما حب الانسان لمسقط رأسه ، أو للسكان الذي  
يخط فيه . والارتباط بين هذه الكلمة والكلمة الفرنسية ، ناسيوناليتي ، واضح  
فهي تجمع بين مفاهيم الوحدة القانونية (أو الإقليمية) والوحدة الاجتماعية  
(أو السياسية) . ولكن حدث بعد عام ١٩٣٠ أن استخدمت العربية  
لمصطلحا جديداً وهو القومية . والقوم هم مجتمع و الشعب ، في القبائل  
العربية القديمة . وهو مجتمع يدين له الفرد بالولاء ، بصرف النظر عن  
المكان الذي يقيم فيه . إن قوميته تتخطى حدود المكان ، سواء المكان  
الذي ولد فيه أو الذي يعيش فيه . ونستطيع أن نلصق في ظهور عبارة  
« القومية العربية » ، سعى الوطيين وراء تنابها بين كافة العرب ، دون  
النظر إلى كونهم مواطنين في دولة عراقية أو أردنية . واليوم نستطيع  
أن نقول أن العبارة أصبحت شائعة جداً ، فهي تمثل فكرة يستطيع أن  
يستجيب لها كل شخص يتكلم العربية وتعيش في ظل التراث الثامن العربي  
وهي تتخطى الحدود التي يراها العالم مرسومة على الخريطة ، وهي تتخطى  
الدين ( ففي مقدور العربي المسيحي أن يحس بنفس الاستجابة ) وهي تخلق  
رباطاً نفسياً مستمراً بين المواطن في دولته الشرعية وهذا المجتمع العربي  
الكبير الذي يشعر أنه جزء منه .

غير أن تحويل هذا المفهوم الانفعالي إلى وحدة عربية دستورية ملبوسة  
لن يكون سهلاً . فقبل ثورة شباب العرب الكبرى في العقد السادس ،  
كان رد القيادة القديمة على هذه المطالب قاصراً على تأليف الجامعة العربية  
عام ١٩٥٤ ، والجامعة العربية منظمة تربط بين الدول العربية « من أجل  
تقوية الروابط بينها ، والتنسيق بين برامجها السياسية بطريقة تحقق التعاون



القيل بينها . ولكن « مع الاحتفاظ لكل واحدة باستقلالها وسيادتها » .  
 قامى الأشواط التى قطعها القومية العربية منذ ذلك الحين ؟ نستطيع أن  
 نجد ذلك فى الوثائق الخاصة بإعلان الوحدة بين مصر وسورية ، فقد جاء  
 فيها أن هذه الوحدة التى هى ثمرة للقومية العربية تعتبر الطريق الذى سيفضى  
 بالعرب إلى السيادة والحرية ، ولكى تخرج هذه الوحدة من دائرة الرغبات  
 والامنيات إلى دائرة الحقائق يكون للجمهورية علم واحد ، وشعب  
 واحد هو جزء من الأمة العربية .

لقد كان هذا أول تعبير ملموس لحلم العرب فى الوحدة ، ولقد أثار  
 ذعر الحكام والزعماء الذين عاشوا فى الحقبة القديمة . وفى خلال ثلاثة  
 أسابيع تسببت هذه الوحدة فى إعلان قيام الاتحاد الهاشمى بين أسرقى  
 العراق والاردن ، بينما حاول الملك سعود البضاء على الوحدة بين مصر  
 وسورية . ولقد تحدثنا - فى فصل سابق - عن مخاوف الزعماء المحافظين  
 فى لبنان . ولقد جعلت الوحدة نورى السعيد يفكر فى غزو سورية -  
 فى يونية ١٩٥٨ - لىكى يعزل جارة العراق عن مصر . ولكن علينا  
 ألا نلظر أن المعارضة أو العرافيل التى توضع أمام الوحدة العربية صادرة  
 عن رجال العهد الماضى وحدهم . فما زالت هناك قوى تعرقل ، ودعاة  
 انفصال فى داخل العالم العربى .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية ، آمنت بريطانيا وفرنسا بأنه ليس  
 من مصلحتهما أن يتحذا أو تعمدا إلى توثيق عرى الوحدة بين الأجزاء  
 التى يتألف منها العالم العربى وأكثر التقسيمات الحالية فى الشرق العربى

من صنع بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى. وفي المغرب العربي لم تفكر فرنسا في تحقيق أى شكل من أشكال الوحدة بين المناطق الثلاث الكبرى: مراکش والجزائر وتونس، إلا بالقدر الذى تيسر به هذه الأشياء اشراف فرنسا وحكمها. ولم تتغير هذه السياسة إلى اليوم. وبما أكدها في الجزائر أن فرنسا فقدت مراکش وتونس بحصولها على الاستقلال.

ونظرت بريطانيا إلى مصر والسودان باعتبارهما كيانين منفصلين بالضرورة، ولم تفكر بأية حال من الأحوال في توثيق عرى اتصالهما بأقطار الشرق العربي. ولكن، ما أن نشبت الحرب العالمية الثانية حتى بات من الواضح أن على الدول الكبرى أن تعدل من موقفها، إزاء الاتجاه العام نحو الوحدة داخل اطار القومية، والنداء القوى الذى عبرت عنه دول المحور. وخلال الحرب أصدرت بريطانيا بيانين تحبذ فيهما أمل العرب في الوحدة وبناء عليه رجبت بتأليف جامعة الدول العربية. وكثير من المستعمرين في دوائر بريطانيا الرسمية رحبوا، بصدق، بهذه الوحدة، ورأوا أن هذا لا يتعارض مع المصالح البريطانية طالما ظلت قيادة الحركة على علاقة حسنة مع بريطانيا ولكن ما أن أصبحت القيادة في يد حكومة مصرية مستقلة، حتى وجهت بريطانيا تأييدها إلى الاعداء، وبخاصة نوري السعيد والمالك حسين. اللذين قد يستطيعان توعم حركة مضادة للوحدة في الشرق العربي، حركة ترتبط ببريطانيا اوتباطاً وثيقاً. غير أن انهيار هذه السياسة عام ١٩٤٨ (وهي السياسة التي ارتبطت بها الولايات المتحدة منذ ذلك الحين) لم تؤد إلى تعديل اتجاهات بريطانيا

أو الولايات المتحدة. غير أن الدلائل تشير إلى أن الدول الكبرى تدرك الآن أن من المستحيل معارضة حركة القومية العربية في ظل أية زعامة.

ولقد سارت سياسة الاتحاد السوفيتي على نهج مماثل. وخلال العقد السادس من القرن الحالي، عندما كانت حركة شباب العرب مشغولة بصراعها مع دول الغرب، أيدت روسيا حلم الوحدة بشدة. وكانت روسيا تأمل من وراء ذلك أن يؤدي تأييدها إلى زيادة هيبتها، أما أهلها البعيد فهو أن تستغل الأحزاب الشيوعية العربية هذه الهيئة وتحقق مزيداً من الفوز من داخل الحركة الوطنية. ولكن انضح للاتحاد السوفيتي والشيوعيين العرب، في الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٨ أن حياد الرئيس ناصر لا يسمح بأي نشاط شيوعي.

وإذا نظرنا إلى الوحدة العربية التي ستطور، وجدنا أن طابع المغرب العربي يوحى - بشدة - بوجود وحدة اقليمية مستقلة داخل العالم العربي. وهذه المنطقة - المعزولة عن الشرق بالصحراء والمسافات البعيدة - بيئة مادية موحدة. وهي تحتضن عناصر حضارية - وبخاصة العناصر البربرية - غير مستعربة تماماً، إلى جانب مقاومتها التاريخية للسلطة المركزية، مما يجعل الوحدة المغربية أكثر احتمالاً من اندماج هذه الأقطار مع بقية العالم العربي، ونستطيع أن نلح بصيصاً من هذا الاتجاه في قرار مؤتمر طنجة المنعقد في أبريل عام ١٩٥٨، فقد تحدث عن «رغبة شعوب المغرب العربي... في اتحاد (فيدرالي)».

وفي نفس الوقت، هناك شعور متزايد للمشاركة مع بقية دول العالم

العربي ، هذا الشعور موجود في مراكش ، الجزائر ، وتونس ، وفي عام ١٩٥٨ انضمت مراكش وتونس إلى الجامعة العربية ، وفي نفس الوقت كان للوطنيين الجزائريين روابط قوية طويلة بمصر وغيرها من الحكومات الوطنية في الشرق ، وفي عام ١٩٥٩ اجتمعت الجامعة العربية في الدار البيضاء لأول مرة .

وليبيا ، ذات التعداد الضئيل والكيان السياسي الشاب ، عضو في الجامعة العربية ، غير أنه لا يمكن التكهن بالمجرى الحقيقي الذي تسير فيه علاقتها بالعرب ، غير أن الملك أدريس الأول قبل قرار مؤتمر طنجة ، وليس من الغريب أن نلص اتجاها متزايدا ناحية المغرب من جانب هذه الدولة الصغيرة التي تعتبر قنطرة ، بدلا من الاتجاه ناحية العملاق المصري في الشرق ..

وإن اهتمام مصر والسودان الحيوى المشترك بمياه النيل يخلق في حد ذاته رباطاً دائماً بينهما ، بالرغم من أن الاتفاق حول توزيع هذه المياه (١٩٥٩) لم يكن سهلاً . ولقد تضاءلت مخاوف مصر من ضغط أجنبي عن طريق وضع السودان عند أعلى النيل ، وتضاءلت هذه المخاوف بفضل الانقلاب العسكرى الذى تم في عام ١٩٥٨ ، إن البلدين شريكان طبيعيين ، ومن المتوقع أن تزداد الروابط بينهما ، غير أن السودان تضم منطقة جنوبية أدى انعزالها الطويل عن نفوذ العروبة إلى حدوث توتر ، ويزداد هذا التوتر إذا ما كان هناك اتجاه نحو الوحدة ، اتجاه يحنى إزاءه سودانيو الجنوب من السيطرة المصرية .

ولم تمض سوى فترة قصيرة على استئناف مصر لدورها الحيوي  
التي ابدى في السياسة العربية ، ولكن المهم أنها استأنفت دورها بالعمل ،  
وأن هذا الدور جاء بعد فترة طويلة لعبت فيها مصر دورها في التطور  
العربي في ميادين الثقافة ، والتعليم والأعلام ، والصناعة .

ولقد تميز تاريخ مصر - بصفه مستمرة - بقلتها أزاء الاحداث التي  
تقع وراء حدودها الشرقية . والشرق العربي يدرك ، إلى حد كبير : أن  
مصر مصدر هام من مصادر قوة العالم العربي ، والواقع أنها كانت ،  
في مرات عديدة ، « مفتاح » الغزو الاجنبي للمنطقة . والوطنيون العرب  
المحدثون لا يعتبرون زعامة ناصر « تدخلا غير عربي ، مثلما يفعل الغرب » ،  
ولما يرجون هذه الزعامة ويعتبرونها « عودة » جذيرة بهذا الترحيب .

وتوجد في عدد من البلدان العربية الهامة أقلية أو جماعات حضارية  
بارزة لا يمكن إهمال موقفها من الوحدة العربية . ولقد أشرنا إلى  
مخاوف المسيحيين اللبنانيين ، وستظل موجودة طالما أن الموضوع يكتنف  
الدور الذي تلعبه مشاعر المسلمين المشتركة في القومية .

وهناك في شمال العراق مجتمع كبير من الأكراد الذين يزيد عددهم  
على ٨٠٠.٠٠٠ شخص قوي ، وهم ذوو نزعة انفصالية منذ زمن طويل  
ولا يتكلمون لهجة عربية ، وينجذبون بصورة قوية ، لحالة كردية وطنية  
من أرمينيا السوفيتية ( يعيش الأكراد في إيران ، والعراق ، وسورية  
وتركيا ، وأرمينيا ) والقبائل الموحدية في جنوب السودان لم تستعرب  
وهي تميل إلى مقاومة مثل هذا الانحياز . . إن مثل هذه العوامل ستأهب

دورها في تطور الوحدة العربية ، وستحكم - إلى حد ما - في مدى اتحاد الدول التي تعيش فيها هذه الاقليات مع الدول العربية الأخرى .

إن المفهوم الخاص باستخدام المصادر إقليمياً ، والذي إزداد قوة بفضل نظام إمدادات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، يتدخل ، بصورة متزايدة ، في سعى العرب نحو الوحدة . وليس من الغريب أن يثير مسألة الثروة البترولية . ولهذا المسألة شكلان . وعندما يكون دخل البترول في يد حكام أوتوقراطيين ، فإن الخوف من الوحدة معناه خوف المالك والامراء على نفوذهم ، يحدث هذا بالرغم من أن « القومية العربية » تستطيع أن تحرك الحكام الذين يحسون بالتهرات العربي .

والوضع في العراق يختلف عن الوضع في الكويت . ففي الأولى يتم إستغلال الدخل العائد من البترول في الاقتصاد القوي ومشروعات التنمية التي تستغده . أما في الكويت ، فبالرغم من الاستثمارات العامة الهائلة المانحة ، فإن للحاكم فائضاً سنوياً هائلاً يذهب معظمه إلى لندن للاستثمار .

وهكذا كثيراً ما تشوه صورة الذين يملكون ، والذين لا يملكون في حق البترول العربي . ومن بين جميع الدول العربية التي تنعم بدخل البترول تجد أن الكويت وحدها ، بسكانها القليل العدد ، تستطيع أن تساعد الدول العربية الأخرى إقتصادياً ، في صورة تحويل الدخل . ولو حدثت ثورة تؤدي إلى اتحاد الدول العربية السعودية مع بلد عربي آخر - على سبيل المثال - فإن هذا سيفك أسار موجه من الآمال الشعبية

التي ستشعر في النهاية بأن الدخل العائد من البترول السعودي سيجتد في خدمة شعب العربية السعودية .

وسيكون هناك رد فعل قوى عاجل إذا حولت الثروة العائدة من البترول السعودي ، إلى خزانة أخرى . وينطبق هذا أيضاً على العراق ، وبصورة أكبر ، لأن دخل العراق من البترول مخصص للتنمية الداخلية والامر الذي له دلالة أن حزب البعث العراقي الذي نادى بالاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة بالرغم من عدم ترحيب ناصر ، نادى بوجود الاحتفاظ بالقانون الذي ينص على تخصيص ٧٠٪ من دخل العراق من البترول لمشروعات التنمية ، والاحتفاظ بهذا القانون حتى في حالة تحقيق الوحدة .

ومع ذلك فإن، توزيع الثروة البترولية يدخل في الصراع من أجل تحقيق الوحدة العربية ، فالعومية العربية غير راضية عن ضخامة الأرباح التي تجنيها شركات العرب الاستغلالية ( غير أن المنشولين يدركون أن إدارة العرب وحدهم للصناعات البترولية أمر مستحيل من الناحية الفنية ومشكوك فيه من الناحية الاقتصادية ، ذلك لأن هذا النشاط يتضمن تشغيل حقول البترول ونقله ، بل وتسويقه في الغرب أيضاً ) . وهناك كثيرون يؤيدون فكرة استغلال كافة الموارد العربية ، بما في ذلك البترول للنهوض بالعالم العربي بأكمله . والحقن موجه بصفة خاصة إلى الكويت التي تستغل قاض رأس مالها في خارج المنطقة . وسوء في داخل الجامعة العربية أو خارجها لقيت فكرة « بلك تنمية » عربي اهتماماً متزايداً .

وتتلخص الفكرة العامة في أن تضع الدول المالكة للبترول والشركات المستقلة ٥٪ من دخلها في هذا البنك ، الذي تقترض منه الدول المحتاجة ما تريد من أجل مشروعات التنمية المنفق عليها .

وأخيراً يجب أن نشير إلى أن الصراع العربي الاسرائيلي يتدخل بصورة كبيرة - في تطور الوحدة العربية . . ويبدو أنه يميل إلى التعجيل بالوحدة . . والعرب يشعرون بازعاج مستمر إزاء الشكل المادي لاسرائيل لأنها تقسم العالم العربي عند مثلث القبة ، وليس من المحتمل أن يقبل العرب ذلك ، الممر ، بين مصر والاردن ، والذي تعرضه لاسرائيل كجزء من اتفاق الصلح . وإلى جانب هذا نجد اسرائيل تهدد أن اليوم بالحرب إذا اتحد الاردن مع أى بلد عربي ، ذلك لأنها تخاف أى تطويق قوى منسقة عسكرياً .

بالرغم من كل العقبات السابقة يحتمل أن تنمو الحركة الرامية إلى مزيد من الوحدة ، إلى أن يشهد العالم يوماً اتحاداً عربياً قوياً ، تعاونياً يشمل المنطقة العربية بأكملها . . وداخل هذا الاتحاد ( الذى قد يجرى في صورة جامعة عربية قوية ) نستطيع أن نتنبأ بعدد من دوائر الوحدة ( ستتضمن إحدى الدوائر بلدان المغرب الثلاثة - أو الأربعة إذا أضفنا ليبيا - في شكل اتحاد فدرالى ( ساطعة تنفيذية فدرالية ، ومجلس فدرالى وإدارات إقليمية ) . . ومن المحتمل أن يكون هناك اتحاد فدرالى آخر يضم الجمهورية العربية المتحدة ، والعراق ، والاردن ، وربما الكويت ولبنان ، والسودان . . ويدور الشك حول البلدين الآخرين ، لأن طابعهما الداخلى وحساسيتهما تجعل الاحتمالات تشير إلى انضمامهما إلى دائرة اتحادية



ثالثة..وسيمت تفسيق السياسة الخارجية والدفاعية في هذه الدائرة، وستنضم إليها الدول الأقل تقدماً، كالعربية السعودية، واليمن وجنوب الجزيرة العربية، وإمارات الخليج الفارسي بعد أن تتحرر من معاهداتها القديمة التي تربطها ببريطانيا.

إذا اتخذنا في اعتبارنا تلك العقبات التي تعترض طريق الوحدة، وتصميم العرب - مع ذلك - على تحقيقها، بدا لنا خطأ النظرة الغربية التي تنسم بالتشكك الساخر... ويجب ألا ندهش حين نرى الزعماء العرب يتكلمون عن الأخوة ثم ينقضونها أفعالهم. ومن المؤكد أن الأحرى بالغرب أن يتخلى عن مخاوفه القديمة لوجود عالم عربي قوى متحد، وأن يبتعد عن السياسة التي ساهمت في الماضي في توتر المنطقة... إن على العرب وحدهم أن يقرروا خطوات الوحدة، وقيادتها وأشكالها... وأى محاولة للاملاء أو التعديل ستؤدي إلى وحدة غير طوعية وفاشلة، ووحدة لا تستخدم للعرب أو العالم بأكمله.

## الفصل العاشر

### خاتمة

من حسن الحظ أن الروابط الثقافية والسياسية والاقتصادية بين العالم العربي والغرب أكثر بكثير من المشاكل التي تفصل بينهما ، غير أن دول الغرب لم تدرك هذا في كثير من الأحيان ، واليوم ومرحلة جديدة ذات دلالة كبرى تتفتح في العالم العربي ، نأمل أن تغيب الأخطاء ، ونتجنبها ، في بطون الباريخ . . . لقد انطلقت من بين صفوف العرب قوى تنادى بالتغير في كل ركن ، وستؤكد هذه القوى كذب الأفكار التقليدية عن العرب كشعب وبكجاعة حضارية . . ومن المؤكد أن الغرب لن يخسر شيئاً ، وإنما سيكسب إذا شرع في التناهم مع هذه الكائنات البشرية ، بطريقة إيجابية ، دون انتظار .

والقضية الأولى في هذه السياسة الجديدة أن العرب كائنات بشرية تتمتع بنواحي القوة ونواحي الضعف التي تميز الجنس البشري . . ومن المؤكد أننا لن نخسر شيئاً إذا اعترفنا بأننا لم تكن دلي استعداد دائماً للاعتراف بهضوية هذه الشعوب لجنس الذي انقضنا منذ زمن طويل أننا خلاصته الحضارية والفنية . . وفي استخدامنا لكلمة « العربي » وبعض المصطلحات التي نشير بها إلى العربي ، مثل « arab » و « egyptian » ندس تلك الاتجاهات التي أسامت إلى شعب لديه احساس كبير بالكرامة أنهم يحاولون أن يرتفعوا بأفهمهم ، في عشرات من المئين ، إلى حال من التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، الذي شغل للندنية الغربية

عدة قرون..وعلينا أن نركز أنظارنا على هذا المجهود الجبار، التاريخي بحق  
 لأعلى الفقر، والبؤس، والعنف، الذين لم تتحرر منهم إلا منذ وقت قريب.  
 وما يميز النضال العربي، سعيه وراء شخصية جماعية في عالم من  
 الشخصيات المتعددة.. ونظراً لأن الغرب تعرض لهذا الالام إلى حد  
 كبير، فالتبحث عن قومية يسلب ألما، يشعر بالذعر حين يلبس  
 استمراره في العالم العربي وفي أفريقية وآسيا.. إن القومية، في شكلها  
 السياسي الضيق، شيء عتيق ولا بد أن يكون عتيقاً.. ولكن من المؤكد  
 أن دروس التاريخ الحديث - تاريخ العرب - قد أكدت أنه ليس من  
 الممكن أن تتجاهلها مجموعة من البشر بكل بساطة، لا لشيء إلا لأن مجموعة  
 أخرى انتهت منها بالفعل.

وسنخطئ في الحكم بصورة خاطئة إذا ظننا أن القوميين العرب  
 لا يدركون قدم سعيهم وراء كيان.. أنهم يؤمنون بالأهداف الكبرى  
 للأمم المتحدة، وبالتعاون الدولي الحق، وليسوا في هذا بأقل من غيرهم  
 من المواطنين المعاصرين الذين تحرروا أو تخلصوا من الوصاية.. ولكن  
 يجب تركهم يبحثون عن هذه الشخصية التي يستطيعون أن يواجهوا بها  
 المجتمع الأكبر، وهم يشعرون بالكرامة والثقة بالنفس كاملتين.. أن  
 مشكلتهم فريدة في نوعها، وتمثل في أن التعبير الأمثل عن هذه  
 الشخصية العربية لا يتلاءم بدقة مع الحدود الموجودة - أو حتى داخل  
 نطاق الحدود الطبيعية - وإنما يمتد إلى منطقة مفتوحة، ويسمى إلى  
 التوفيق بين الخصوصيات وقومية لم تتضح أشكالها النهائية.

وفي لحظات الانزعاج قد يطيب لنا أن نتذكر أن هذا المسعى بأكمله  
 إنما جاء نتيجة لامتزاج بين فكرة ظهرت في المجتمع الغربي، وتراث

وضعه العرب الاول . وحرى بنا ألا نعرقل هذا المسعى ، وإنما نساعد على تحقيقه .. فلقد مضى علينا زمن طويل ونحن عاجزون عن التعرف ، في المجتمع العربي ، على آراء نخبها نحن بفخر في مجتمعتنا ، لأننا صنعناها بأيدينا .. ولقد تضاعفت الفرص أمام التفاهم مع العرب في العقد السادس من القرن .. وإذا لم تكن الفرص قد اختفت تماما ، فلأن العرب يؤمنون بمدنية الغرب التي تختلف عن سياسته .

وأذا استطعنا أن نفخر بإيمان العرب هذا ، وأن نعترف بالعلاقات الوثيقة التي تربطنا بهم ، وسعينا إلى التوسع في هذه العلاقات عن طريق التعاون المتعاطف ، والمساعدات المادية الملموسة ، فليس من المستبعد التثام الجروح التي حدثت في السنوات الأخيرة ، غير أن عوامل الاحتكاك الباقية مازالت عديدة وملحة .. من الجزائر إلى عدن ، من مأساة فلسطين إلى ارتباط أمارات الخليج العربي ببريطانيا . وليست هذه المشاكل مستعصية على الحل ، إذا استطعنا أن نتناولها من جديد باعتبارها مشاكل في ميدان العلاقات الإنسانية .. ولكن ، سيكون من المؤسف حقاً إذا أصيبت فترة جديدة من تاريخ العرب بجروح الحرب والازمات ، في الوقت الذي يحتاج فيه الأمر إلى التخفيف من حدة الفقر المتفاهم .

والمفروض أن التاريخ يساعد الإنسان على تجنب الأخطاء التي يخطئ بها التاريخ عنها التثام .. ومن المؤكد أن الوقت قد حان للاستفادة — بطريقة إيجابية — من الدروس التي كفلها تاريخ العرب الحديث ، للغرب لا للعرب وحدهم .

## فهرست

| صفحة | مقدمة                       |                |
|------|-----------------------------|----------------|
| ٨    | طبيعة العالم العربي وأهميته | : الفصل الأول  |
| ٢٧   | العالم العربي قديما         | : الفصل الثاني |
| ٤٦   | اليقظة العربية              | : الفصل الثالث |
| ٦٦   | العرب في مرحلة الانتقال     | : الفصل الرابع |
| ٨٩   | مزامنا نحن العرب            | : الفصل الخامس |
| ١٠٤  | العروبة الفتية تثور         | : الفصل السادس |
| ١٦٩  | الثورة العربية الداخلية     | : الفصل السابع |
| ١٨٩  | العرب وإسرائيل              | : الفصل الثامن |
| ١٩٦  | الوحدة العربية              | : الفصل التاسع |
| ٢٠٨  | خاتمة                       | : الفصل العاشر |
| ٢١٣  | قائمة بالمراجع              | :              |

## قائمة بالمراجع

ملحوظة : بلغ من ضخامة عدد الكتب التي تتناول كل بلد عربي على حدة أنه يتعذر علينا - للغاية - أن نقتق منها هنا . والقائمة الصغيرة التالية ، التي تشمل عدداً من الكتب والمراجع الأخرى ، تدور حول المنطقة العربية وشعبها ككل ، كما تتناول من المسائل الكبرى ما يساعد على الحكم على أفكار العرب واتجاهاتهم . والمؤلف مسئول بطبيعة الحال عن العبارات التي وضعها بين أقواس وعلق فيها على المراجع المذكورة .

### كتب جيب

THE ARAB IN HISTORY, Professor Bernard Lewis,  
Grey Arrow Books, 1958.

( دراسة تاريخية شاملة للعالم العربي ، وبخاصة في الأزمنة القديمة ، غير أنه ينتهي بنا إلى الفترة التي ظهر فيها نفوذ الغرب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ) .

THE ARAB, Edward Atiyah, Pelican Book No. A  
350, 1955.

الكتاب لمؤلف لبناني مسيحي مشهور تعرفه بريطانيا . وهو ليس حديثاً بالطبع ولكنه يعتبر تكملة مفيدة لكتاب البروفيسير لويس

### مراجع ضخمة

THE MIDDLE EAST, Royal Institute of International Affairs, Oxford University Press, Third Edition, 1958.

(لا شك أنه أشمل مرجع سياسي واقتصادي عن مصر والسودان والشرق العربي. وهو ينظر إلى النزعة القومية الأخيرة نظرة متزمتة محافظة).

NORTH-WEST AFRICA (The Magrib), ed. Nevill Barbour, R.I.I.A., Oxford University Press, 1959.

(يعتبر أول مكمل للمرجع الشهير للذكور آنفاً، وهو يدور حول المغرب العربي، ويتناول بصفة خاصة مراکش، والجزائر، وتونس، وليبيا. ويعتبر مجهداً رائعاً).

### القطعة العربية

THE ARAB AWAKENING, George Antonius, Hamish Hamilton, 1955.

مؤلف ضخمة وضعه أستاذ عربي، تناول فيه ظهور القومية في القرنين التاسع عشر والعشرين، غير أنه يقف عند أوائل الثلاثينيات.

SYRIA AND LEBANON, Albert Hourani, R.I.I.A., Oxford University Press, 1946.

EGYPT, Tom Little, Benn, 1958.

REVOLUTION IN IRAQ, «Caractacus», Yollancz, 1959.

دراسة للرأي العام المغارن الذي أدى إلى الثورة العراقية عام ١٩٥٨- وما الذي كان يدور في أذهان العراقيين. ويعتبر أول تحايل من نوعه

ARAB UNITY, Fayez Sayegh, Devin — Adair  
(U.S.A.), 1958.

( تحليل منظم للجهود من أجل تحقيق الوحدة العربية ، حتى قيام  
الجمهورية العربية المتحدة . وهو يشملها أيضاً بالدراسة ) .

### مقالات . الخ . . .

«PHILOSOPHY OF THE REVOLUTION», Gamal  
Abdel Nasser, 'The Observer,' London, October  
10th et seq., 1954, or as an appendix to 'THE  
SPHINX AWAKES', Gerald Sparrow, Hale, 1957.

( كتيب ناصر الذي يعرض فيه لأفكاره بصورة عامة ) .

«THE LESSON OF PALESTINE», Musa el-Alami, cf.  
'MIDDLE EAST JOURNAL' (Washington, D.C.),  
1950.

( يعتبر من أهم الكتابات التي تعبر عن رد الفعل القوي إزاء مشكلة  
فلسطين ، وهو يتناول ، بطريقة تفصيلية كل مظهر من مظاهر العروبة  
الفنية ، بالرغم من أن المؤلف محام فلسطيني من الجيل القديم ) .

«COMING TO TERMS WITH THE ARABS», Mi-  
chael Ionides, 'THE LISTENER', August 7th, 1958.

حديث ألقاه في الإذاعة البريطانية واحد من أكثر البريطانيين إغتراباً  
ولاماً بالشرق الأوسط نتيجة لوجوده في المنطقة لفترة كبيرة .  
والحديث يدور حول الدروس التي تؤخذ من الثورة العراقية ) .



«NASSERISM», a special issue of the regular monthly magazine, MIDDLE EAST FORUM, April, 1959, Alumni Office, American University of Beirut, Lebanon.

( ندوة اشترك فيها لفيف من أشهر الاساتذة والصحفيين من العالم العربي والعالم الغربي ) .

### دوريات

يحب المؤلف أن يشير إلى أن تتبع أنباء العالم العربي سيزود القارئ بأدق صورة من واقع البرقيات التي يبعث بها مراسلو « الجارديان » و « التايمز » و « الاوبزرفر » و « الاسبكتاتور » و « الإيكونوميست » ( مراسل الشرق الاوسط ) .

### مؤلفات أخرى

في عدد كبير من الكتب المذكورة آنفاً ، وبصورة خاصة في المراجعين الكبارين عن الشرق الاوسط وشمال غربي أفريقيا ، سيجد القارئ قوائم ممتازة مفصلة تتناول كل بلد على حدة بالدراسة والتحليل ، كما سيجد كتباً عن النواحي الاقتصادية وغيرها .

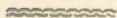


مقر هيئة قناة بورسعيد  
تظهر أمام إحدى السفن في طريقها إلى القناة



مجموعة  
اخترنا لك  
تصدر

نصف شهرية باللفات العالمية  
يشارك في تحريرها وإعدادها  
لجنة "اخترنا لك"



المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر  
٢٠ شارع منصور - ص.ب ٢٣٩٨

١٠ قروش